أشرف العشماوي

البارمَان

رواية

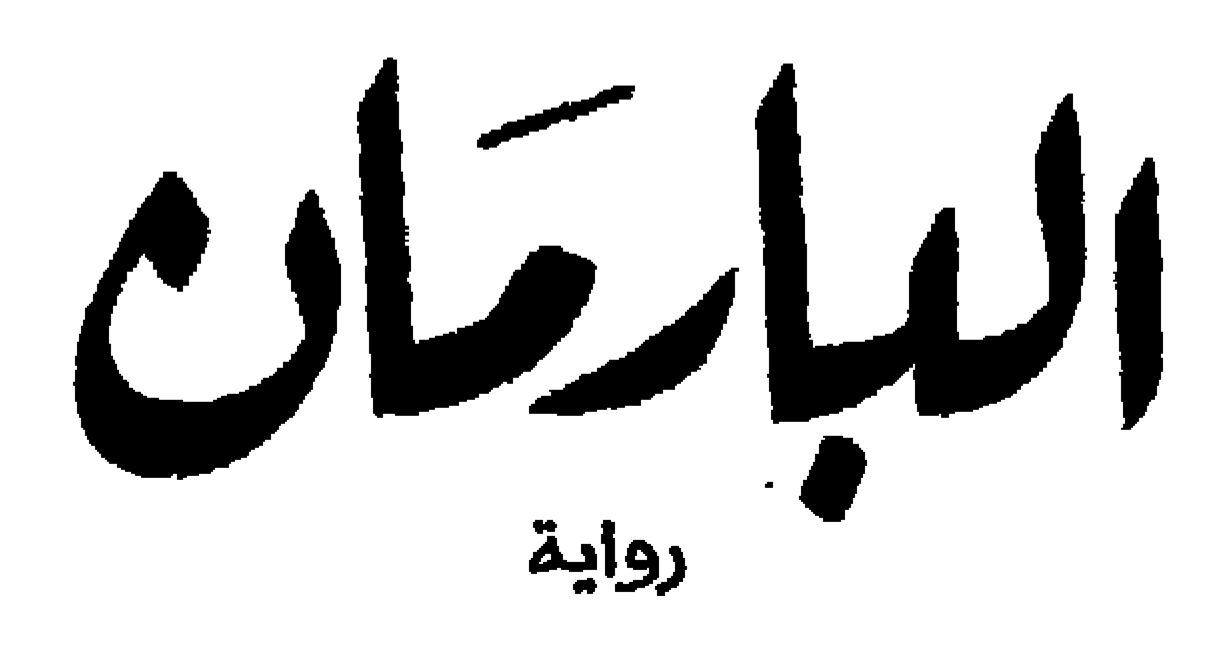
«أنا نديم خمركم والقاضي الصامت عن كل جرائمكم»

الطبعة
10



جائزة أفضل رواية عربية لعام 2014 من الهيئة المصرية العامة للكتاب

الدار المصرية اللبنانية


البارمان
رواية

العشماوي، أشرف.
البارمان: رواية / أشرف العشماوي. - ط10.-
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2014.
248 ص؛ 20 سم.
تدمك: 6 - 855 - 427 - 977 - 978
1- القصص العربية.
أ - العنوان. 813
رقم الإيداع: 17757 / 2013

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

الطبعة الأولى: يناير 2014م – الطبعة الثانية: يناير 2014م
الطبعة الثالثة: فبراير 2014م – الطبعة الرابعة: فبراير 2014م
الطبعة الخامسة: مارس 2014م – الطبعة السادسة: مايو 2014م
الطبعة السابعة: يوليو 2014م
الطبعة الثامنة: سبتمبر 2014م
الطبعة التاسعة: أكتوبر 2014م
الطبعة العاشرة: نوفمبر 2014م

أشرف العشماوي

البارمان

رواية

«أنا نديم خمركم والقاضي الصامت عن كل جرائمكم»

الدار المصرية اللبنانية

إهداء

إلى نفسي الأمارة بالحيرة التي تتمنى انجلاء الغيوم من على وجه القمر..

وأنا المنذور للعشق..

ألم يكن اليأس أدعى لراحة البال؟!

لا أظن.. فأنا أكتشف يومًا بعد يوم.. أن عزلتي لن تدوم طويلًا، ما دام

قلبي يدق باستمرار.. سأصبر وأنتظر.

أشرف العشماوي

أود من قرائي أن يسترخوا.. أن يتابعوا القصة.

دون حاجة إلى كتابة الملاحظات أو حفظ الأسماء والتواريخ،

فإنني أعدهم بصدق.. ألا أختبرهم فيما قرأوه.

1

أول رئيس منتخب

انسـابت موسـيقى الفالس الحالمة، تنزلق كقطـرات الندى على أوراق خضراء فتزيدها نضرة.. اقترب منها وهو يبسط كفه وابتسامة حانيـة تغمـر وجهـه، مدَّت يدهـا في جـزل كطفلـة، فاجتذبها برفق وراح يراقصها في إيقاع هادئ وهي تتأمل ملامحه بعينين واسـعتين مندهشـتين، توارت النجوم وازداد القمر كسـوفًا على طلة محياها، بـدت قسـمات وجهـه مهـزوزة، وكأنهـا تراه مـن خلـف نوافير ماء متصاعدة تتمايل ببطء فتتراقص صورته أمامها.. همست: من أنت؟ أجابها بصوت عميق: **أنا المستقبل الذي تحلمين به.. أنا مَنْ سألتِ النجـوم عنـه في ليالٍ غـاب عنها القمـر.** تهلل وجههـا وتنهدت في حبـور كأنهـا تطرد الحزن إلى الأبد من داخلهـا، ثم أغمضت عينيها مستسـلمة له وهي تدور بين ذراعيه في فضاء رحب، يتراقصان على الحافـة بين الحقيقة والخيال، يصنعان دوائر لا يراها أحد سـواهما، شـعرا بأنهما يحلقان ويكادان يرفرفان من السـعادة، ابتسـمت وهي

لا تزال مغمضة العينين والسعادة تكسوها، وصوته الدافئ يغمرها بكلماته.. **لا تتوقفي عن الحلم أبدًا؛ ففي أحلامنا نجد كل ما نريد.**

استيقظت مريم والابتسامة لا تزال عالقة بوجهها، فركت عينيها في كسل، وتقلبت في فراشها وكأنها تبحث عن حلمها التي كانت تتمايل فيه فرحًا منذ قليل، وقعت عيناها على علبة ألوانها وحاملها الخشبي والأتربة تغطيهما، كانا منزويين في أحد أركان الحجرة، فهزَّت رأسها في أسى ثم نهضت وهي تتثاءب لتفتح نافذتها فيغمر الضوء المترقب حجرتها في ثوانٍ، وقفت تتأمل المشهد أمامها.. كان رجل قصير القامة يرتكز بقدميه على قائمين خشبيين طويلين، ويميل بجزعه إلى اليسار وهو يُحكم ربط اللافتة القماشية الأخيرة، ويزفر متنهدًا بعد أن أنهى مهمة بدت ثقيلة على قلبه، الساعة الآن تقترب من التاسعة صباحًا بحي السيدة زينب، ذلك الحي الشعبي القديم الذي كان وقت السلطان بيبرس البندقداري يسمى «خط السباع»، حتى رُدمت القنطرة التي كانت تحمل الاسم والرسم ذاتهما كشعار للخليج الصغير الذي يشق الطريق أمام واجهة المسجد، فاندثرت معها سباع بيبرس ورسومه، كأشياء كثيرة راحت مع الزمن وإن بقيت سماتها في أهل حيها، وكأن كل ما يتعمد أن يمحوه الحكام يترسَّخ بعمق في وجدان المحكومين..

تاهت ملامح شارع زين العابدين، حي التجار الأشهر على الإطلاق، وسط اللافتات المزدانة بصور مرشحين للرئاسة، والمتخمة بشعارات وطنية ملتهبة فوق رؤوس المارة، حتى كلَّت رؤوسهم من التطلع إليها، فانصرفوا إلى حيث أُلصقت صور أخرى كبيرة ملونة على الجدران، أكبرها كانت ذات خلفية خضراء زاهية للرئيس المفعم بالنشاط والحيوية كابن العشرين ربيعًا، ممسكًا بقلمه وكأنه يخطُّ مستقبلًا واعدًا لسنوات قادمة.. **«يدِّينا العُمر ونشوفه مرة من نفسنا»**.. تعليق عفوي من راكب دراجة خمسيني، أسمر، نحيل، يحمل أرغفة متراصة على خشبة كبيرة فوق رأسه.. أطلقه بمرارة وانطلق مدفوعًا بجوعه يسعى إلى رزقه غير عابئ بما حوله..

على استحياء وُضعت ملصقات المرشحين الآخرين على التوالي، هذا يحاول أن يبدو غامضًا، وذاك وجهه غير مريح، وثالث على شفتيه ابتسامة لزجة، والرابع لا حضور له على الإطلاق فلا تنطبع صورته في أي ذاكرة، والخامس بلا تاريخ يُذكر فاستعان باسمه الرباعي لعله يعينه، أما الملصق الأخير الذي حظي بأكبر جمع من المواطنين حوله، فكان لرجل يرتدي طربوشًا، معروفًا للجميع، لكن مبعث دهشتهم كان من تَرشُّحِهِ لرئاسة الدولة وقد قارب التسعين من عمره.. **«يبقى الأولاني صغير وأولى بيها»**..

يضحكون مبتعدين عن المتحدث حتى لا يُتهموا بمساندته ولو بقلوبهم كأضعف الإيمان...

في حجرة أخرى في المنزل القديم ذاته وقف منير أمام المرآة يتأمل تجاعيد وجهه وهي تواصل الزحف بإصرار، بدت عيناه حمراوين، وتجعدت شعيرات رأسه الرمادية المتبقية أعلى فوديه، وتهدلت وجنتاه قليلًا وتكلست الوسادات الدهنية المنتفخة أسفل عينيه من كثرة السهر، خمسة وعشرون عامًا وهو يمارس مهنة تعلمها بالمصادفة البحتة حتى سرت في عروقه واستقرت تحت جلده، فبات يؤديها وهو مغمض العينين، يحفظ تفصيلاتها عن ظهر قلب، يتصرف دومًا وكأن الحياة بدون مفاجآت فلا شيء يؤثر فيه ولا عوارض تجعله ينتبه، كالسائرين نيامًا، يمضون في طريقهم ولا يعرفون أبدًا أنهم سيفيقون في لحظة يحددها القدر، فيدركونها متأخرين دومًا.

هذَّب شاربه، ثم غادر دورة المياه في تكاسل تاركًا لظهره وكتفيه بعضًا من حرية مُفْتَقَدَة، فانحنى ظهره وتساقط كتفاه كأنهما كانتا تنوءان بحمل ثقيل لسنوات طويلة، بعد أن تجاوز الستين بثلاثة أعوام كاملة.. ألقى نظرة خاطفة على شاشة التلفزيون في غرفة نومه بعد أن خفَّض مؤشر الصوت تمامًا كعادته، لفت نظره شريط الأخبار الأحمر الذي تسبقه كلمة عاجل، ثم بدأ يرفع مستوى الصوت

تدريجيا حتى لا تَهُبَّ زوجته النائمة في فراشها فجأة فتحيل نهاره إلى ليلٍ بهيمٍ من جراء غضبها، وأعصابها التي باتت منفلتة دائمًا في الآونة الأخيرة عقب اكتشافها أنه تزوج عليها عرفيًّا مرتين، ورغم طلاقه لزوجتيه العرفيتين إلا أنها أحالت حياته لمعتقل وصارت كسجان يعد عليه أنفاسه كل يوم..

كان مذيع برنامج «صباح الخير يا مصر» يحرص على إخراج طبقات صوت رخيمة حماسية باتت أقرب إلى الهتاف، وهو يعلن الخبر التاريخي.. أطلت ابتسامة استنكار من بين شفتي منير مدركًا أن تلك النبرة من المذيع نابعة من عقله لا من وجدانه كلاعب الروليت الذي يراهن على ذات الرقم كل مرة أملًا في الفوز، فربما يشاهده وزير الإعلام الحريص على متابعة البرنامج، أو الرئيس نفسه فينال الرضى من ولي النعم..!

«الإخوة المواطنون.. نعيش لحظات تاريخية غير مسبوقة بعد إعلان الرئيس منذ أيام قليلة من موطنه بمحافظة المنوفية إجراء انتخابات رئاسية لأول مرة في مصر، و بعد أقل من ستين يومًا سيكون لدينا أول رئيس منتخب منذ عهد الفراعنة».

كتم منير الصوت مرة أخرى وشرع في خلع ملابسه قطعة تلو الأخرى، وكل برهة يلقي نظرة خاطفة على الشاشة، تارة صور أرشيفية من مدرسة المساعي المشكورة، وتارة أخرى صورة

لرئيس الجمهورية بلا رابطة عنق وقد تخفف من زيه الرسـمي قليلًا فبـدا أصغر من سـنه كثيرًا! اكتفى منير بابتسـامة موتـورة تلك المرة ثـم أكمل ارتـداء بدلته.. تقلبـت زوجته في فراشـها ورمقته بنصف عيـن وحاجب مرفوع كرقم ثمانية لا يبشـر بأجـواء ودية، قائلة بنبرة لا تخلو من الشك:

- على فين العزم بدري كده؟!

- آخر معاد للتقديم في الانتخابات النهاردة...

أجابها وهو يغادر مُؤْثرًا السلامة وإنهاء النقاش. التقى في طريقه بابنتـه الكبـرى مريم التي كانـت قد ارتدت ثيابهـا وتأهبت للخروج بدورهـا، طوَّقته بذراعيهـا وطبعت قبلة طويلة علـى جبينه كعادتها، فربَّت كتفها في حنوٍّ مستفسرًا منها عن برنامجها اليومي.. فقالت:

- الأجزاخانة كالمعتاد، بس قبلها رايحة....

صمتت فجأة ثم تلفتت حولها كالمُراقب وهي مبتسمة ابتسامتها المشرقة التي تضفي عليها بريقًا، واقتربت حتى ألصقت فمها بوجنته هامسة:

- الكنيسة!

سـكنت ملامح وجهه وبدت قسـماته مطمئنة، فقد اعتاد سـماع تلك الكلمة كل أسبوع؛ لأن مريم أو مارلو كما يدللها لم تُغير ديانتها

مثلما فعل هو مضطرًّا منذ نحو تسع سنوات ليتزوج من منيرة أم ابنه الوحيد شهاب، ذلك الصبي الانطوائي الخجول، بعد وفاة والدة مريم، زوجته القبطية الأولى، نسي تمامًا اسمه الحقيقي القديم: منير زكي إسطفانوس، ولم يعد يُعرف إلا باسم: منير.. هجر بيته القديم في منطقة شبرا، واستأجر شقة في حي السيدة زينب، ولم يعد يُخبر أحدًا بأنه كان مسيحيًّا، وعندما كان يُسأل ممن عرفوه قبطيًّا عن سبب اختياره اسم منير لنفسه، وهل يرجع ذلك لديانته الجديدة، أم تيمنًا باسم زوجته الثانية منيرة، كان يُجيب وفقا لمزاج السائل وديانته ومعتقداته، فلم تعد لديه القدرة على الدخول في مناقشات سوفسطائية أو حوار أديان! فكلها بالنسبة له أمور بلا معنى؛ إذ صار مؤمنا في السنوات الأخيرة بأنه لا يوجد على وجه الأرض شيء ما يجعله يثور بسبب الآخرين، فليس من المنطقي أن يدفع فاتورة سوء خلق شخص آخر من رصيد أعصابه.. لذلك قرر أن يكون باردًا ليكسب عمرًا أهدأ!

انتفض فجأة ثم جذب مارلو من يدها، وكأنهما يفران من قسورة عندما علا صوت زوجته يعلن عن قدومها ناحيتهما بقامتها القصيرة، متدحرجة من فرط سمنتها وإهمالها لقوامها الذي كان يومًا ما يفتن رجال حي السيدة زينب قبل زواجه منها، وبسببه أيضًا تزوجها، أطلقت خلفهما سيلًا من الاتهامات بتدليل ابنته مريم التي تعيش معهما، كانت لا تطيق مجرد رؤيتها، فأقامت جدارًا عازلًا بينهما

من اللامبالاة والتجهم في وجهها كل صباح، مع شـجبٍ واسـتنكارٍ دائمين لكل تصرفاتها، فبدت مريم تجسـيدًا حيًّـا لأقلية مضطهدة، حسبما كان منير يتنـدر سـاخرًا مـن تصرفـات زوجتـه، محـاولًا التخفيـف مـن وقعها على ابنتـه التي كانت حتى هـذه اللحظة تلتزم بعهدهـا مع أبيهـا بإخفاء حقيقة ديانتها المسـيحية حتـى لا تتعرض لمزيد من التضييق من زوجة أبٍ باتت لا تنشـغل في الآونة الأخيرة إلا بإصلاح أمر مريم، فتفتق ذهنها بعد تفكير عميق عن أن الحجاب هو الحل!

- حجاب؟ ولمارلو؟!

كررهـا منير على مسـامع ابنته وهو يكتم ضحكاتـه بعد أن أغلقا باب الشـقة، فجذب يدها متوجهًا ناحية الدرج العلوي وهو يسـرع الخطى.. ضحكت قائلة:

- الحمام ولا الديوك؟!

اكتفى بابتسامة عريضة ولم يرد حتى وصلا إلى سطح البيت، كان الطقس متقلبًا نوعًا ما، حيث تعبث الرياح بما خفَّ وزنه وصار كمًّا مهملًا، في أقصى اليسار يقبع كشك خشبي متوسط الحجم، أخضر اللـون، يربـي منير فيه طيور الحمام، منذ سـنوات، كان قد اشـتراها من صاحب البيت عندما اسـتأجر شـقة فيه، وظـل يربيها لتتكاثر ثم يذبحهـا ولا يدعها تطير أبدًا، كمن يخشـى هروبهـا دومًا.. وبجوار الكشك ثلاثة أقفاص تحوي ديوكًا شركسية.

- جرب مرة تطيرهم يمكن يرجعولك تاني!

أجاب مريم، وهو منشغل بتغيير الماء ووضع الحبوب للطيور:

- صدقيني لو سألتي الحمام نفسه حيقولك مش عاوز يطير.. خلاص اتعودو على اللي هما فيه..

علت الدهشة وجهها، ثم ابتسمت بسخرية، فأردف:

- هنا بياكل ويشرب وعايش في أمان.. لكن لو طار مين عارف ممكن يحصله إيه؟ حد يصطاده ولا طير أكبر ياكله أو حتى يموت من الجوع..

- ده اتخلق علشان يطير ورزقه على الله..

قاطعها:

- وفي الآخر برضه حيندبح ويتاكل.. يبقى لزومه إيه الطيران؟ كده أنا ضمنت له حياة مرفهة على الأقل..

قالها وهو يضحك مضاعفًا كمية الحبوب وكأنه يغيظها أكثر.. أشاحت بوجهها في يأس وهي تتأمل ثلاث يمامات تحوم قريبًا منهما وترفرف بحرية، مراقبة الحبوب التي ينثرها منير في أوان فخارية مستطيلة، بينما قبعت طيوره ساكنة مستسلمة لقدرها فبدت لها طيورًا داجنة منتفخة، وكأنها فقدت ذاكرة التحليق والرفرفة، ورضيت بما اختاره منير لها من مصير، فسكنت كتماثيل جامدة من

حجر أصم. تركها لخيالها كي يُطعم ديوكه وينثر قطعًا صغيرة من الكبدة النيئة والأسماك على العلف الخاص بها لتلتهمه في ثوانٍ وهي تروح وتجيء في أقفاصها، وكأنها طيور جارحة تنتظر لحظة الفتك بفريستها على أحر من الجمر.

على ناصية الطريق افترقا بعد أن ألقى عليها محظوراته اليومية: **لا تلطُّف مع الزبائن. لا حديث جانبيًّا مع نجل صاحب الصيدلية. لا تأخير عن العودة للبيت بعد انتهاء العمل.** اتجهت مارلو إلى الكنيسة التي علت أصوات أجراسها وكأنها تلح على منير بدقاتها ليذهب مع ابنته!

قبع هو في سيارته القديمة مرتديًا نظارته الطبية السميكة المقعرة في طريقه إلى ميدان التحرير كعادته؛ ليترك سيارته في «جراج» عمر مكرم، ثم يستقل سيارة أجرة في رحلته التمويهية اليومية.. ما إن غادر الجراج متأهبًا لعبور الطريق إلى المجمع، حتى لفتت نظره حركة غير عادية في الميدان، زحام شديد واختناق مروري في الربع الأخير منه.. انتشر أصحاب الرتب الكبيرة وتابعوهم من الرواد والنقباء لتفقد الوضع وتبادل تمام التعليمات عبر أجهزة اللاسلكي..

اقتربت سيارة شرطة زرقاء حتى توقفت قبل مسجد عمر مكرم بمسافة قصيرة، وخرج من صندوقها الخلفي سبعة رجال تغلب

عليهم السمرة والبدانة وكأنهم جنود مرتزقة يعرفون دورهم، وفي لحظات كان الباعة يفرون في اتجاهات عشوائية متقنة، كما لو كانت متفقًا عليها مسبقًا لتشتيت انتباه المخبرين.

وقف منير يتأمل المشهد عاقدًا ذراعيه على صدره، وفي لحظة خاطفة مرق بجواره، كالسهم، شاب قصير، نحيل، أسمر، يرتدي نعلًا بلاستيكيًا ضيقًا، بحيث تخرج أصابع قدميه الطويلة من مقدمته بوضوح وهو يحمل صينية فضية صدئة يقلب فوقها أثناء عدوه كوبًا من الشاي الثقيل حتى استقر به المقام أمام سيارة الشرطة، فتناولها منه العقيد دون أن يلتفت إليه وكأنها قربان صغير مقرر لبقائه بنصبته الصغيرة في الميدان.

انشغل العقيد حسين عناني بمتابعة معركته مع الباعة الجائلين ممن فروا بقرابينهم من مخبريه! وأعطى توجيهاته بإخلاء الربع الأخير من الميدان، ثم ترجَّل من السيارة بعفوية متحدثا في جهازه اللاسلكي عن تمام الانسحاب وتأمين المنطقة، وملامح وجهه تحمل الكثير من التأفف والضيق كأنه يؤدي عملًا إضافيًا!

وجد منير نفسه محشورًا فجأة بين صفين متراصين كبنيان أعوج من الأمن المركزي، يحجبان عنه الرؤية بخوذهم السوداء الضخمة الثقيلة، وحوله عشرات الأشخاص من أعمار مختلفة رجالًا ونساءً، شبابًا وشابات، جميعهم بلا استثناء تلوح أيديهم في حماسة جارفة

بالأعـلام الموزعـة عليهـم، تفـرَّس منير فـي وجه أحـد المجندين المواجهيـن لـه.. كان اصفراره يبـدو واضحًا رغم السـمار الطاغي على بشـرته التي لوحتها شـمس الظهيرة في كل تشريفة، ومثل حية تفترس طائرًا صغيرًا قليل الخبرة فيظل متسمرًا أمامها بلا حراك حتى ينهار من داخله، ظل المجندون يقاومون الطقس الحار، وسـيقانهم تئن حتى تسـتغيث مع ضعف بنيانهم وهزال غالبيتهم ولا تسمع لها مجيبًـا.. قفـز إلى مخيلته وقوفه منذ أربعـة وأربعين عامًا في المكان ذاتـه عندما كان مجندًا مثلهم، وقتهـا التفت رغمًا عنه، فلم يقوَ على كتم فضوله لرؤية جمال عبد الناصر في سـيارته المكشوفة وبجواره الرئيس السـوري فـي نهاية أيام الوحدة العربية، قبل اسـتحالتها إلى عزلة بعدها بشـهور قليلة، وبحركة لا إرادية وجد نفسـه وقتها يلوح بكفـه محييًـا الرئيس، وتصور لوهلة أن «ناصر» يحييه، فشـعر بفخر ونشـوة، أفاق منهما على يدٍ غليظة تسـحبه مـن ذراعه خطوتين إلى الـوراء، وكأنـه قطعة شـطرنج انتهى دورهـا بحركـة مباغتة، تلاقت نظراتـه مع مَنْ جذبـه، كان رجلًا ضخمًا، فظَّ الملامح، تشـي هيئته بأنه شرطي رغم ملابسه المدنية، فامتثل ونقل بصره إلى المجند مرة أخرى سائلًا إياه وهو يتراجع بابتسامة مشجعة على الحديث:

– تشريفة مين يا دفعة؟

ابتسـم له المجند فكشـف عن صفين من أسـنان صفراء يعتريها السـواد في معظم فوارقها لتزيد الابتسامة من كآبة وبؤس منظره، ثم تصنع المراوغة وهو يمط في عبارات كلامه قائلًا:

- تشريفة رياسة يا فندي...

ثـم تجهم وجهه فجأة وشـدَّ قامته النحيلة رافعًا رأسـه إلى أعلى قليـلًا، فالتفـت منير إلى يسـاره ليرى لواء شـرطة يسـير فـي خيلاء كديكٍ روميٍّ سـئم حظيرته الضيقة، وأزرار سـترته تـكاد تئن تحت وطأة كرشه المنتفخ، وخلفه ثلاثة ضباط متأخرين بخطوة، ويمدون أعناقهم بعد خفضها قليلًا ليستمعوا إلى تعليماته ويجيبوه بما يطمئنه فقط، اشرأبت عنق منير ليتابع سيارات الموكب وهي تمر مزمجرة، مصفـرة، وبعضها يتحلى بفوانيس زرقاء تدور بسـرعة وتطلق أنوارًا متقطعـة، خاطفـة، تلهي الناظريـن عما بداخلها، أمعـن النظر ودقق لعلـه يـرى الرئيس.. مرت سـيارات كثيرة متشـابهات، ذات سـتائر داكنـة، أحصـى منها أربعين، ثم تشـتت ولـم يعرف بأيهـا كان يقبع سيادته.. تُرى هل هو غير موجود؟!

ظل سـاهمًا حتى قطع حبـل أفكاره صوتُ لواء الشـرطة منتفخ الأوداج في جهاز اللاسلكي، وكأنه يجيبه ببساطة على كل تساؤلاته بجملة واحدة:

- من عدمه يافندم!!

أشـار منير لسيارة أجرة، ثم غاص في المقعد الخلفي لها مكتفيًا بكلمة واحدة لتوجيه سائقها:

- الزمالك..

كان فـي طريقـه إلـى البار الذي يعمـل به، لكنـه كان يخفي على أولاده وزوجتـه حقيقـة عمله كسـاقٍ في حانـة الفندق الـذي تديره وتملكـه شـركة الفنادق الحكومية الشـهيرة، كلهم يعرفـون فقط أنه مدير مالي في إدارة الشـركة.. إلا شـخصًا واحـدًا، عرف عن طريق الصدفة السـيئة التي لم يتمنَّها منير يومًا.. إنه حمدي عباس الشـهير بأبي عدنان، الذي تعرف عليه في بدايات عمله بالحانة، وصار بعدها مـورِّد بضائـع محله من «الطُّـرح» وملابس المحجبـات، وصاحب النصيـب الأكبـر مع زوجة منيـر الجديـدة، ورغم أن الفنـدق الذي يعمـل بـه منير متواضع نسـبيًّا ولا يتعدى تقييمه ثلاثـة نجوم، إلا أن حانته التي تقبع في قبوه الفسـيح، صارت هي الأشهر على الإطلاق فـي القاهرة كلها، وصار اسـم سـاقيها مرتبطًا بها، فـلا تذكر الحانة إلا مسـبوقة أو مشـفوعة بـه بعـد أن أمضى بها ربع قرن مـن الزمان، كبـر فيها ومعها وأصبح مرتادوها يطلقون اسـمه عليها، ومع الوقت تناسوا اسـمها وظهرت أجيال جديدة لا تعرف اسم الحانة الأصلي بعد ما أطلق أحد نجوم سـينما الخمسـينيات والسـتينيات على منير اسم «ستيڤي»، تحويرًا للقبه القديم «إسطفانونس»، وصارت الحانة تُعرف بهذا الاسم، فتوحدا معًا.

ولما انطفأت أضواء الكاميرات أمام ذلك النجم السينمائي الشهير، قبع في ظلام الحانة كل ليلة؛ ليسمع حكايات نميمة من ستيفي عن المجتمع، كان بمثابة جريدة ناطقة له، فستيفي لديه قدرة هائلة على مواصلة الحكي وتوليد القصص من بعضها البعض، حتى وهو منغمس في العمل، مثله مثل الأخطبوط، يناول ذلك زجاجة، ويقدم كأسًا لآخر، ويزين طبقًا من المقبِّلات الخفيفة المزينة ببعض الخضرة وهو يحادث تلك، ويضحك مع هذا، ودائمًا وأبدًا لا يذوق الخمر، ولا يفكر مجرد التفكير في الاقتراب منه!

كل شيء حدث بالصدفة، فلم يكن سوى عامل بسيط بالفندق يحمل الحقائب، بعدها انتقل إلى خدمة الغرف، اختلط بالزبائن واقترب منهم أكثر، وعندما مرض مساعد الساقي حل محله لمدة أسبوع. وخلاله اكتشف - وهو الذي لا يحب رائحة الخمر - أنه صاحب اليد العليا على زبائنه المخمورين فاستخدم قدرته على الإيحاء بأن ما يقدمه لهم مختلف عن من سبقه فتقبلوه سريعا وتعلقوا به أكثر من الحانة نفسها.. ظل يقترب منهم أكثر حتى عرف أسرارهم وخبايا نفوسهم، وكتمها بداخله ليستخدمها وقت الحاجة ليسيطر عليهم، ويتعلقوا به فلا يفارقونه أبدا فكانوا يبحثون عنه بأعينهم بمجرد دخولهم الحانة، ولا ترتاح قسمات وجوههم إلا عندما تقع أبصارهم عليه؛ مثلهم مثل الوليد الذي يهتدي لصدر

أمــه برائحتها.. يظل يعبث بشــفتيه حتى يلتقم ثديهــا فلا يتركه حتى يشبع.

دبــت الحياة مــرة أخرى فــي هاتفــه المحمول، بعــد أن ابتعدت بــه العربة عن محيط الموكب الرئاســي، زوجتــه كانت هي المتصلة الأولــى، أجابهــا ببرود وهو يتابع شــزرا عيني الســائق المتلصصتين في المرآة الأمامية للســيارة.. طــال حديثها حتى ضاق به وبها، فظل يبعــد الهاتف عن أذنــه كل برهة متأففًا وهو يتأمــل الطريق من نافذة الســيارة، فصافحت عيناه لافتة قماشــية عريضة تحمل عبارة «مصر مبــارك» بالبنــط العريــض، كانــت زوجته أم شــهاب حسـبما تحب أن يناديهــا جيرانهــا بعــد أن ارتدت الحجــاب مؤخرًا، امرأة بســيطة وجميلــة ومحبــة للحياة، جــرى وراءها رجال وشــباب كثيرون فلم يفز بها إلا هو، مشــهرًا إســلامه قربانــا لحبه وولعه بهــا نازعا وازعه الديني بمخالب شــهوته وسطوة مشــاعره الجارفة نحوها، فأنجبت لــه الولد الــذي أراده وتمناه، وبعدها صار كذكــر النحل لا فائدة منه ولا حاجــة لها به، تبدلــت الزهرة الفواحة الجميلــة حتى ذبلت وإن كان وجههــا لا يزال يحتفظ بمســحة من جمال قديــم، ولكنه جمال كســول، راحــت منــه النضرة والأنوثــة، بعد أن أهملت نفســها حتى لَيَحْسَبُها المرء متورمةً من فرط بدانتها، ثــم انشغلت عن منير بولدها شــهاب، ثم بالاثنين معًا مع صحبة مــن جيرانها عندما انخرطت في دروس دينية لشــيخ نصف مشــهور ممــن طفوا على الســطح فجأة،

فتغيرت نظرتها إلى مجتمعها، وتبدل مفهومها لحياتها حتى ضاقت نافذتهـا التـي تطل منها على الدنيا أكثر فأكثـر، فلم تعد ترى منها إلا لونين فقط.. أبيض وأسود، رداءها وطرحتها، وكأنها عادت بالزمن إلى عصور سـحيقة، تزمتت فاعتزلت أغلب صديقاتها القدامى، ثم تفرغت لمناوشة مريم ابنة منير فجعلتها هدفًا ثابتًا لها كلما تحركت أمامهـا، فراحت تطلـق عليها وابـلًا من رصاصات الانتقاد وسـهام السخط والتأنيب والتوبيخ، ومريم تجاهد لإخفاء ديانتها المسيحية، أما منير فقد كان لا حول له ولا قوة أمامها، لا يستطيع أن يطلقها بعد أن صـارت أم ولده الذي طال انتظاره وطالمـا تمناه، فضلًا عن أنها صاحبـة الحصة الأكبر في محل بيع ملابس المحجبات الذي يتولى إدارته في أيام راحته من الحانة.

لم تسـتجب زوجتـه لمحاولاته إنهاء المحادثة، واسـتمرت في إملاء أوامرها بشأن شراء بضائع جديدة يحتاجها المحل بعد انتشار الحجـاب فـي منطقتهم فـي الآونة الأخيـرة، وما ناله من شـهرة في مناطـق مجاورة.. اضطـر إلى أن ينصـت إليها باهتمـام تلك المرة، فأرباحـه من محل الملابـس هي التي يعيش منها بعد أن أقنع نفسـه بتحويل كل ما يكسبه من الحانة من أموال إلى بضائع، باعتبار أن ربح الخمور الحرام يذوب في إيرادات بيع ملابس المحجبات الحلال، فتزول حرمانيته حسبما سمع من فتوى أحد شيوخ المنطقة.

- فين في الزمالك يا باشا؟

قالها السائق وعيناه تتعلقان بشفتي منير الذي لم يتوقف عن الحديث طوال الطريق في هاتفه، فأجابه وهو يكتم الهاتف بكفه:

- عمارة لوبون على الكورنيش..

لم يكن يريد أن تسمعه محدثته في تلك المكالمة.. التي لم تكن سوى سيدة الأعمال زينة، وهي من أهم زبائنه بالحانة وأكثرهم سخاءً.. امرأة متفجرة بالأنوثة، في نهاية الثلاثينيات، شقراء، جميلة، ثرية، يوحي مظهرها بأرستقراطية ضاربة في الجذور، رغم أنها تنحدر من عائلة متواضعة اجتماعيا واقتصاديا، مطلقة من رجل أعمال معروف يمتلك سلسلة مطاعم شهيرة، بعد أن عاشت معه حياة مزدوجة مضطربة، كانت قبل نهايتها بقليل امرأة منتقبة، بعد إصراره على حجبها عن مجتمعها بستارة سوداء تغطي وجهها، عانت كثيرًا من ضعفه الجنسي ومعاملته الفظة وإهاناته المتكررة لها، لطالما شعرت بأنها مجرد لوحة غالية الثمن أضيفت إلى مقتنياته الثمينة، فلما ملَّ من التطلع إليها، ولم تعد تبهجه، نقلها إلى مخازنه؛ ليبحث عن تحفة جديدة. لم يعد يراها أو يشعر بوجودها أحد، حتى شعرت بأنها قد ماتت موتًا مدنيًّا، عانت كثيرًا لتحصل على حريتها منه وتطلق عبوديتها، فرفض وازداد عناده، فخانته مع أحد أصدقائه عمدًا بعد أن أوحت إلى الصديق زيفًا بحبٍّ ورغبةٍ طمعًا في طلاق وشيك، فنالت ما تمنت، بعدها جُنَّ جنون زوجها،

فطردها من قصره وتركها بلا طلاق أو معاشـرة، فاسـتغلت وضعها الجديـد فـي خلعه وخلعت معـه نقابها، ثم انفتحـت على المجتمع بأسـره وصـارت لا ترتدي من الملابـس إلا أقلها قطعًـا، وأقصرها طـولًا، وكأنها تعوض ما فاتها! ثم أشـرقت شمسـها كسـيدة أعمال بمدخراتهـا مـن سـنوات الشـقاء ومـا باعته مـن حُلـي نجحت في إخفائهـا منه عندما طردها من جحيم جنته فدخلت سـوق قطع غيار السـيارات والكاوتشـوك لتتربع على عرشه، وأضاءت كل ليلة حانة سـتيڤي بجوقة مـن الأصدقاء الجـدد وأصحـاب المصالح وبعض الرعاة لأنشطتها وملذاتها أيضًا!

- كام فرد يا زينة هانم؟

أجابته وهي تتثاءب في فراشها:

- تسـعة يا سـتيڤي.. لكن عـاوزة الجرسـون زيـن يخدمنا طول السهرة..

ابتسـم منير على ذكر اسـم النادل زين، فقـد أدرك على الفور أن بصحبتها بعض الشـواذ؛ لـذا اختارت مَن يناسـبهم ويفهم مزاجهم ليلبي احتياجاتهم..

ترجَّـل منيـر من السـيارة عنـد عمارة ليبـون العريقـة ودلف من بوابتها الفسـيحة مغادرًا إياها من الجانب الآخر الموازي لكورنيش النيل دون أن يصعد إلى أيٍّ من طوابقها، عادة لم يغيرها منذ عشرين

عامًا أو يزيد، وكأنه يهرب من شبح.. شخص وهمي لا وجود له إلا في مخيلته، يظن دائمًا أنه يسير خلفه ويتتبعه؛ ليعرف إلى أين سيذهب فيحاول تضليله.. يدخل في عقار من باب ويخرج من باب آخر خلفي، يستقل سيارة أجرة بعد أن يترك سيارته في جراج عمر مكرم، ثم يترجل من التاكسي الأخير قبل الفندق بمئتي متر على الأقل، ويسير وهو يتلفت خلفه كل بضعة أمتار، حتى يدلف من البوابة الخلفية للفندق، ويسرع الخطى نحو غرفته الصغيرة الملاصقة للحانة من ناحية المطبخ.. فيتهاوى على مقعده ليلتقط أنفاسه المتلاحقة، ثم يشعل غليونه في هدوء بعد أن يخلط التبغ بقليلٍ من زيت الأفيون الخام الذي أدمنه منذ سنوات، وعندما يبدأ الخدر الخفيف يسري في أوصاله ويشعر بتنميلة في رأسه، يتهيأ لوضع اللمسات الأخيرة قبل دخوله إلى الحانة، فينزع نظارته السميكة ويرتدي عدساتٍ لاصقةً ملونةً بلون أقرب إلى زرقة السماء الصافية، بعد أن تخلى عن نظارة ذهبية ذات إطار رقيق شفاف كان يستخدمها في سنوات سابقة، ثم يضع على رأسه نصف باروكة بلون فضي لامع، ويتأمل خاتمًا ضخمًا ذا فصٍّ أزرق زهري في بنصره. يضبط وضعيته ولا ينسى أن يتأكد من لمعان حذائه الأسود رغم ظلام الحانة وإضاءتها الخافتة. بعدها يقف أمام المرآة ليعدل وضعية البابيون الأحمر الناري المنتفخ على قميصه الأبيض

ذي الأزرار الذهبية شديدة اللمعان، يلحظ أن جفن عينه اليسرى لا يزال منكسرًا قليلًا رغم جرعات الحقن التي داوم عليها منذ شهور..

زمَّ شفتيه ضيقًا، ثم أجاب على محادثتين هاتفيتين قبل أن يغادر الغرفة، تلقى فيهما حجزًا لطاولتين من رواد دائمين يعتبرهم من زبائنه المفضلين الذين يضبطون مواعيد سهراتهم في الحانة على أيام تواجده بها.. طالت المحادثة الأولى أكثر من الأخرى ربما لتفضيله مدحت المعداوي طبيب النساء الشهير في أوساط راغبات إعادة غشاء البكارة أو التخلص من الأجنة أيًا كان سبب حملهن؛ فهو أمر لا يعنيه على الإطلاق ولا يتوقف أمامه كثيرًا، لديه تسعيرة محددة وضعها لحالات الإجهاض حتى ولو كانت الحالة متزوجة والحمل يهدد حياتها، فكلهن عنده سواء.. أما زبونه الثاني فؤاد فخري الذي حجز طاولة صغيرة منزوية لشخصين فقط، فهو ذلك العاطل القادم على خلفية أرستقراطية لعائلة عريقة ولكنها شبه مفلسة حاليًا.. رجل في أوائل الخمسينيات، لا يحب العمل ولكنه يهوى كل ما عدا ذلك وبشراهة استهلاكية، باع آخر فدادين عائلته وارتبط مؤخرًا براقصة مغمورة تدعى زيزي بعد أن شعر ناحيتها بعواطف جياشة، نجحت هي في تأجيجها بدلال منظم ظنًّا منها أنه الثري الذي سينتشلها من مستنقع الفقر وحياة المغمورين، فلما خاب ظنها واكتشفت حرصه الشديد على أمواله التي يحلبها من

بقرة غَلَبَها الهزال بعد أن جفَّ ضرعها، ارتضت بأن تشاركه السهر في الحانة وترقص على مائدته ربما تلقى إعجاب أحد المترددين على المكان، آملة أن تودع بعدها ثقل ظل فؤاد، وورومانسيته القديمة، وشجونه وأحزانه وآلامه، وقصته مع مطلقته التي لا يكفُّ عن تكرارها على مسامعها كل ليلة..

دوَّن منير حجوزات زبائنه، ثم راجع «مانيفستو» أوامر تشغيل العمال والطباخين، ثم أجرى اتصالًا هاتفيًّا ثقيلًا على قلبه مع الإدارة ليخبرها بعجزه عن تقديم أوراقه إلى انتخابات الغرفة السياحية بسبب تعطل العمل بالمجمع نتيجةً لموكب، وخطاب، وإعلان الرئيس الترشح، فجاءه رد الإدارة مغلفًا بالصلف عندما أخبره مدير الفندق بحدة:

- منير.. أنت تجاوزت فترة التمديد خلاص، ولو مُصر على الاستمرار في البار يبقى لازم تنجح في انتخابات الغرفة علشان نجدد لك، اللوايح بتقول كده..

أومأ منير بالإيجاب وهو يجزُّ على أسنانه، فخرجت الكلمة معبأة بالضيق الممزوج بالضجر:

- حاضر..

تأمل نفسه في المرآة لآخر مرة وكأنه في انتظار سماع دقات ثلاث ليصعد إلى خشبة مسرح ويلتقي جمهوره، شدَّ قامته وهندم

سترته البيضاء وغادر كقائد عسكري صارم في طريقه لتفقد قواته، كانت الحانة خالية من الرواد؛ فهي لا تقبل أيًّا منهم قبل الواحدة ظهرًا، وتستمر في العمل حتى الساعات الأولى من صباح اليوم التالي، لا يزال أمامه أكثر من عشرين دقيقة، استند بذراعه إلى طاولة البار الذي يقف خلفه ساقيًا كل ليلة، وزجاجات الخمر المختلفة تتلألأ على أرففه، قلب كأسًا وطرق بها مرتين في تناغم فاصطف أمامه فريق عمله على صفين كل صف يضم ثلاثة نُدُل، مضى يفحص ملابسهم ونظافتهم الشخصية، توقف عند أولهم: موفق الساكت، لكزه في بطنه مؤنبًا إياه على ترهل كرشه، فابتسم له وهو يعده بالخلاص منه خلال أيام قليلة. ربَّت منير كتف منتصر الجمل مشجعًا ومحفزًا ذلك الشاب الرياضي الطويل ذا الوجه البشوش الذي يخفي خلفه طموحًا لا يعرف اليأس أبدًا لاقتناص فرصة ليحل محل منير في إدارة الحانة يومًا ما.. أبطأ من مشيته أمام نادر وهو يتأمل لحيته الخفيفة النابتة أسفل شفته فقط.. كان نادر قليل الكلام، حسن الإنصات، دقيق الملاحظة، جادًّا مع زبائنه وكأنه أمين مكتبة، يفضل دائمًا خدمة روادها من قدامى الزبائن وكبار السن..

- الجزمة محتاجة تتلمع..

قالها منير وهو ينقل بصره من نادر إلى لمعي، القصير البدين، الذي أطال شعره بكثافة من ناحية اليسار حتى لامس كتفه ثم قلبه ليغطي صلعته البراقة، كان في الأصل «ريچيسير»، ثم التحق بالحانة

منذ سنوات، وترسخت أقدامه فيها بسرعة؛ فقد كان سريع البديهة، يحفظ مئات النكات ويجيد إلقاءها مستغلًّا هيئته وتكوينه الجسدي، فيجبر المتلقين من رواد الحانة على الانفجار في الضحك، خاصة وهو يقلد بعض الفنانين أثناء تقديم المشروبات.. كان زين هو التالي مباشرة للمعي، فابتسم له منير وهو يغمز بعينه اليسرى ذات الجفن المتهدل قليلًا:

- ضيوف الليلة مهمين.. إوعى تكسفنا!

ابتسم الأخير بمجون وهو يعبث بشاربه الذي يغطي نصف وجهه الأسمر النحيل ويهز رأسه بالإيجاب، محركًا إصبعه أمام عينيه مرتين، مطمئنًا منير أنه سيقوم بعمله على أكمل وجه. كان آخر نادل في الصف الثاني هو ضياء العجمي، لم يكن منير يحبه ولا يرتاح لوجوده بالحانة، ويراه دائمًا وصوليًّا انتهازيًّا فجًّا، واتته فرصة للخلاص منه عندما اكتشف منذ شهرين أنه يُزوِّر فواتير شراء زجاجات خمور من السوق الحرة، ولكنه تراجع وبدلًا من إبلاغ الإدارة لرفته تكتم الأمر بعد أن أفهم ضياء أنه كشف سره، وهدده فتوسل إليه الأخير بأن يعفو عنه ويعطيه فرصة أخرى، فقبل منير متظاهرًا بأنه يفعلها على مضض، بينما أضمر في نفسه أمرًا لم يكن قد حان وقته المناسب بعد، فابتسم لضياء ابتسامة زائفة معلبة وهو يربِّت كتفه، فبادله بمثلها وكأنه يقرأ أفكاره مما أربك منير قليلًا فبان

توتره في مشـيته، فخطا خطوتين واسـعتين إلى الأمـام لمداراته، ثم صفَّق بيده في عصبية مرتيـن فبدأ كل نادل منهم يمر على الطاولات ليراجعها ويتأكد من نظافتها، ويفحص الأكواب والكؤوس، ويراجع زجاجـات الخمور التي تحمل ملصقًا صغيرًا عليه أسـماء أصحابها ليبلغوهم إذا ما أوشكت على النفاد، بينما دخل ستيڤي إلى المطبخ ليراجـع قوائم الطعام ويفحص عينة عشـوائية منـه، وعندما اقتربت الساعة من الواحدة ظهرًا أشار إلى لمعي ليخفف درجة الإضاءة إلى المستوى الثاني، ثم ارتكن إلى طاولة بمنتصف الحانة في انتظار أول رواد هـذا اليوم التاريخي، مثلما أعلن بحمـاس منقطع النظير مذيع القنـاة الأولى صبـاح اليوم، وظهرت من ورائه اللوحـة الكبيرة التي تتصدر خلفية البار وتجسـد أربعة أشخاص متفاوتيـن في الأعمار، عميان لا يبصرون، يتحسسـون بأيديهم جسـد فيل ضخم تنبئ عيناه عن ابتسامة ساخرة أجاد مبدع اللوحة في تصويرها، وكأنه يتحداهم أن يتعرفوا على حقيقته.

بسـيجاره الشهير الذي يسـبقه برائحته النفاذة معلنًا عن وصوله، دخـل الحانة المحامي الأعلى سـعرًا في مصر وحيـد حلمي، الذي صار أشهر من نار على علم من كثرة ما ترافع في قضايا الفساد خلال السنوات الخمس الأخيرة، حتى صار مؤشرًا طرديًّا له كلما استشرى الفساد في البلاد تردد اسمه وانتشر. رحَّب ستيڤي به باحترام يفيض

عن الحاجة كعادته مع من يشعر أنه يدخرهم لوقت ما لم يحن أوانه بعد، خلفه كان اثنان من مساعديه، كعادة ثلاثتهم ظُهْرَ كل أربعاء يتناولون طعام الغداء في الحانة ويعرضون عليه بعض ما يواجههم من صعاب ومشاكل قانونية، فيستمع إليهم وهو يتناول شرابه المعتاد من زجاجته الخاصة، ثم يوجههم بعبارات مبتورة بعد أن يسري خدر بسيط تحت جلده فيتوقف وقتها عن الشراب.

ازدحمت الحانة برواد الظهيرة وزبائن منتصف النهار، قبل أن يفرغ المحامي الشهير من طعامه اقترب منه ستيڤي هامسًا ببضع كلمات في أذنه، فأومأ بالإيجاب موجهًا بصره إلى يساره، حيث توجه ستيڤي في خطوات خفيفة سريعة رشيقة كلاعب باليه إلى حيث تجلس سيدة خمسينية بدينة ورجل أرستقراطي وقور، انحنى ستيڤي أمامهما بأدب، بعدها ببرهة سلمه الرجل مظروفًا أبيض استقر بعد لحظات بين يدي المحامي الشهير الذي ابتسم ابتسامة زائفة للرجل وزوجته، ودفع بالمظروف إلى أحد مساعديه وهو يشعل سيجاره الكوبي الطويل:

- بُص على العقد ده بسرعة وقولِّي رأيك في كلمتين..

لم يمر وقت طويل؛ فالعقد كان من ثلاث ورقات فقط، يتعلق بعقار قديم يرغب الرجل في شرائه من ورثة مالكه، ولأن قيمة العقد عدة ملايين لوقوع العقار في حي الزمالك، فلم يكن المحامي وحيد حلمي في حاجة إلى استنتاج الباقي، بل اكتفى بالشرود في عدد الطوابق التي سيرتفع بها البناء الجديد بعد هدم القديم..

- العقد ممتاز وموش محتاج لأي تعديل..

قالها المساعد الجاد المنضبط وهو يخلع نظارته الطبية، فأشار وحيد حلمي إلى ستيفي الذي مثل بين يديه.. تفرَّس وحيد في وجهه، ثم نفث دخان سيجاره مطبقًا عليه بفكيه، قائلًا بنبرة واثقة، متعالية:

- شوف يا ستيفي.. قولهم ده عقد ميعملوش طالب في كلية الحقوق، وبصراحة أنا شاكك إن اللي كتبه محامي..

ساد صمت الفضول في انتظار تفسيرات المحامي الأشهر الذي انشغل في إرفاق كارته الخاص بالعقد؛ ليعود ستيفي أدراجه بالمظروف مرة أخرى، بينما الدهشة ظلت ساكنة في ترقب على وجهي مساعدي وحيد الذي خفض من صوته قائلًا بعينين تلمعان، وابتسامة ماكرة:

- متستغربوش.. المحاماة مهنة، وكل مهنة فيها إبداع، ولو قلتلهم العقد كويس يبقى معناها إنك تفتقر للخيال ومعندكش جديد، وحيقولوا إننا شفنا العقد ده ووافقنا عليه.. يعني كإننا إحنا اللي عملناه بس من غير أتعاب!

اتسعت دهشة مساعديه فزادهم من الشعر بيتًا آخر، مردفًا:

- الناس دي زباين تقيلة، وحيجولنا المكتب واحنا كل اللي حنعمله حنكتب مقدمة للعقد بدل التمهيد، ونعيد ترتيب البنود،

وبعدين نعدل الصياغة ونضيف بند أو اتنين نخليهم يحسوا إننا عملنالهم حاجة تحفظ حقوقهم.. شوية كلام إنشا مش أكتر..

وقبل أن يستعد أيٌّ من مساعديه للتعليق على ما قاله، عاجلهما بمقولته المعتادة عن كل أعماله وهو يرجع بظهره إلى الوراء والغرور يكسو وجهه:

- وبعدها بشهر بالكتير حتلاقوا العقد بتاعنا نموذج في كل المكاتب بيقلده المحامين...

ابتسم المساعدان في انبهار، والتفت أحدهما ناحية طاولة الرجل والسيدة، فوقعت عيناه على الرجل قادمًا ناحيتهما وهو يسرع الخطى، فرحًا، واضعًا ابتسامة كبيرة على شفتيه، وهو يمد يديه الاثنتين، منحنيًا بامتنان لكي يصافح بفخر وزهو المحامي وحيد حلمي، الذي دعاه إلى تناول مشروب من زجاجته، بعد أن اطمأن على ابتلاعه الطُّعم بهدوء.

***

2

يا طالع النخل

توضــأ محروس ثم خرج مـن داره بصحبة ابنتـه هاجر مصحوبًا بدعوات زوجته كالمعتاد، اسـتقبله شـباب القريـة بالتصفيق وربَّت أحـد شـيوخها كتفـه مشـجعًا، وعلـت زغاريـد النسـوة القليـلات الواقفات خلفهم.. شـقَّ طريقه مخترقًا الجمع الذي يحبس أنفاسـه فـي حيـن كان هو يتصرف على غرار لاعبي السـيرك المحترفين في وقفته وتركيزه الشديد، ثم أطار نعليه بحركة استعراضية اعتاد عليها ليُلهـب حماس المتفرجيـن قبل بدء العرض.. اطمـأن على موضع «السَّلَبَة» التي يتمنطق بها، ثم تحسَّس بأصابعه الطويلة الغليظة بلطته وحبلـه الكتانـي المضفر، واحتضن النخلة كمحبوبته.. كانت تشـق طريقها إلى عنان السماء باثنين وعشرين مترًا.. رفع بصره فشعر بأنها ترتجف وهُيِّئ له أنها تمد جريدها إلى السماء تُسبِّح ربَّها، وضع ذيل جلبابه بين أسنانه فكشف عن سرواله القديم المليء بالثقوب، وكل ثقب منها شاهد على ضحاياه من الليف والعرجون الذي أزاحه من نخيل أسوان، فبدا منتعشًا عامرًا متلألئًا بعناقيد الذهب..

مرت دقائق والرؤوس كلها مشرئبة إلى أعلى تتابعه وهو يتسلقها بخفة ورشـاقة وثقة كمن يسير في وسط أرضه بعد أن صاح بصوت جهير:

- يا ساتر..

كان يحلو له أن يتأمل الحقول الفسـيحة من حوله ومجرى النهر وبدايات الوادي من علٍ، لا يخفض بصره أبدًا حتى لا يفقد توازنه.. يناجـي ربه من مكانه ويشـعر بدنوِّ السـماء منه أكثر فأكثـر، موقنًا أن رب الكـون ومُسيِّره قـد اصطفـاه ليُضحي فـي أيِّ لحظـة بأغلى ما يملـك.. حياتـه، مقابل ثمرة لا يُقدِّر قيمتها أحـد مثله، دقائق أخرى مرت بطيئة حتى كاد محروس ينتهي من تقليم النخلة وجني ثمارها، متجنبًا ضربها ببلطته في قلبها كيلا تصبح عاقرًا، يقطع بيمناه ثم يعلق بيسـراه سُـباطة البلح على الحبل ويتركها تنزلق، وبعدها يهبط ببطءٍ تاركًا جسده يهوي لمسافة محسوبة، ثم يتأنى ويتشبث بالجريد..

كانت ابنته هاجر تشعل الأرض حماسًا يشق عنان السماء ليسري فـي وجدانه، فيرقص قلبه طربًا فرحًا بهـا، ظلت تغني وتصفق فخرًا بأبيها، وتتمايل بجسـدها رقصًـا معبرًا على أنغام دقات منتظمة على كفوف شـباب قريتها وبناتها، وتدب الأرض بقدميها بشـدة، تجلت ابتسـامته الناصعة على وجهه الأسمر اللامع وهو يلقي بنظرة أخيرة خاطفـة نحوهم.. فجأة التقطـت أذناه صوت فحيح قريب لا تخطئه

أذن طالــع نخل أبدًا، فالتفت وهو يتحســس بلطتــه لا إراديًا، التقت عيناه بفكي ثعبان يطل الشــرر من عينيـه مزاحمًا الغدر الملتصق به، متراجعًا برأسه الدقيق البيضاوي إلى الوراء استعدادًا لهجومٍ وشيكٍ بسمٍّ زعافٍ يرغي بين أنيابه.. في ثوانٍ فصل رأسه عن جسده بضربة واحـدة، ولكــن من شـدة انفعالـه وقوة ضربـة بلطته هـوى بيده إلى أسـفل ناحية السلبة، ففصلها عن وسـطه فهوى من علٍ خلف جسد الثعبان، وكأنهما يتســابقان إلى قدرهما المحتوم، محدثًا دويًّا هائلًا غطّى على صيحات الشـباب، فكتم الفرحة في القلوب فجأة، حتى قلبها عويلًا بعد برهة..

انتفـض محـروس في مقعـده بالقطـار المتجه إلـى القاهرة وهو يتذكر مشهد سقوطه من ثلث النخلة الأخير على جانبه الأيسر، ذلك السـقوط الذي حرمه من طلوعها مـرة ثانية، أو حتى الاقتراب منها، فاكتفـى بتأملها من بعيد، بعد أن غدرت به محبوبته فهجرها مجبرًا، وأفقـدت إحدى عينيه نورها، بينما باتت الأخرى ضعيفة لا ترى إلا أطيافًا مهزوزة، أما سـاقه فمن كثرة ما اسـتقر بها من شـرائح معدنية غاصـت في فخذه فلم يعد يشـعر بهـا، فصارت مشـيته لا تخلو من عرجٍ واضحٍ مثلما يخط الطفل أول خط مستقيم في حياته.. أما فمه فقد أصابه اعوجاج طفيف إلى اليسار.. لفح الهواء القادم من النافذة العريضة وجهه ورقبته فارتشف رشفتين من كوب الشاي الذي صار

بـاردًا من جراء اسـتغراقه في ذكرياته، استفسـر من جـاره عن ميعاد الوصول إلى القاهرة.. فقال بتجهم:

– يا مسهل أدينا داخلين بني سويف.. لسه فاضل ساعة ونص..

أطلـق زفيـرًا ضعيفًـا أقـرب إلى الأنيـن وهـو يُصبِّر نفسـه قائلًا بهمس:

– هانت..

عامان مضيـا حتى الآن على هذا الحـادث المريع، نفدت فيهما مدخراته من طلوع النخل على علاجه من تداعيات سقوطه، تربعت ابتسـامة اسـتنكار بثقـة علـى شـفتيه عندما تذكـر حيـن كان يجلس على شـاطئ النيل يُلقـي حجرًا صغيرًا كل برهة متأمـلًا الدوائر التي يُحدثهـا، ولمـا صَفَت صفحـة النهر لمـح أطيافًا ترتعـش صورتهم أمامـه، فالتفت خلفه ليجد ضابط مباحث القسـم وآخر من مباحث أمن الدولة وأمناء شـرطة وأشخاص في ملابس مدنية، تبدو هيئتهم وقـورة، وملامحهم صارمة كتماثيل نُحتت من جرانيت صلد، ظلوا يدورون حول عشته الصغيرة، ويفحصون مدخلها، ويقيسيون بُعدها عن النيل، ويستفسـرون منه عن أهل بيته، وعددهم، وأعمارهـم، ثم وضـع ضابط أمن الدولـة كفه على كتـف محروس، وبنبرة هامسـة، كأنه سيخبره بسر دفين قال:

- إنت ابن حلال يا محروس.. الريس اختار بيتك لزيارته في أسوان!

عقدت المفاجأة لسانه ولم ينطق ببنت شفة، حتى كان اليوم الموعود. ألبسوه جلبابًا جديدًا، وأجلسوه على أريكة تمت كسوتها بألوان مبهجة، وحفظ عن ظهر قلب ردوده على أسئلة الرئيس من الضابط الذي أمضى الليلة معه في منزله بعد أن باتوا شبه محددةٍ إقامتهم على مدار يومين، فلما ارتفعت زغاريد النساء المحشورات على جانب العشة، تنبَّه محروس لجمعٍ غفيرٍ يدخل عليه وفي وسطهم رئيس الجمهورية، بدا له أقصر كثيرًا مما يراه على الشاشة. وقف دون أن يبرح مكانه حتى لا يظهر عرجه وفقًا للتعليمات، صافح الرئيس بفرحة حقيقية وجلس إلى جواره على الأريكة، مضى الرئيس يحتسي شايًا قدمته له زوجة محروس. كان واضحًا أنه معد في فندق قريب وفي أوانٍ غريبةٍ عن العشة، سأله الرئيس الأسئلة ذاتها التي أملاها عليه ضابط أمن الدولة، وبالترتيب نفسه، عن أولاده، وعددهم، ومن أين يدبر احتياجاته الضرورية، وهو يجيب باقتضابٍ خاتِمًا كل إجابة بالعبارة التي أكد عليها الضابط:

- الحمد لله ربنا يطولِّنا في عمرك يا ريس..

حتى خرج الرئيس فجأة عن النص قائلًا:

- وانــت بقى مش بتخاف يـا أخ محروس لما بتطلـع النخلة؟ دا احنا في الطيارات زمان كنا بنخاف شـوية في الأول لما نشـوف كل حاجة صغيرة من فوق.. هه هه..

دوَّت ضحكته المبتسـرة الشـهيرة في أركان العشـة، فارتسـمت الابتسـامة فورًا على وجوه كل الحاضريـن، انتهز محروس الفرصة وكشـف عن سـاقه المصابة، فارتفعـت كاميرا التلفزيـون إلى أعلى بعيـدًا عنها بإشـارة من طـرف عين وزير الإعلام، وانسـحب للوراء مسـجل الصوت، في حين استرسل محروس يشـرح للرئيس كيفية سـقوطه وعجـزه وصعوبات الحياة التي تواجهه بشراسـة وضراوة، لمـح محـروس فجأة التوتر الـذي قفز على وجهي رئيـس الديوان، ومدير المراسـم، كما بانت له ملامح وعيد مؤجَّل على وجه ضابط الأمـن، إلا أن الرئيس تجاوز الموقف بأعصاب باردة مستفسـرًا من وزير الصحة عمَّا تم بشأن الأخ محروس على حد تعبيره، فاسترسل الوزيـر الـذي تقدم من صف خلفـي على عجل، منحنيًـا قليلًا وهو يضم كلتا يديه إلى صدره، شارحًا للرئيس تفاصيل الإصابة والرعاية التي لاقاها محروس، والتأهيل النفسـي والاجتماعي بعد الحادث، لدرجة أن محروس ذاته صدق ما يسمعه، وارتاحت قسمات وجهه اطمئنانًا لما قدمته الدولة له من علاج على لسان وزير الصحة، بدلًا من مستشفياتها! وظل على دهشته حتى أفاق منها والرئيس يصافحه مغادرًا، وما هي إلا دقائق حتى انفضَّ المولد بأكمله وعادت العشـة

إلـى ماكانت عليه.. أطفالـه يلهون ونصفهم عـارٍ، وزوجته تطحن، وهاجـر تتزين أمام المرآة كعادتها، إلا هـو.. صار له جلباب جديد، وأريكته أيضًا اكتست! ولما ضاقت به الحال، لم يجد أمامه مخرجًا إلا عيـد ابـن عمومته، الذي يعيـش في القاهرة منذ عشـرين عامًا أو يزيـد.. كل ما يعرفه عنه أنه يتاجر في دخان المعسـل، ويزورهم في أسـوان مرة كل عام في منتصف الشتاء، حتى يضمن طقسًا رائعًا في أيامه القليلة التي يمضيها وسـطهم.. طلـب محروس منه في زيارته الأخيـرة أن يدبـر له عمـلًا يعيش منه هـو وعائلته.. كانـت هيئته قد تبدلت وصار مظهره رثًّا يدعو إلى الشفقة، حتى يظنه مَنْ يراه شحاذًا بعـد أن انطفأ نور وجهه وشـاخ من داخله ألـمًا، فبدا شـيخًا عجوزًا رغـم أنه لـم يتجاوز الخامسـة والأربعين بعد.. ومـع ذلك كان عيد مرحبًا، ودودًا، مشجعًا، بل وكريمًا أيضًا..

- في انتظارك يا محروس في أي وقت.. وعنواني في مصر سهل مايتوهش.. اتفضل..

قـدَّم عيد لـه مئتي جنيه وكارتًا صغيرًا يحمل اسـمه ولقبه وأرقام تليفوناته، وعنوانًا بحي الزمالك..

ظـل محـروس يتلفت حول نفسـه مئـة وثمانين درجة كل عشـر خطـوات يخطوها بهذا الحي العريق في قلـب القاهرة، حتى وصل إلـى عنـوان قريبـه عيد في نهاية شـارع 26 يوليـو، فألفـاه واقفًا أمام

مدخل حانوت يبدو صغيرًا من الخارج ولكنه عميقٌ كاليمٍّ من داخله، يمتلئ عن آخره بكراتين التبغ، وتعلوه لافتة خشبية قديمة نوعًا ما كُتب عليها بلون أزرق فاقع: «مخازن أبو عيدة». رحب عيد به وأجلسه على قارعة الطريق، ثم انشغل عنه بمحاسبة رجلين حساب المَلَكَين، كان أحدهما عجوزًا طاعنًا في السن، يرتدي جلبابًا رثًّا، ويطلق لحية بيضاء كثة، ويتوكأ على عصا تقاوم رجفة جسده التي جعلت محروس يتابعه بقلق خشية أن يهوي أمامه فجأة. أما الثاني فيبدو أنه فقد إحدى ذراعيه في حادث أليم، حيث بُترت من بداية كتفه..

شرد محروس محاولًا استنتاج كُنْهِهِمَا لكنه لم يفلح، فانشغل بتدخين الشيشة التي أمر له بها عيد، الذي مضى يتحدث معهما بغلظة، وبين الحين والآخر كانا يُخرجان نقودًا من بين طيات ملابسهما البالية، إلى أن صرفهما في ضجر مصحوبين بلعناته وهو يدس رزمة مالية في جيبه. أقبل على محروس بابتسامة عريضة، كان منتفخ الأوداج كقائد منتصر.. فجأة توقفت سيارة شرطة زرقاء أمام محله فهبَّ عيد واقفًا، ثم هرول ناحية قائدها العقيد حسين عناني، الذي تحرر من سائقه ومخبريه، وتبادلا حديثًا وديًّا هامسًا، تخلى عيد في نهايته عما كان في جيوبه، وأكمل من حافظة نقوده، ثم ودَّع العقيد بتحية عسكرية بدائية، ودعوات بالبقاء سندًا، وعاد بِخُفَّي حنين يلوي شفتيه وهو خاوي الوفاض تمامًا.

لـم يمضِ وقت طويـل انقضى بعضه في وجبة غداء رمَّت عظام محروس، وضاعت غالبيته في سـاعات قيلولة في مخزن المعسل، بعثت فيه النشاط حتى اصطحبه عيد بعدها في جولة مسائية في حي الزمالك بسيارة «بيجو» بيضاء، رغم طرازها القديم فقد بدت جديدة، اخترقا شارع حسن صبري ليرى مملكة عيد غير المرئية! بائعات ذرة يفترشـن الطريق، بائعو زهور يلحون على قائدي السيارات بابتسامة زائفـة لعلها تصادف مشـاعر متأججة لديهـم تبحث عن ورود تصل ودادًا منقطعًـا، ورجـال أصحاء أقوياء البنية لا يفعلون شـيئًا سـوى إطـلاق صفير متقطع، ويسـمحون لأصحاب السـيارات بتركها في نهر الطريق غير عابئين بغيرهـم.. رجال مسـنون يتسولون من المارة في إلحاح.. كلهم بلا اسـتثناء يحيون عيد عند مروره عليهم بإيماءة بسيطة من رؤوسهم، وأحيانًا كانوا يحيونه باسمه:

- أهلًا يا ريس أبو عيدة..

ضحك محروس قائلًا:

- إمتى خلفت عيدة؟!

بادله عيد الضحك وهو يقول بنبرة مَن يخشى الحسد:

- ده اسـم الشـهرة هنا فـي مصر.. وعيدة دي الأملـة اللي أنا فيها عقبال عندك..

انحرفت السيارة يسارًا في نهاية الشارع ليتكرر المشهد بحذافيره، ثم انطلقت بهما في اتجاه الكورنيش ناحية شارع أبو الفدا حتى اقتربا من الفندق الذي تقبع في قبوه حانة ستيفي الشهيرة، أبطأ عيد من سرعته حتى أوقف السيارة بالقرب من مدخلها، فشاهد محروس بعضًا من روادها يغادرونها وكأنهم يخرجون من باطن الأرض، ثم يقفون أمامها بعيون حمراء منتفخة في انتظار سياراتهم بسائقيها، لاحظ أن وقفتهم غير متزنة وصوتهم عالٍ بلا مبرر، يكاد يسمع حديثهم بالكامل. انشقَّ الطريق فجأة عن رجل طويل، أشعث، يسير حافيًا بجلباب قذر لا لون له، فاحت منه رائحة نتنة عندما تجاوز نافذة سيارتهم، كان ينادي مجهولًا وكأنه يحادثه في أمر مهم ثم راح يسبه محاولًا ضربه، فيطوح بكلتا ذراعيه في الهواء..

لم يقوَ محروس على مقاومة فضوله، فالتفت مأخوذًا بما يراه، متابعًا المجذوب باهتمام، فشاهده وهو يلتوي على نفسه ويسعل بشدة، وكأن روحه ستفارقه ويعطس حتى سال المخاط من أنفه وتعلق بشفتيه فلعقه مبتسمًا في بلاهة.. كان يطبق بكلتا يديه على إناء من صفيح صدئ حتى لا ينفر الناس من ملامسة يده فيضعون صدقاتهم به وكأنهم يلقونها قربانًا ليفروا هاربين من كآبة المنظر وعطن الرائحة.. عندما عاود المجذوب المرور بجوار سيارتهم في طريق عودته، تعمَّد رجَّ الإناء، وأمال فوهته العريضة مبرزًا أوراقًا من فئة العشرة والعشرين جنيهًا بوضوح، وأحدثت العملات

الفضيــة رنينًا تلقاه أبو عيدة بابتســامة رضى عن صبيه، فحيَّاه بدقتين مـن نفير سـيارته رقـص معهما المجـذوب يَمنة ويسـرة رادًّا التحية بأحسن منها!

ظل محـروس يُحوقل ويوحد الله ويضـرب كفًّا بكف، خُتمت الجولة المسـائية بمشـهد المجذوب، ولم يكن ختامها مسـكًا، فقد بُهت الذي هجر فقر الجنوب فهاجر شـمالًا ليجد أبو عيدة يرسم له مسـتقبلًا تعيسًا، مظلمًا، كوجهه الأسمر الغطيس، وكأن غضب الله قـد حلَّ عليه وحده، قفز إلى ذهنه مشـهد أبو عيدة وهو يتأمل عاهته عندمـا التقاه في أسـوان ودس يده في جيبه ليعطيـه مبلغًا من المال، فكان أشـبه بتاجر رقيق يتفحص عبدًا في سوق النخاسة، قال محدثا نفسه..

- يالله! هل سينتهي بي الحال متسولًا؟!

أخـرج أبـو عيدة علبـة السـجائر «الدانهيـل» العريضة، وأشـعل سـيجارته الطويلـة بعـد أن وضع مبسـمه الذهبي فيهـا، وظل يرمقه بنظـرة فاحصـة، متأملًا عاهته المسـتديمة، كمن يسـتملح لوحة في متحف، ثم نفث دخان سـيجارته من النافذة، قائلًا دون أن ينظر إلى وجه محروس الغارق في الظلام:

- إنـت فقري وغشـيم.. الناس دول دكاتره.. إيـراد الواحد فيهم بيوصـل 150 جنيـه علـى الأقـل في اليـوم وفـي الأعياد والمواسـم إضرب في اتنين بالمستريح..

انحـدرت دمعـة سـاخنة ببـطء على وجنـة محـروس، كانت قد ظلت حبيسـة منذ أن ترك داره في أسوان، وقال بقلب منكسر مطرقًا رأسه:

- أنا كنت أشهر طالع نخل في بر مصر يا ريس و...

صمـت فجأة كمن ابتلع الكلام بسـرعة حفاظًا علـى كبريائه، ثم ترجـل من السـيارة على مهـل، كان يشـعر باختناق مفاجـئ فأطلق لرئتيـه العنـان في الهـواء الطلق وهـو يجاهد ليحبـس دموعًا أخرى على وشـك اللحـاق بتلك التي انحدرت منذ قليـل.. ربَّت أبو عيدة كتفه قائلًا:

- إركب العربية دلوقت والنهار له عنين..

ثم ألقى بما تبقى من سيجارته وهو يدهسها بحذائه بعصبية حتى فرمهـا، ومضى في طريقه محييًا بعض رجالـه الرابضين أمام الحانة يتولون أمر سيارات روادها، وسرعان ما طوى ظلام الشارع سيارته القديمة البيضاء.

*****

علـى عجـلٍ أنهت مريـم عملهـا بالصيدليـة التي تعمـل بها منذ تخرجهـا في الجامعة، مستسـمحة الصيدلي عـازر واصف، صديق والدهـا القديـم، في الانصـراف مبكرًا. كانت تنظر إلى سـاعتها كل

ربع ساعة تتعجل موعدها الذي تنتظره منذ أسابيع طويلة، ولم تُطق البقـاء في الصيدليـة حتى يحين وقته، فغادرت متسـكعة في شـارع قصر النيل. وقفت شاردة أمام واجهات المحلات لا ترى منها شيئًا حتى اقتربت السـاعة من الرابعـة عصرًا، فاختارت ركنًـا ظليلًا أمام «جرويـي» في ميـدان طلعت حـرب، انتظارًا لقـدوم عبد الوهاب.. مضــت نصف سـاعة ولـم يجئ وهاتفه لا يـزال مغلقًـا، دخلت إلى المحل واختارت طاولة كاشفة للميدان. ظلت قابعة خلف الواجهة الزجاجيـة بعينيـن قلقتيـن تتنقـلان فـي دورة مضطربة بين سـاعتها وهاتفها؛ لتعـود فتراقب المارة بالطريق، وقد اتـكأ القلق على قلبها وراحـت الوسـاوس تتخطفهـا.. بعد مرور سـاعة ونصـف، طلبت فاتورتها لتغادر يائسـة محبطة. اصطدمـت أصابعها في طريق بحثها عن حافظة نقودها بجواز سـفرها القابع في قعر حقيبتها مطويًّا على اسـتمارة هجرة إلى كندا بعد أن مـلأت بياناتها بالكامل، بينما كانت الاستمارة الأخرى فارغة تنتظر عبد الوهاب ليملأ فراغاتها.. ثمانية عشر شهرًا الآن منذ أن التقت عبد الوهاب لأول مرة في منزلهم، لـم تكن تكترث كثيرًا للولائم المنزلية التي يقيمها والدها أحيانًا لبعض معارفـه، إلا أن تلـك الليلـة لاحظت اهتمامًـا مبالغًا فيـه بالضيوف مـن جانـب زوجة أبيهـا فقط، فقد كانـت الوليمة على شـرف عائلة صديـق العائلـة حمدي عباس الشـهير بـ«أبو عدنـان»، الذي عاش سـنوات كثيـرة من عمره فـي المملكة العربية السـعودية، أغلبها في

مدينة الرياض، وهو شـريك منيـر وزوجة أبيها في محل بيع ملابس المحجبـات، وكمـا كان الشـاهد الأول على وثيقة عقـد زواجه من منيرة بمسـجد السـيدة زينب، كان هو سبب معرفته بها أيضًا، فسهل له زواجها لمعرفته الوثيقة بعائلتها..

الوليمة اليوم كانت بمناسبة عودة عائلة «أبو عدنان» من الخليج للاسـتقرار في القاهرة بصورة نهائيـة.. لم ترُق لها زوجة أبي عدنان كثيـرًا، كانـت مـن تلك النوعيـة التـي تشـبعت بثقافة أهـل الخليج فقلدتهـم تقليـدًا فجًّـا مبالغًـا فيـه لا ينـم عـن أصالة، فـلا أصبحت واحـدة منهـم، ولا احتفظـت بمصريتها.. كانت تحـاول محاكاتهم فـي لهجتهم وعاداتهم وهـي تُفرط بتبذير في مسـح هويتها طواعية واختيارًا حتى صارت مسخًا.. حضرت يومها ترتدي عباءة خليجية وتزين ذراعيها بالذهب وكأنها سرقت لتوها محلًّا بالصاغة فارتدت كل ما استطاعت حمله..

لـم تتوقف مريـم عند أبي عدنـان كثيرًا، فهـو لا يتحدث إلا عن عمله، والأشـخاص بالنسبة له ليسـوا سـوى أرقام، كما كان ينتابها هاجـس بـأن أباها لا يحبه مـن داخله، لكنه مجبر على تقبله بسـبب المشـاركة فـي التجارة، أمـا ابنه عبد الوهـاب فألفته مليـح الطلعة، حلـو الحديـث، رغم أنه قليـل الكلام، شـديد الخجـل، كان بدينًا، يحمـل وجهًا طفوليًّـا، أبيض البشـرة، تحمرُّ وجنتاه عنـد أقل كلمة

إطـراء أو مديح.. وعلـى الرغم من تحرر مريـم وانطلاقها وتذوقها الحياة بملعقة ترتشـف منها باسـتمتاع، إلا أن غموض شخصيته بدا لهـا براقًا فجذبها بلا مجهود يذكر، مثلما تنهار السـدود فجأة تحت وطأة فيضان.. اجتاحها عبد الوهاب بلا سـابق إنذار، وهيأت نفسها لاجتياحـه دون أن يـدري، كان قـد درس الصيدلـة مثلهـا، وبدا لها دائمًـا مهتمًّا بعالمه الداخلي، حذرًا نوعًا مـا، متحفظًا كثيرًا، ولكنها اكتشـفت بعد توطد علاقتهما أنه لا يميل أبدًا إلى المحاولة والتعلم مـن الخطأ مثلها، وإنما يكتفي بالمشـاهدة. يسـأل قليـلًا كمن يرى جانبًا واحدًا من الصورة، ويكتفي به ليُكوِّن رأيه النهائي فيها، إلا أن عاطفته الجياشة وقدرته على قرض الشعر غزلًا فيها شدتها إليه أكثر، فقد كان مختلفًا عمَّن تراهم وتتعثر بهم في طريق حياتها، ثم تلاقت إرادتهما على فكرة الهجرة إلى كندا بحثًا عن مسـتقبل أفضل، وبعد أن تعلقت به بدأ يضايقها قليلًا تردده في قراراته، ورغبته الملحة في الخصوصية، ثم إلحاحـه المفاجئ عليها في الآونة الأخيرة لارتداء الحجـاب، فقـررت أن تواجهـه بحقيقـة ديانتهـا في أقـرب فرصة، لاحظـت أنه لا يعيش الحيـاة ولا يخوض فيها مثلهـا، وإنما يتأملها عن قرب أحيانًا وعن بعد غالبًا، يحتاج إلى قائد ومرشـد دائمًا، فبدا لهـا كإنسـان آلـي بعد فترة، ولكـن كان الوقـت قد تأخر كثيـرًا؛ فقد هامت به عشـقًا، حتى عندما تبينت أن التجربة بالنسـبة له عدو لدود يتربص به عند أول محاولة فيتجنبها دومًا..

هزّت رأسها ضيقًا محدثة نفسها:

- سيتغير في كندا.. المجتمع هناك مختلف، وأولادنا سيغيرون من طباعه السلبية.. الحياة جميلة وهناك شمس تشرق كل يوم ستمنحنا الأمل، وحتى لو كان عبد الوهاب أعمى فاته التحديق في قرصها الجميل الساطع، فلابد أن يشعر بالدفء يومًا ما..

أشعلت سيجارتها وهي تمضغ أفكارها ببطء لتعيدها مرة ثانية مفعمة بالأمل متخذةً قرارًا بمد فترة الانتظار عشر دقائق أخرى. ظلت السيجارة تحترق حتى لسعت أناملها فانتفضت، وجدته أمامها فجأة، بدا لها كشبح مخيف وهو يرمقها شزرًا بعد أن طلب منها مؤخرًا الإقلاع عن التدخين نهائيًا فلم تستجب.. اتسعت عيناها دهشة وأطفأت سيجارتها بأصابع مرتعشة، غابت البراءة لأول مرة عن وجهه وبدت كذكرى قديمة من ماضٍ بعيد.. نسيت تأخره عن موعده بنحو ساعتين، كان مجهدًا وقد فقد كثيرًا من وزنه وترك لحيته تنمو على سجيتها بغير تهذيب ولكنها أبت أن تكتمل؛ فقد كان شبه أمرد، فبدت كُجزُرٍ منعزلة من شعيرات طويلة بعضها ملتوٍ على نفسه، معقد التركيب كلوحة سيريالية لفنان مبتدئ يحاول البداية من حيث انتهى آخرون عديمو الموهبة!

- إيه اللي حصل؟!

قالتها بنبرة قلقة، متوجسة، مغلفة ببعض الحنان لتلطف الحديث..

رد ببرود وهو يتلفت يمنة ويسرة، متململًا في جلسته، ضيقا بالمكان الرحيب:

- مفيش.. اتأخرت في الشغل و بطارية التليفون فضيت..

قالها ثم تجنب النظر إلى عينيها، فتساءلت:

- أنا قصدي إيه اللي مغيرك من فترة، انت بقيت عصبي وأنا..

قاطعها بإشارة من يده لتصمت ففعلت، ثم وضع رأسه بين كفيه مغمضًا عينيه في ضيق وهو يجز على أسنانه، فخرج صوته مكتومًا، مترددًا:

- أنا تعبان يا مريم خلينا نأجل الخناقة لوقت تاني، كنتي عاوزاني في إيه؟!

- احنا موش بنتقابل من شهور طويلة، مشفتكش إلا مرتين مرة منهم بالصدفة في الأجزاخانة.. أنا مش عاوزة اتخانق.. بس عاوزاك تفهمني.. أنا قلقانة عليك..

قطع حديثها تلك المرة النادل وهو يسأله عما سيشربه، فطلب «ينسون».. لاحظت مريم أنه يحيي شابًا ملتحيًا يجلس على مقربة منهما..

– مين ده يا عبد الوهاب؟

أجابها بعدم اكتراث:

– معرفوش..

أطلت الدهشـة من عينيها، وقبل أن تسأله عن السبب في تحيته، كان يردف وقسمات وجهه تتخفف من ضيقها شيئًا فشيئًا:

– لحية تحيي لحية، ده أخي في الإسلام..

صاحت مداعبة إياه:

– يا سلام! طب افرض إنه مسيحي.. حتعرف ازاي؟!

عاد إليه التجهم على عجل وهو يرد:

– أعوذ بالله يا شيخة بلاش السيرة دي..

امتعضت، وشـعرت بغصـة ابتلعتها على مضـض. ياليتها قالت لـه ديانتها فـي أيام الغرام الأولى، كان ودودًا،لطيفًا، سـمحًا، كانت تخشى دومًا أن تفصح له عن ديانتها الحقيقية، تحوم حول الموضوع كالفراشـة ولكنها تتجنب السـقوط في النار فتتراجع في آخر لحظة، بداخلهـا هاجـس أنها سـتكون خطوتها الأخيرة، رغم مـا كان يبديه من مودة، وترديده دائمًا وأبدًا عبارته الشـهيرة على لسانه، لما عرف مـن أبيه أن والدهـا قد غيَّر ديانته ليتزوج من منيـرة.. فكان يقول لها باسـتمرار: «**حتى لـو كنتي قبطية كنت حاحبـك وحتجوزك**».. كان

لجملته تلك وقع جميل على أذنيها، فاستراحت لمدلول العبارة، ولم تتجاوزها بالبوح أبدًا بسرها، فتركته على ظنه بأنها أسلمت مع والدها؛ فهي لم تكن تدري يومًا أنه سينقلب مئة وثمانين درجة، وكأنها كانت تحلم بفارس فاستحال الحلم كابوسًا قتل فيه رجلٌ شرير مُقنَّعٌ فارسَها، وأطلَّ عليها من خلف القناع عبد الوهاب بوجهه المتجهم؛ ليذيقها مرارة نابعة من قلب أسود مريض..

تظاهرت بالانشغال بالعبث في حقيبة يدها، ثم بحركة مسرحية قالت:

- **اتفضل يا سيدي..**

قدمت إليه استمارة الهجرة وقلمًا وهي تبتسم بمودة هاتفة:

- **حنلاقي شغل بسهولة؛ تخصصنا مطلوب في تورنتو.**

نحاها جانبًا بلا مبالاة وكأنها جريدة قديمة فرغ لتوه من قراءتها، اتسعت عيناها مستفسرة، فرد بالنبرة الباردة نفسها:

- **موش دلوقتي يا مريم ولا في المكان ده..**

زحفت بأناملها الرقيقة نحو كفه وهي تبتسم مُسرِّبة بعضًا من أسلحتها الأنثوية، مهيئة إياها في وضع الاستنفار لمواجهة نذر حرب باردة لاحت بوادرها على وجهه المتجهم، فسحب عبد الوهاب يده بحركة مباغتة وهو يزمُّ جبهته أكثر قائلًا بعصبية:

- احنا في مكان عام يا مريم.. اختشي!

همست له بعينين مترددتين وهي تضغط على عقلها الذي صار لينًا في مقاومته بعد أن تغلبت مشاعرها عليه:

- طيب تحب نروح البيت؟

لم يرد وشرع في احتساء «الينسون» الذي كان شديد السخونة، فاحتضن كوبه بكفه ولم يُجبها، بل ظل ينظر إليها بوجوم، وخياله يلتهب بنزواته معها في فراش أبيه بشقتهم القديمة في شارع قصر النيل، أعادت على مسامعه اقتراحها بحرج وتردد واضحين، فلم تكن تحبذ لقاءاتهما بتلك الشقة أبدًا، ولكن غايتها الآن أن تعيده إليها بأي وسيلة.. صار كوبه باردًا فارتشف نصفه دفعة واحدة، ثم اكتفى بأن رفع أحد حاجبيه مستنكرًا، ونظر إليها نظرة غريبة، شاردة، بدت لها مختلفة، وكأنها مغلفة باحتقار مستتر. حاولت طرد الهاجس من داخلها فلم تفلح. توترت أكثر، وشعرت بالقلق المفعم بالانكسار انتظارًا لإشارة من عينيه تستعيد بها كرامتها التي انفرطت، وكبرياءها التي تبعثرت فأبى أن يفعلها.

ظلا صامتين حتى حام طائر القلق فوقهما وظللهما بجناحَي الضجر والتأفف، فغادرا المكان بعد نصف ساعة، ومضى كلٌّ منهما في اتجاه. كان عبد الوهاب يسير في خط متعرج بسبب شروده وهو لا يلوي على شيء، منذ أن انتظم في دروس دينية بمسجد قريب

مـن منزله وهي تأخذ جُلَّ وقته، ولـم تمـضِ فترة طويلة على انتظامه فيهـا حتى اختاره الشـيخ مع أربعـة من أقرانه لحضـور لقاءات أكثر عمقًا وتزيدًا بمسكنه، فتبدلت حاله حتى صار يدور في فلك معلمه، وبدأت تفسـيرات النصوص الدينية التي يقرأهـا في كتيبات وزعت عليـه، تجبره علـى التفاعل مـع واقعـه بالطريقة التـي تفرضها على تفكيـره مقولات أميـر جماعته التي انضـم إليها هربًا مـن مجتمعه، فصـار مثل من فتح باب حجرة صغيرة مغلقـة بلا نوافذ ليدلف إلى أخـرى مماثلة ولكن بنافذة وحيدة ضيقة، لا يرى منها إلا ما يُسـمح لـه به، فهجر مريـم تدريجيًا وصار يؤجل لقاءها ويغلق هاتفه إلى أن عدل عن فكرة الهجرة إلى كندا بعد أن بدأت أحلام السفر إلى صنعاء تنضج على مهل في عقله، وعظَّم شيخُه من أمر سفره لمعاونة الإخوة في معسـكرات الجهاد هناك، ولأن والده رباه على ألا يكون له رأي فلم يقله يومًا ما، فقد كان طيِّعًا، سـهل التشـكيل والتكوين، وتحوَّر فـي زمن قياسـي لا يتجاوز بضعة أشـهر إلى شـخصية تعيش داخل قوقعة هشـة تحمي نفسها بقشـور ورقائق وتتهرب من مسؤولياتها، بات دائم الشـعور بالقلق والإحسـاس بالذنب مع أنه لا يفعل شـيئًا يسـتحق! ألقى بنفسـه في حضن شـيخه مثلما كان يرتمي في حضن مريـم، يتلقى ما يقوله أميـره له ويؤمِّن عليه ولا يناقشـه أو يجادله.. كان يلتقـط شـفتيها كطفل يلتقم ثـدي أمه، يبحث عنـه أولًا بغريزته ثـم يغلـق عينيـه ويروح في شـبه إغمـاءة وهـو يغمرهـا بقبلاته ولا

يـرى وجهها من فرط اندماجه، كان يجثـم عليها كل مرة فجأة لينال منها بسـرعة في دقائـق معدودات، وهي لا تتجرد من ملابسـها أبدًا فلا يعبأ بها، يتلوى فوقها حتى يهدأ، ثم يصير غارقًا في منيه، ويتمدد بجوارها يتمسـح فيها كقط أليف يلتقط أنفاسه.. يعلو صدره ويهبط في انتظام وسرعة بعد أن سكن الألم الذي كان ينخر في عظام ظهره كالسـوس، بينمـا تحملـت هي عن طيـب خاطر تأجج شـهوتها من جراء أفعاله حتى لا تفقد عذريتها تحت وطأة رغبة جانحة..

فجأة يصم أذنيه بحركة لا إرادية أثناء سـيره كي لا يسـمع صوت والده ينعته بالفشل منذ نعومة أظفاره.. تساءل مع نفسه: «**كيف لطفل أن يولـد فاشـلا؟**». اعتقد دائمًا أن صوت أبيه هـو الحقيقة المطلقة، وترسـخت العقـدة أكثر بداخله عندما ناقشـته مريم مـرة في الدين، كانت تنتقد التشـدد في تفسـير النصوص وترى أنها مجموعة أقوال ينسـبها الإنسـان زورًا إلـى الأب الأعظم.. إلى اللـه؛ لتصبح حقيقة مطلقـة.. لمـاذا اختارت مريم عبارة الأب الاعظـم؟! لم يجد إجابة حاضـرة.. قفزت إلى ذهنه مقولة شـيخه إن التفسـيرات التي يلقنها لهـم هـي الحقيقـة المطلقة لصحيـح الدين.. هـي تعاليـم الله التي لا تجـوز مخالفتهـا أو تقبُّل تفسـيرات أو اجتهـادات غيرها.. **إياكم والاجتهاد وإعمال العقل في التفاسـير فهو من عمل الشـيطان**.. قال محدثًـا نفسـه: «**هل ما قاله أبـي حقيقة مطلقة؟ أأنا فاشـل؟**». صرخ

بأعلى صوته رافضًا، مستنكرًا، فالتفت نحوه بعض المارة، لكنه لم يعرهم اهتمامًا يُذكَر وعاد يحدث نفسه همسًا: «لا.. لا.. لست كذلك، أنا فقط لم آخذ فرصتي كاملة، بل لم أحصل عليها يومًا.. الكل يمتدح أبي وثروته ومهارته بينما أنا مجرد تابع لاسمه، أنا مجرد بضعة حروف قيمتها فيما يليها من اسم ولقب. لم يسألني أحد ماذا أريد أن أكون وكأنني امتداد طبيعي واتجاه إجباري في مسار أبي..»

الوحيد الذي أثنى على طريقة تفكيره كان شيخه، مع أنه لم يقل شيئًا، مكتفيًا بهز رأسه مؤمِّنًا على كلامه.. لا بد أنه رأى فيه ما لم يكتشفه الآخرون بعد! مرت صورة والده بخياله وهو ينهره، فبصق لا إراديًّا ثم تلفت خلفه خجلًا من أن يكون أحد قد رآه..

دمعت عيناه ولم تسل دموعه، أبطأ من مشيته والتفت خلفه لعله يرى مريم مرة أخرى فلم يستطع، كانت بعيدة رغم أنها كانت لا تزال واقفة أمام مفترق الطرق بالميدان تتلفت حولها، لم تكن تعرف إلى أي طريق ستقودها قدماها، فتسمرت مكانها وقد سكن الحزن على ضفاف جفونها وظلت عيناها باكيتين ولكن بلا صوت.. تمامًا كصمت القبور.

***

تسربت موسيقى الجاز في رفق إلى جنبات الحانة حتى علت نوافيرها فبدأت الروح تنتشي طربا بعد أن دارت الرؤوس من

دوران الكؤوس.. جلس الممثل السينمائي البدين الذي أفل نجمه منذ سنين في ركنه بأقصى يسار الحانة كالمعتاد؛ مثل أسد عجوز يكاد يتعرف عليه قليلون، يلفت نظرهم وهو يداعب ستيفي كل فترة بماصة بلاستيكية طويلة وكأنه يبارزه بها.. بينما كانت طاولة مصطفى بك الدمنهوري، كعادته دائمًا، تعج بأطياف مختلفة من المجتمع؛ فهي أشبه بحانة مصغرة لمن يرغب في الجلوس إليها، تكفيه ابتسامة ثقة لصاحبها وبعض كلمات المجاملة والإشادة بعائلته العريقة، ولا بأس من مشاركة متقطعة في أحوال الساسة والسياسة، ومدح للنظام الملكي الذي يتشدق به الدمنهوري وكأنه أحد أفراد الأسرة العلوية، كل ذلك لكي يحصل ضيفه على بضع كؤوس مجانية من مشروبه المفضل، وينصرف وهو يدس في جيبه الكارت الشخصي لمصطفى بك، والذي لا يحمل سوى اسمه ولقبه معتبرًا نفسه لا يحتاج إلى تعريف أكثر من ذلك، كان يعيش في بحبوحة تتكئ على تاريخ بعيد لأسرة إقطاعية كونت ثروة عقارية لم تتحول بعد إلى بقرة هزيلة، فلا تزال تدر عليه دخلًا مقبولًا، ولكن صحته لم تعد تواكب قدراته المادية، فاكتفى بجوقة تلتف حوله في وقته الضائع يستمتع بسقياها ثم يودع الحانة عند الغروب.

كان ستيفي في فترة العمل الصباحية، كما يسمونها بالحانة رغم أنها تنتهي قرب الثامنة مساءً، يكتفي بمتابعة العمل من بعيد،

لا يكاد يغادر موقعه كساقٍ خلف البار، ولا يقترب من أي طاولة إلا مـا ندر، أجواء الحانة في تلك الفترة تشـبه كثيـرًا المطاعم الأُورُبِّية، فأغلب المترددين مـن الطبقات الراقية يتناولون طعامهم وقليلًا من الشـراب على أنغام موسـيقى خفيفة غير صاخبة، يمر ستيفي أحيانًا بين الطاولات وبإشـارة بسـيطة من عينه كانت الموسـيقى تتغير كل عشـرين دقيقة على ذات النمط الأمريكي المعتاد، فيخيل لمن يرتاد الحانـة لأول مـرة أن روادهـا يجلسـون منـذ أيـام طويلـة ملتصقين بمقاعدهـم من رتابـة النغمات وطولهـا وتقطعها ودخان السـجائر الذي يشكل سحبًا كثيفة تكاد تحجب الرؤية عنهم..

«لـولا ثـورة يوليـو كان زمانك بتسـقي الأرض عندنا فـي العزبة البحرية..».

قالهـا الدمنهـوري بك مسـتبقًا كلامه بضحكـة عاليـة، ومداعبًا ستيفي كعادته أثناء عودته من دورة المياه التي بات يتردد عليها كثيرًا رغم أنه يشـرب كأسًـا واحدة من النبيذ المخفف بالماء، لم يكترث سـتيفي لدعاباتـه مكتفيًـا بابتسـامة مقتضبـة، ثم ربَّت كتفـي الرجل وكأنـه يدفعـه للعـودة إلـى طاولته فـي ركنـه المنزوي بعـد أن لمح «أبـو عدنان" صديقه اللدود يدخل إلى الحانة بصحبة فتاة متوسـطة الجمـال، فائرة الجسـد، تبرز بعضًا من مفاتنهـا ببجاحة لتجيب عن تسـاؤلات الناظرين عن سـبب اصطحابها لرفيقهـا العجوز الدميم،

كانـت قصيرة نوعًا ما، فدارت على قصر قامة أبي عدنان الواضحة، فهو بدين، أسمر البشرة، على مشارف السبعين، شعره مجعد يغزوه الشيب بكثافة ولكن في عشوائية، يرتدي بدلة لامعةً مثل حذائه وقد تخلى عن رابطة العنق كعادته، صافحه ستيڤي ببرود هامسًا في أذنه، متظاهرًا بأنه يحتضنه:

– عاوز تقعد فين؟

أشار أبو عدنان إلى أقصى يمين الحانة متخيرًا ركنًا معتمًا مع فتاته التي لاقت ترحيبًا فاترًا من سـتيڤي باعتبارها زبونًا عارضًا لن يتكرر حضـوره، بـدا النادل منتصر متضررًا، يبتسـم بالكاد وفي اسـتنكار واضـح، متعمدًا إطالـة النظر للجالسـين كلما قدم مشـروبًا لطاولة أبي عدنان بعدما لاحظ ما يختلسه الكهل الممتلئ بالمال من حيائها بأنامله وهو يتحسـس نصفها السـفلي بكفه الخشنة ليسرق لحظات من زمن فات، انتبه ستيڤي وهو يصوب بصره تجاه الطاولة ويتفرس ملامح منتصر، ثم أشار بعينه إلى النادل زين ليحل محله فورًا، وأمر بمشروبين تحية منه لطاولة أبي عدنان الذي رفع كأسه عاليًا مع فتاته لتحية ستيڤي الذي اكتفى برفع كوب ماء ليبادلهما النخب، في حين كانت عيناه تنظران شـزرًا صوب منتصر الـذي مضى في طريقه إلى المطبخ حيث سـيقضي بقية «نوبتجيتـه» الصباحية فضلًا عن خصم نصف البقشـيش مـن نصيبه كعقاب منتظر على اسـتيائه من مشـهد

خاف أن يتكرر مع شقيقته التي تقارب الفتاة في سنها ومظهرها، أو هكذا هيئ له من كثرة ما اقترب ورأى!

تخترق الحانة عمقًا واجهة زجاجية عريضة لا يزيد ارتفاعها على متر ونصف وكأنها حفرت داخل الجدران الخشبية القديمة، ويمكن لمن يجلس إلى جوارها أو بعيدًا عنها بطاولة واحدة أن يشاهد عشرات من زجاجات الخمور القديمة مختلفة الأشكال والأحجام، والتي كانت تقدم في الثلاثين سنة الماضية، بعضها تغطيه الأتربة ومعظمها عفى عليه الزمن.. لا شيء يتغير في هذه الحانة أبدًا.. المقاعد، المناضد، الأطباق والكؤوس.. الطعام نفسه، المشروبات نفسها، حتى ستيفي كما هو لا يظهر عليه السن مثلنا.. كان مصطفى الدمنهوري يتحدث وجوقته تستمع لحديثه متصنعة الاهتمام بأعين منبهرة بعد أن امتلأت بطونها، فجأة علت صرخة مكتومة من سيدة وقور تجلس بجوار الواجهة الزجاجية على طاولة مرتفعة تحتلها صديقات بهيرة هانم الدرمللي كل ثلاثاء، كلهن تجاوزن الستين بكثير وقاربن السبعين، أكثر من عشر سيدات بعضهن بشعر مستعار، معظمهن لا يفرطن في تناول الخمور، قليلات هن اللاتي لا تظهر سيجارة طويلة بين أصابعهن، الأناقة البسيطة بألوان فاتحة، ومساحيق الوجه الثقيلة سمة أساسية لهن جميعًا، بهيرة الدرمللي تتفق مع ستيفي على أن يقدم فواتير منفصلة لكل واحدة من صديقاتها، هي ترتب اللقاء وتؤكد عليهن الموعد

وتتصل بستيڤي ليحجز الطاولة فقط ثم تسدد فواتيرها دفعة واحدة كل شهر يتولى ستيڤي جمعها لها، وعندما تقبض معاش زوجها السفير السابق بالخارجية تناول ستيڤي قيمة ما شربته وأكلته على مدار الشهر وإكرامية سخية تحفظ بها ماء وجهها أمامه لسماحه بتأجيل السداد..

وضعت السيدة المفزوعة كفها على فمها خجلًا عندما حاصرتها نظرات الرواد، كانت قد لمحت فأرًا صغيرًا يمرق من خلف الزجاج ليختبئ وسط زجاجات الخمور في سرعة البرق، وكأنه لا يريد أن يراه أحد عن قرب وإنما يكتفي بومضات يمرق فيها أمامهم، ورغم أن الفأر لن يتمكن من الخروج إليها من خلف الحاجز الزجاجي إلا أنها لم تتمالك نفسها خوفًا وتقززًا، ضحك الدمنهوري بك معلقًا بصوته الرخيم الهادئ، مبتسمًا ابتسامة خبيثة كثعلب عجوز وهو يشرئب بعنقه ناحية طاولة السيدات:

- الفار ده موجود هنا من زمان، طول عمري باشوفه، بس اللي شافته الهانم ده ابنه الصغير..

ثم أردف وهو يميل برأسه ناحية جوقته خافضًا صوته قليلًا:

- يظهر إن الفار الكبير مات.

***

3

القهر

حلقت طائرة ورقية جميلة مزخرفة عاليًا بعد أن أفلت خيطها من بين أصابع صبي صغير حتى استقرت يائسة، بائسة، ملتوية على نفسها بين فرعين شائكين أعلى شجرة موفورة، وقف الطفل يتأملها بوجه حزين، متجهمًا تتأرجح ملامحه البريئة بين الأمل واليأس كلما هزتها الرياح قليلًا، كان محروس يتابعه عن بعد فلما استحكمت خيوطها حول الأفرع هبَّ واقفًا، مقتربًا منه على استحياء وهو يعرج في مشيته، تلاقت أعينهما، كادت مقلتا الصبي تنطقان: «**هل ستفعلها؟!**»، بينما محروس يجيبه بوجه يصاحبه الوجوم كظله، وهو يقطع ببصره طولًا جذع الشجرة الضخم، حتى وصل إلى نهايتها، فأغمض عينيه بشدة خشية السقوط!

ظل محافظًا على المسافة بينه وبين الصبي لا يتجاوزها أبدًا؛ فلم يعد في مقدوره أن يفعل له أكثر من ذلك، ثم عاد بخفي حنين إلى دكته الخشبية أمام مدخل العمارة القديمة التي تفصلها عن حانة

ستيفي مدرسة ابتدائية تحتل قصرًا بديع المعمار، تحولت جدرانه المزخرفة إلى مستقر عشوائي للوحات حائط كئيبة المنظر، وأسهم خشبية مفلطحة تدل التلاميذ على فصولهم، بينما تراخت قدرة واجِهَتِهِ على الإبهار تحت وطأة لافتات ضخمة تحمل اسم المدرسة والمديرية التعليمية والمحافظة التابعة لها.. لم يكن يصدق نفسه، فحتى وقت قريب كان تائهًا، حائرًا، لن ينسى يوم جاءه أبو عيدة في حماس منقطع النظير قائلًا:

– واللهِ انت ابن حلال يا محروس..

ثم ألحقه بعدها في وظيفة مساعد بواب، ومع الأيام أرسل محروس في طلب زوجته وابنته هاجر وأطفاله الذكور الصغار، ولم تمضِ أسابيع أخرى حتى أجبر هاجر على ارتداء الحجاب ممتثلًا لنصيحة من أبي عيدة، الذي جحظت عيناه عند رؤيتها لأول مرة، وهي تحسر طرف جلبابها المبتل بين فخذيها، معاونة أبيها في مسح درج المدخل قرب الفجر.. فقال له محذرًا:

– مصر غير أسوان يا محروس.. الناس هنا ديابة..

كلمات قليلة نطق بها أبو عيدة كانت كفيلة لإثارة هواجس كثيرة في مخيلة محروس، فغطى شعرها وجسدها رغمًا عنها؛ ليطمئن قلبه، مانعًا إياها من الخدمة في بعض الشقق زيادة في الحيطة

والحذر، خاصة أنها مندفعة، لا تحسن تقدير الأمور، رغم ما كانت تلك الخدمة تدره من دخل يومي محترم.

اكتشف محروس مع الوقت أنه لا يعدو سوى دوبلير للنوبي البواب الأصلي للعقار، يظهر بظهره دائمًا ويؤدي الأعمال الصعبة والخطرة، ويظن المتفرجون في النهاية أن البطل قام بها كلها، فهو يمسح الدرج كل ليلة، ويرفع صناديق القمامة، وينظفها، ويغسل السيارات الرابضة أمام البيت، بل ويجتهد دومًا ليحجز لها مكانًا مستعينًا بقوالب طوب ضخمة وإطارات فارغة، ويتلقى قائمة طويلة بطلبات السكان من النوبي ليبتاعها من محلات بقالة قريبة، ثم يجلس دقائق قليلة أمام المدخل ليلتقط أنفاسه اللاهثة قبل أن يطل عليه النوبي ببشرته السمراء اللامعة وهو يرفل في جلباب أبيض، نظيف، ناصع، ويتعمم بغطاء رأس ضخم، يزيده هيبة، فيعيد إليه ذاكرة الدوبلير؛ ليتوارى بعيدا في غرفته الضيقة أسفل الدرج، والتي يضطر لخفض رأسه عند دخولها، بينما يتفرغ النوبي لتلقي عبارات الشكر والإشادة بحسن سير العمل، وإحصاء الإكراميات الواردة من السكان، ليلقي بالفتات إلى محروس الذي تكفيه بالكاد كي يقيم أَوَدَهُ بها.

ومنذ أن أقنعه أبو عيدة بتربية ديوك بحجرته، وهو يوليها عناية خاصة أكثر من صغاره، يشرف على مأكلها ومشربها وينهر أطفاله

إذا ما حاولوا اللهو البريء معها خشية أن يصيبوها بأذى، في يوم أمسك طفله بعصى صغيرة، وراح يوسع بها أحد الديوك ضربا مستغلا غياب أبيه، وكأنه ينتقم من الطائر المحرم عليه اللعب معه، والذي يستحوذ على اهتمام أبيه أكثر منه، ولما شاهده محروس حال دخوله الغرفة بغتة قذفه ببراد الشاي الساخن فظلت بقعة سوداء على رقبة طفله، شاهدة على قسوة لا تجد ما يبررها سوى احتياج محروس إلى رضا أبي عيدة عنه برعاية ديوكه...

*****

غادر مدحت المعداوي الغرفة الصغيرة ذات الواجهة الزجاجية المحببة، التي تظهر الوجوه من خلفها مجرد خيالات دون تمييز لملامحهم.. شرع في نزع قفازه الطبي الملوث بدماءٍ لا تزال ساخنة، مبتسمًا لسيدتين إحداهما كانت عيناها تتعلقان بمدحت في لهفة عارمة، فهم منها أنها والدة الفتاة التي أجهضها منذ قليل، فاتسعت ابتسامته أكثر:

- متقلقيش ياهانم.. بالكتير ربع ساعة وتفوق، وكلها أسبوع وتقدر تمارس حياتها الطبيعية.. ثم أضاف بنبرة ماكرة: وحترجع أحسن من الأول كمان...!

أعطى تعليماته للممرض الأسمر الدميم، الضخم، الذي يساعده، بالمتابعة، وإبلاغه إذا ما تفاقمت الحالة، ثم طرق رزمة الخمسة آلاف جنيه التي حصل عليها من السيدة الملهوفة. طرقتان على سطح مكتبه، ووضعها بجوار رزم مماثلة داخل خزينة العيادة، ثم أغرق نصفه العلوي عطرًا وهو يدندن بلحن فرنسي قديم، مغادرًا العيادة التي لا يضع عنوانها على «الكارت» الخاص به أبدًا، ولا يتردد عليها إلا لِوَأْدِ أجنة، أغلبها كان مكتملًا، بينما نظرات السيدتين تكاد تتعلق بطرف سترته من فرط قلقهما..

توقف أمام المدخل يجول ببصره، حتى وقعت عيناه على محروس، فناداه بإشارة من إصبعه باحتقار واشمئزاز، لكنه لم يَرَه؛ فقد صادفت الإشارة عينه المنطفئة، ولم يكن مدحت قد فطن بعد لعاهة طالع النخل، فخرجت عبارات السباب من فمه كالسيل، حتى طالت أُذُنَي محروس وغمرتهما، فأقبل مهرولًا، وبَّخه وعنفه، ثم أمره بالاعتناء أكثر بتنظيف السيارة، بعدما لاحظ وجود طبقة أتربة رقيقة عليها منذ ثلاثة أيام، عندما كان يجري إجهاضًا سابقًا بالعيادة، ثم ترجل يسارًا في اتجاه حانة ستيفي؛ ليقضي سهرته، في حين قبع محروس وسط ظلام الشارع، وهو يميل برقبته متابعًا إياه، وما إن شاهده يدخل إلى الحانة، حتى بصق في اتجاهه من أعماقه هاتفا بمرارة: قبر يلمك..

*****

ظلت زينة تتأمل وجهها في مرآة صغيرة، تتحسس رموش عينيها برفق، وتراجع كحلهما. تأكدت من تورد وجنتيها، ثم ضبطت فتحة صدر ردائها ليظهر مفرق نهديها غامضًا موحيًا.. ثلاث نقرات خفيفة على باب حجرة مكتبها كانت كافية لجلوسها متظاهرة بانشغالها في حديث هاتفي.. أشارت بيدها للحاج عبد الحكيم السهلي، أكبر تاجر قطع غيار سيارات في وكالة البلح والوجه القبلي، لكي يجلس أمامها، كان الرجل قد تحرر من جلبابه البلدي الشهير، وعباءته، وصفف شعره المصبوغ عدا فوديه، مكتفيًا بتخضيبهما بالحناء باعتبار أن لديه لقاءَ عمل مهم قد يسفر عن أشياء أخرى دارت في مخيلته ممنيًا نفسه بها طوال الطريق من فيلته في المقطم إلى الزمالك، فجلس متأزمًا في بدلته الضيقة، اللامعة، ورابطة عنقه العريضة، الحمراء، الفاقعة، وظل يعبث بمنديل جيبه الأصفر، حتى أنهت مكالمتها الوهمية التي استغلتها في قراءة حركات جسده، وتوتر يديه، وحَكِّهِ لأنفه باستمرار، وتلفته إلى يمينه كل برهة، بدا لها كببغاء عجوز أجرب الريش، فجاهدت لتكتم ضحكاتها حتى أفلتت منها إحداها رغمًا عنها، فاعتقد أنها في سياق المحادثة الوهمية التي تجريها. نجحت زينة منذ طلاقها في اقتحام سوق قطع الغيار رافعة شعار الثقة، فكانت تشتري بضاعة بصورة شبه يومية من كبار التجار، حتى حطت برحالها عند الحاج عبد الحكيم السهلي؛

فهو أوسعهم ملاءة مالية، وأكثر من سال لعابه عليها، فرفعت حجم تعاملاتها معه، ليصير رقمًا يتزين بستة أصفار اقترضتها من البنوك، سلمته معظمها نقدًا والباقي بشيكات لها رصيد قائم وقت السحب، وعلى دفعات ربع سنوية، حتى كسبت ثقته فبات ينتظر قدومها، وصار يسعى إليها، وبأنوثة محترفة لا تعرف لغة العواطف، ودلال محسوب بدقة في الحركة والكلمة، مستغلة كونها شقراء طويلة، ممشوقة، تكشف ملابسها أكثر مما تستر، لم يستطع عبد الحكيم أن يصمد كثيرًا، فدكت معظم حصونه التي بناها بخبرته الطويلة في السوق والتعامل مع مختلف أنواع البشر، وتكفل هو بضعفه أمام النساء بالباقي، فترك بقية الحصون تستسلم تباعًا، وصار يحسب أيام عمره بتلك التي تزوره فيها زينة أو تحادثه هاتفيًا..

شيخ على مشارف السبعين، متزوج من ثلاث بدينات، ولديه من الأحفاد عشرة.. بات على استعداد للخلاص من جواريه دفعة واحدة؛ ليتوج زينة على عرشه ملكة وزوجة، فلما أحست بنضج غريزته وتيقنت من احتلالها لعقله وامتلاكها لتفكيره، عرضت عليه مشاركتها في مشروع ضخم يدر ملايين كثيرة في وقت قصير، فكان رد فعله نابعًا من عقله الباطن أن فاتحها في أمر الزواج. ضحكت ببرود، كعادتها، ولم تجبه سلبًا أو إيجابًا، بل تركته فريسة لحيرة يقف فيها أمام مفترق طرق لا يعرف أيًا منها سيسلك، كانت تبدو

كلوحة جميلة بلا روح، مجرد ألوان كثيرة صارخة، وإطار فخم لا حياة فيه، لكنها في معاملتها مع الرجال من نوعية عبد الحكيم، لم تكن تحتاج الروح بقدر احتياجها لجسد يعزف منفردًا لحنها المختار، بينما تغرد هي بصوت مبحوح كعادتها.. «**أهلا يا حاج حكيم.. نورت المكتب**».. رقص قلب الرجل طربًا وهو يسمع اسمه منغمًا، مدللًا، مختصرًا.. ولكن قبل أن يرد تحيتها وهو يبسط كفه على صدره شاكرًا، باغتته مردفة:

- **لولا إن ليك مكانة خاصة عندي ما كنتش قبلت مشاركتك..**

قالت عبارتها الأخيرة خافضة من جفونها قليلا ومطبقة بأصابعها ذات الأظافر الطويلة المطلية بلون أسود لامع على سيجارتها البنية الرفيعة فجعلت عبد الحكيم يظل ضاغطا على قداحته وهو يشعلها لها، ضحكت ضحكتها الباردة وهي تنفخ شعلته ثم أحنت رأسها لأسفل قليلا لتلفت نظره إلى نهديها.. كان قد سبقها إلى هناك بعينين جاحظتين وملامح تشي بهياج يتأجج فيزيده سخونة وكأنها تتحكم فيه عن بعد، ثم اعتدلت في جلستها وارتدت نظارتها الطبية التي تكسبها وقارا مقلبة في أوراقٍ أمامها بجدية فانطفأت جذوة غريزته على الفور، قائلا بريبة مستترة:

- **متأكدة إن العملية دي مكسبها مضمون يا ست الكل؟!**

رمقته زينة من أسفل نظارتها لوهلة ثم دارت حول حافة المكتب واقتربت منه أكثر، فراح عطرها يغزو حواسه بقسوة، شعر بحركة خفيفة بين فخذيه فارتبك قليلا، ثم استسلم لحديثها وهي تشرح له مرة أخرى بعض تفاصيل الصفقة التجارية وأنها قد تغنيه عن العمل طوال حياته، ثم خفضت من صوتها وهي تقول:

- مكسبنا مش هيقل عن مية في المية يا حكيم...

شرد وهو يردد خلفها:

- يعني عشرة مليون بالميت يا ست الستات..

التقطت خيط طمعه من فمه وجذبته بشدة حتى طوقت به رقبته وأحكمت عقده قائلة بنبرة حاسمة:

- إحنا نعرف بعض من ستين ونص وبنتعامل كل يوم في بضاعة بملايين وفلوسك بترجعلك بمكسب كل مرة.. ليه القلق من العملية دي؟!

- المبلغ كتير يا ست الحُسن دول مليون دولار حدفعهم مرة واحدة وكاش كمان..

ربتت على كتفه بأناملها فأغمض عينيه مستسلما لخيالاته فقالت:

- انا قدامك اهو..

ارتج عبد الحكيم من داخله وهو يفرك في مكانه على إثر وقع العبارة على عقله الباطن، فأردفت بجدية مفاجئة:

- حكتبلك شيكات بالمبلغ كله علشان تتطمن..

ارتاحت قسمات وجهه وهي توقع أمامه شيكات تغطي نصيبه ثم انفرجت أساريره أكثر وهي تأمر سكرتيرتها بأن تسدد الشيكات بالحسابات فورا لضخ مبالغ بقيمتها بالبنك قبل ميعاد الاستحقاق بأسبوع، على الأقل حقه بات مضمونا، ونال نصيب الأسد فلن يتحمل أي خسارة..

شكرها عبد الحكيم وسلمها حقيبة تضم بين جنباتها مليون دولار أمريكي، فاستعجلت سكرتيرتَها لتسلمه الشيكات، تململ قليلا في جلسته محاولا دعوتها على العشاء فودعته بمصافحة صارمة مصطحبة إياه لباب مكتبها وكأنها تطمئن لمغادرته بعد أن حثته عليها بدفعة رقيقة على كتفه.ووقفت خلف ستار نافذتها محتضنة الحقيبة الثقيلة مثلما تحتضن الأم وليدها لأول مرة تراقب عبد الحكيم وهو يغادر العقار في سيارته الفارهة ووراءه بخطوات رجاله الذين كانوا يحملون حقيبة النقود ويحرسونها بينما محروس البواب يُهرَع لفتح بابها الخلفي ليدس عبد الحكيم ورقة مالية في يده جعلته يدعو له طويلا.. «ربنا يزيدك من نعيمه» حتى بعد أن غابت السيارة عن نظره الضعيف.

صرفت زينة سكرتيرتها ثم أجرت اتصالا من هاتفها ببعض أصدقائها؛ لتؤكد عليهم ميعاد السهرة الليلة بحانة ستيفي، كان لديها سطوة غريبة على مجتمعها الصغير الذي يشاركها السهر؛ فهي التي تحدد من يحظى بشرف الجلوس إلى طاولتها ومن يحذف من القائمة، تجرب أشخاصا جددًا كل فترة فإذا ما اجتازوا اختباراتها النفسية ضمنوا مكانا في مَعِيَّتِها إلى أن تحل أزمة مالية بواحد من هؤلاء الرعاة الرئيسيين، أو يخرج الراعي عن قواعد لعبتها الخاصة عندما يمد عينه إلى واحدة خلاف ما اختارتها زينة له فيفقد موقعه على طاولتها ويصير منبوذا، كانت تبدو دائما كقوادة محترفة تشجع الآخرين على ممارسة الرذيلة وتدفعهم دفعا إليها ولكنها لا تسمح لرجل بأن يلمسها أبدًا، وتشعر بلذة غريبة وهي تراقب الآخرين منغمسين في انحدارهم بغرائزهم وعلاقاتهم الجنسية الرخيصة ووقتها تستبد بها اللذة حتى تبرق عيناها الخضراوان بلمعان غريب ومريب في آن واحد..!!

فحصت حقيبة يدها جيدًا قبل أن تغادر متوجهة للحانة، قلبتها رأسا على عقب، تعكر مزاجها فجأة وتجهمت ملامحها واهتز فكها قليلا، طلبت رقما على هاتفها وما أن جاءها صوته حتى قالت بلهجة آمرة:

- تعالالي المكتب يا صابر حالا..

ثـم أغلقـت الهاتـف وقبعت علـى أريكة بجـوار النافـذة تدخن بشراهة وعصبية، وتتأمل حلقات الدخان التي تنفثها كل برهة وهي تنظر في ساعتها كل دقيقة في انتظار صابر.!!

*****

دقتـان متتاليتـان مـن بـوق السـيارة البيضـاء يظهر بعدهـا بقليل محروس، وهو يسـرع الخطـى فيتضح عرجه جليًّا، يهـم بفتح باب السيارة الأيمن فيفاجأ بنبرة خشنة من أبي عيدة:

- انت لسه حتتضايف وتقعد.. إنجز.

يتراجـع محروس ويدفع البـاب برفق مدليا عنقه مـن النافذة في دهشة:

- خير؟!

بلهجة استنكارية وعينين تطقان شررا أجابه:

- الشــهرية ياطالع النخلة.. إيدك على ألف جنيه، أنا سـبتك أول شهر محبة، وراعيت العشرة والقرابة..

أفلتـت نصف ابتسـامة مريرة من بين شـفتي محـروس مرددا في أسى:

- منين؟

ثم اتكأ على مقدمة السيارة رافعا رأسه للسماء وهو يتنهد بصوت عـال.. اقتـرب منه أبو عيدة في بطء كثعبان يزحف وسـط حشـائش كثيفة قائلا:

- اسـمعني كويس يا محروس ياخويا إنت شـهريتك هنا ستمية وخمسين جنيه وإكرامياتك من السكان زيهم ويمكن أكتر..

علـت الدهشـة وجـه محـروس لوقـوف أبـي عيـدة علـى هـذه التفاصيل، فأردف الأخير بعد أن قرأ وجهه:

- ده غيـر إن هاجر وأمها بيخدموا في الشـقق يعني بيطلعلك من وراهم ألف تانية، ومتنسـاش إن أكلك وشربك ونومتك بلوشي، أنا متفق مع النوبي اللي مشغلك على كده..

ثم ربت على كتفه بغلظة خاتمًا:

- استهدى بالله وخش هات الألف جنيه بدل ماتنزل بكرة تحجز تذاكر القطر لأسوان ولا إيه يا ابن عمي؟!

احتـاج محروس بضـع دقائق ليزول اضطرابه وجَزَعُهُ فقد شـعر بأن قدميه قد تخذلانه لو تحرك، لمح أشـباح الفقر والعوز والبطالة تتراقص أمـام عينيه، وكأن أبا عيدة مايسـترو يحركها بعصا صغيرة، خرجت منه كلمات مبعثرة كانت هي خط دفاعه الأخير عن جنيهاته التي كسـبها بتعبه وحده، حججه كلها تـدور حول رفضه لعمل ابنته أو زوجته في خدمة البيوت مشهرًا سلاحه في وجه أبي عيدة:

- انت مش قلت لي لازم هاجر تتحجب علشان الناس هنا ديابة، ودلوقتي عاوزني ارجع اشغلها هي وأمها في بيوتهم؟!

رمقه أبو عيدة بنظرة ميتة وهو يشعل سيجارته وقد بدا كقاتل بدم بارد وهو يقول في هدوء:

- قلتلك تتحجب علشان تداري جسمها لأن ده لحمك يا محروس إنما الشغل عمره ما كان عيب ولا حرام يا أبو هاجر..

ثم أردف وهو يبتسم:

- وحلال عليك ياعم كل جنيه فوق الألف بتاعتي..

قالها ثم دفعه بهدوء صوب المدخل:

- روح هات الفلوس انا عارف انك محضرهم وربنا بكرة حيرزقك اكتر لانك ابن حلال.

مضى محروس مطرقا رأسه حتى وصل حجرته فأحنى رأسه وعبث أسفل وسادته قليلا وهو يلملم عملات ورقية ويحصيها حتى أكملت ألفا سلمها لأبي عيدة الذي دسها في جيب سترته، فأطلت بعضها من فتحته في عشوائية، وكأن الجيب ينوء بحمله وقال ضاحكا:

- أنا مش حعد وراك..

لمعت سنته الذهبية إثر ضحكته ثم أدار المحرك ومال بجزعه يسارا رافعا رأسه ناحية محروس المتسمر في مكانه:

- لو عرفت إن شـقة حتفضى في العمارة أو معروضة للبيع قولي على طول وحأكلك الشهد.. سلام.

*****

اجتاز سـعيد النحال بوابة البنك في تؤدة ووقار، رجل خمسـيني طويل عريض شـرقي الملامح يحتفظ ببقايا قوام رياضي لم ينل منه الزمن بعد، شـعره أسـود فاحم ناعم تتخلله على استحياء شعيرات فضية بعضها غطى فوديه في جرأة.. أناقته المفرطة ووسامته الملفتة وتلفته يمينا ويسـارا حائرا دفعت موظفي العلاقـات العامة للهرولة نحـوه لمعاونته بعد أن قرأت قرون استشـعارهم أنه رجل ذو حيثية ممن يفضلون خدمتهم والتزلف لهم دوما..

- الأستاذة فدوى عبد السلام مكتبها الجديد فين لو سمحتم؟ أنا سـعيد النحال صاحب الشـركة الدولية للتصدير والاسـتيراد.. قالها وهو يخرج كارتا صغيرا أنيقا من سترته..

كانـت فـدوى جالسـة في حجرتهـا الجديدة بقسـم خدمـة كبار العملاء الذي انتقلت إليه مؤخرا وقد غاصت في مقعدها في كسـل منتصـف النهـار، تعبث فـي هاتفها المحمـول وتعيد قراءة رسـائل سـعيد النحال إليهـا، والتي تحتفظ بها كلها في ملف خاص تسـميه باسـمه الأول بالإنجليزيـة، رسـائله كلها كانت غرامًـا في غرام ظل يبثها إياه على مدار ثمانية أشـهر مسـتعينا بأشعار نزار قباني وفاروق

جويـدة فيختـار السـهل منها ويضيـف اسـمها دوما لأبياتـه، قلبت ثلاثين رسـالة كان في آخرها يسـتميحها عذرا ويطلب منها أن تصبر صبـرا جميلا حتـى يطلق زوجته ليتزوجها ثم يسـتفيض في وصف ما سـوف يفعلانه بعد الزواج فيلهـب خيالها المتلهف لتصبر أكثر.. ظلت تسأله ذات السؤال كل يوم في الأشهر الثلاثة الأخيرة وإجاباته لا تتغير.. كلها بعبارة واحدة: الصبر، حتى تشفى زوجته من مرضها وتجري جراحة لتوسيع الشرايين..

شردت فدوى وهي تلوي شفتيها المتفختين بامتعاض، خلعت نظارتها الطبية وفركت عينيها وأعادت ظهرها للوراء وهي تتحسس خمـوص بطنها أسـفل نهديها المتكورين وأكثر مـا يلفت النظر فيها فلاحظت أنها ممتلئة قليلا بعد أن تخلت عن نظام التخسـيس الذي اتبعته منذ شـهور، كان ابتعاد سـعيد عنها في الآونة الأخيرة بسـبب مـرض زوجته، يوترها فتفرط في الطعام غيظا، ظهرت عليها ملامح الضيـق فهي قصيرة للغاية والبدانة تزيدها قصرا حتى لو كانت زيادة طفيفة في وزنها فتبدو وهي تسير كأنها تتدحرج لا تمشي.

– مفاجأة مش كده؟!

أطلقت صيحة فرحة صاخبة عندما سمعت صوته ورأته أمامها ثم كتمـت فمها بكفها خجلا من موظف العلاقات العامة الذي أوصله لمكتبها، ظلت متنمرة حتى غادر ثم تعلقت بعنق سعيد وهي تحتضنه

بقوة.. اتسعت ابتسامتها وعادت إليها نضارتها فجأة، أشرقت كل ملامحها في جزل وتوهجت أحاسيسها كفتاة التقت فتاها بعد لوعة واشتياق ورغم أنها تخطت الثلاثين بست سنوات كاملة إلا أنها لاتزال تحمل قلب طفلة وكثيرًا من عقلها، جلست إلى مكتبها وهو يتأملها بِتَرَوٍّ وابتسامة حانية تلج من شفتيه بالتدريج، وعيناه تطلقان نظرات مفعمة بلهفة عارمة فتلهب مشاعرها أكثر حتى تؤججها، دار بينهما حديث طويل معظمه هامس حتى استشعر أنها على وشك إلقاء سؤالها المعتاد، فاعتدل بظهره في مقعده قائلا بلهجة من يبتر الحديث فجأة:

- أنا مش حعطلك كنت عاوز اسحب عشرين ألف دولار من حسابي وبالمرة اديلك توكيل مراتي عملتهولي على حسابها، بس إنتي عارفة إنها مريضة فخليه عندك في الملف واعملي مطابقة على التوقيعات وكملي الورق ولو.....

لم يكمل عبارته بعد أن نحت فدوى الأوراق كلها جانبًا دون أن تنظر إليها، وهي شبه هائمة لا تريد أن تنتقل من الأحلام إلى الأرقام بخطوة واحدة هكذا، فضحك وهو يربت على كفها مشيرا إلى أوراق حساب زوجته والتوكيل:

- حد يعمل كده في عشرة مليون جنيه..

- حنتجوز إمتى يا سعيد؟!

احتضن يدها بكفيه وطبع على باطنها قبلة حانية طويلة ثم استدعى ابتسامته الهادئة على شفتيه قائلا:

- قريب أوي، وأقرب مما تتخيلي وبعدين أنا عملتك توكيل من شهرين على حسابي يعني ممكن تحددي المهر بتاعك وتسحبيه كمان..!

قالها ضاحكا و قبل أن تفيق فدوى من سكرتها عاجلها مستعيدا ذات النبرة:

- رتبي الورق ولو محتاجة توقيعي في أي حاجة إمضي مكاني بالتوكيل وهاتيلي العشرين ألف دولار معاكي أنا حجزت عند ستيڤي الليلة علشان نسهر سهرة حلوة.

انتبهت فدوى كمن تذكر شيئا ثم نقلت بصرها إلى شاشة الكمبيوتر على يمينها، وهي تضرب أرقاما في سرعة فائقة دون أن تنظر إلى لوحة المفاتيح:

- إنت حسابك حيبقى مكشوف لو سحبت منه عشرين ألف دولار.

أجابها ببرود وكمن يتوقع السؤال:

- مش مشكلة غطيه من حساب مراتي والتوكيل عندك في الدوسيه.. أشوفك بالليل.. على فكرة مكتبك الجديد شيك جدا.. سلام.

قالها مرسلا قبلة في الهواء تاركا إياها ثَمِلَةً بالسعادة، وسرعان ماكان قد تبخر من أمام عينيها.

*****

زفر العقيد حسين عناني زفرة طويلة كمن خرج من قبو مكتوم وهو يستلقي على ظهره في فراشه، وعرقه يتفصد منه بغزارة فالتصقت (فانلته) الداخلية بجسده، وظل يتنفس بصورة متلاحقة كقربة منتفخة ترتج في صمت.. تقلبت زوجته وأعطته ظهرها بملامح متجهمة، عبثت بأصابع مضطربة بجوارها فأضاءت غرفة نومهما والتقطت سيجارة أشعلتها بعصبية مكتومة قائلة، وهي تنفث دخانا كثيفا دفعة واحدة:

- لازم تشوف دكتور يا إما تنسى الموضوع ده خالص..

وكأنها ألهبت جسده بسياط مغموسة في زيت يغلي فانتفض من داخله مقطبا جبينه ثم لاذ بالصمت؛ فقد بات يفشل مع كل محاولة يقترب فيها منها لا يقوى على تحريك ساكن، وكأنه تمثال في متحف تلمسه عشرات الفتيات بينما يكتفي هو بنظرة جامدة من عينيه الغائرتين المنحوتتين في وجهه..

انتابه شعور غريب في السنوات الأخيرة مع زوجته، كلما رغب فيها يشعر من داخله أنها تصده في البداية فيقاوم شعوره بعنف ويصر على ما انتوى فعله معها فَيُهَيَّأ له أنها ترمقه بنظرة تحد وكأن لسان حالها يصرخ في وجهه:

- لن تستطيع أن تفعلها..

بعدها تدور رأسه بأفكار غريبة، وتتقافز الهواجس إلى مخيلته فلا تستجيب غريزته لنداءات عقله المشوشة، فَيُهَيَّأُ له كثيرا أن زوجته تبدو كذكر مكتمل الرجولة، صدرها مشعر ولها شارب كثيف ولحية خفيفة غير مهذبة، فينفر منها فجأة مرتجفا فتخف وطأة ذراعيه المطبقين على كتفيها، ويبتعد عنها بصدره مدققا في ملامحها منزعجا، تفتح هي عينيها بعدما غادرتها النشوة على حين غرة، وكأنها تستفسر منه عن رد فعله المفاجئ فيجيبها بمعاودة محاولته وهو مترقب حذر، فلا يفلح إلا في مضايقتها بحركة جسده العصبية وهو يهتز بعنف فوقها دون برهان، فتشعر بثقل أنفاسه وتلاحقها اللاهث ووطأة وزنه على جسدها النحيل.. بات كل ما في مقدوره أن يحدث ضجيجا بلا طحن.. لم يعد يفهم ماذا جرى للزهرة البرية التي خطبها ثم تزوجها منذ سنوات كيف كبرت وتوغلت وتفرعت حتى صارت غابة موحشة يخشى أن يطأها بمفرده، ابتعد عنها منكمشًا وهي ترمقه شذرا كنِمرة غير مروضة..

أخـذ حمامـا باردا وشـرع في ارتـداء ملابسـه متأهبـا للخروج،
خرجت كلماتها من بين أسنانها بغضب:

- رايح البار برضه؟

أومـأ بالإيجـاب متجنبـا مواجهتهـا.. مضـى في طريقه مشـعلا
سيجارته مستسـلما لتيار هواء بارد من نافذة سيارته، سنوات طويلة
أمضاهـا فـي المباحـث الجنائيـة، كان يعمـل فيهـا على مـدار أكثر
مـن ثماني عشـرة سـاعة كل يوم تحت إِمْـرَةِ لـواء لا يظهر إلا وقت
الحصاد ليتلقى تهنئة الوزير على سـرعة الإنجاز وتمام المهمة بعد
أن يكـون قـد نقـل تعليماته وأوامـره قبلها للعقيد حسـين وضباطه،
وإذا ما أخفقوا أو قصروا حاسبهم حساب الملكين بلا هوادة، وبعد
سـنوات الـرق الطويلة تمت ترقيتـه فنقل إلى مصلحـة الأمن العام،
صارت مسـئولياته أكبر ومهامه أكثر، لكن غيره يحصدها كالمعتاد،
وكأن رئيسـه يكتم أنفاسه تحت الماء ثم يسمح له بالتنفس كل فترة،
ثم يعـاود إغراقه في ملفات المشـبوهين والمجرمين لفك طلاسـم
القضايا، نسـي نفسه وذاب في خضم الأوراق والجرائم والخدمات
الأمنية والتشـريفات، ولكن عندما واتته الفرصة قرر أن يعوِّض كل
ما فاته بعد أن أدرك قواعد اللعبة فاتسعت دائرة علاقاته، وارتقى بها
مـن تجار تجزئـة وبائعي فاكهة وجزارين إلى رجـال أعمال وفنانين
ولاعبـي كـرة وأصحـاب معـارض سـيارات، حتـى حامـت حوله

شـبهات كثيرة لم يستطع دحضها أو إبعاد سُحُبِها الغائمة عن سمائه فتلبـدت، ولأنـه لم يكـن له ظهر يحميـه فكانت بطنـه هدفا واضحا لضربـات موجعـة فتنقل بيـن محافظات الصعيـد وذاق الأمرَّين في غياهب الأرياف وأقاليم الصعيد حتى صدر قرار بعودته إلى شـرطة المرافـق مراعـاة لملف خدمته، تمهيدا لترقية مرتقبة ترشـحه بعدها للخروج المبكر إلى المعاش على رتبة لواء..!

عـاد لرعاتـه القدامـى ومموليـه الأوليـن كان أشـهرهم أبوعيدة الخاضع لدائرة عمله بقسـم قصر النيـل، فكان يحصل من كل منهم على مبلغ شـهري يتراوح بين ألف إلى خمسة آلاف جنيه حسب ما يسـديه لهم من تغطيـة أمنية على جرائمهم يعـوض بها ضعف راتبه الهزيـل أمـام راتـب زوجته الضخـم بالشـركة الاسـتثمارية متعددة الجنسـيات، والتي كانت تتعمد معايرته به، كانت خدمته لأبي عيدة مزدوجة فلا تقتصر على ترك شحاذيه والباعة الجائلين من رجاله في أمان فقط، وإنما كان يخلي لهم السـاحة بالقبض على دخلاء منطقة الزمالك من أمثالهم والتنكيل بهم ليكونوا عبرة لغيرهم؛ فلا تسـول لهم أنفسـهم أن يتسـولوا بتلك المنطقة مرة أخـرى.. كان قد تعرف على ستيفي منذ سنوات بعيدة بعد حادث قتل لسائح أجنبي بالفندق الذي تقبع الحانة في قبوه وبعد استجوابه لستيفي توطدت صلته بها وصـار زبونه، فيتجرع من الخمر ما يزيد على حاجته ولا يدفع مليما مقابـل معلومات يقدمها له عن بعض النسـوة والرجال من مرتادي الحانـة من واقع ملفاتهم بالأمن العـام أو بمعاونة زملائه بالمباحث

الجنائية، وكان ستيفي بدوره يتزهم بها بطريقته الخاصة..

أخرج هاتفه ليطلب ستيفي لكي يجهز له مقويا جنسيا من الوصفات البلدية من منطقة السيدة زينب.. قبل أن يتم الرقم الأخير أغلق الهاتف وقذفه في حنق على المقعد المجاور؛ فقد تذكر أنه سبق وجرب هذه الطريقة من قبل، ولم تفلح حتى اقترح عليه ستيفي منذ شهور أن يجرب نفسه مع إحدى الساقطات باعتبار أن لها خبرة ودراية قائلا له بنبرة موحية:

- الهام دي يا باشا صاحبة كرامات وبتعمل معجزات وبتصحي الميت..

ثم اكتشف بعدها أنه خرج من عداد الأموات ولم يلحق حتى برميم العظام، فقد صار جسده بورًا لا حياة فيه ولا رجاء منه، فكادت إلهام تفضحه لولا تدخل ستيفي لإسكاتها ولما انتوى العقيد حسين تلفيق قضية لها ليتخلص منها للأبد نصحه منير بتركها لحالها حتى لا تلوك سيرته في كل مكان..وقتها تملّكه شعور غريب برغبته في قتلها، ثم نسيها فجأة وكأن شيئا لم يكن. بعد نقله إلى إدارة المرافق شعر حينها أنه غير قادر على إيذاء حشرة تحوم حوله وتضايقه، وأن كل ما وسعه أن يبتعد عن النطاق الذي تحلق فيه. وصل إلى الحانة تاركًا سيارته لأحد رجال أبي عيدة الذي استقبله بصيحة عالية تليق برتبته:

- بااااشا.

ترجَّل بطوله الفارع وهو يصفعه في لين ورفق بكفه الضخم مداعبا، وجفناه منسدلان كأنه نصف نائم كعادته ليلا ونهارا قائلا بنبرة لا تخلو من أمر بحكم العادة:

- خلي بالك من العربية دي مش الميري يا روح امك واغسلها بره وجوه..

ثم نزل درجات السلم على مهل ككهل يتحسس طريقه مستندا إلى الجدار وسرعان ما ابتلعته الحانة.

*****

...حسناء جميلة فاتنة ذات ثغر مبتسم تقابلك بترحاب وألفة بالغة، تتدلل عليك وتتبسط معك فيزول توترك على الفور وتنهار كل كلفة بينكما في ثوان، ومع الجرعة الثانية تحتضنك برفق فتتشمم عطرها النفاذ ليأخذك إلى آفاق بعيدة.. وفي كأسك الثالثة تتدافع الذكريات إلى مخيلتك بأبيات لموشح أندلسي قديم أنشده أبو بكر بن زهر لتردد معه في نشوة عارمة..

غصنُ بانٍ مال من حيثُ استوى

بات مَنْ يهواه من فرطِ الجَوَى

خَفِقَ الأحشاء موهونَ القُوى

تضـاء الأنـوار وتُغلـق الأبـواب مودعة آخـر الـرواد المترنحين ويشـق ظلام الليل أول خيوط النهار برفق، وكأنها تُؤَهِّبه وتُعِدُّه لنور سـاطع بعد قليل يكشف كل مستور؛ لتتبخر الحسناء فجأة وتتهاوى عجـوزًا شـمطاء على أقـرب مقعـد، بعـد أن أعياها السـهر وغواية مرتـادي الحانة حتى ارتووا جميعا من نشـوتها.. تجردت من زينتها رويدًا رويدًا وتركت باروكتها تتسـاقط بجوارها، وخلعت رموشـها الصناعية ومسـحت مسـاحيقها الزاعقـة فلاحت أخاديـد التجاعيد العميقـة المحفورة بوجهها على مر السـنين.. انقلبت المقاعد على المناضـد وكأنهـا تتمرد على رائحة جالسـيها، عشـرات من أعقاب السجائر وبقايا أطعمة متناثرة بعضها آتٍ من معدة متقلبة متوترة من فرط الشراب، وأخرى من الجهل بأصوله، فخلفت رائحة عطنة إلى جانب منظرهـا المقزز.. راحت العجوز تتكئ على عصاها بصعوبة لتنهـض وتنال قسـطا مـن راحة قبل معاودة نشـاطها ووضـع زينتها لتسـتقبل روادها مـن جديد، مضت تسير منحنية الظهر تسـتند إلى الجـدار حتى اختفت عن الأنظار.. يفيقون في الصباح فلا يجدونها بجوارهم، يتحسسـون مكانها الشـاغر بلهفة و يفركـون أعينهم غير مصدقيـن لوهلـة.. يتنبهـون إلى الهموم وهـي تتقافز علـى أكتافهم فرحـة بعودتها إلـى ذاكرتهم تشـغلهم وتقض مضاجعهـم وتعتصر آلام الصداع رؤوسـهم الثقيلة..تنسـدل قليلا جفونهـم المرهقة من السـهر..يزفرون في ضيق يكاد لهيبـه يحرقهم، يتلهفون العودة إليها

ويستبقون عقارب الساعة وهم لا يدركون أنها تعود بهم إلى الوراء رويدًا رويدًا..

*****

تفرَّس وجهه مليًّا.. هناك أمر غامض يا تُرى ما الذي تغير؟! دقائق مرت بطيئة كسحابة صيف غائمة حتى أدرك بعدها أن نظرته بدت ميتة نوعًا ما وكأنها تحجرت في مقلتيه.. ربما.. ولكنه مازال قادرا على تغيير جلده والعودة للحياة.. هل يموت المرء مرتين؟ لم يتلق إجابة حاضرة ولكن ما الذي يهم، حتى لو مات عدة مرات فما دام يعود للحياة من بعد الممات فهو قادر دومًا على أن يعيش حياة أخرى يتفادى فيها أخطاء الأولى، فليحيا إذن حياته الثانية متجنبًا كل خطايا الماضي.. خطايا؟! نعم خطايا.. ولكن لم يقل لي أحد يوما إنني أخطأت أوارتكبت خطيئة؟! يبدو أنهم يقصدون متاعب العقل وإرهاق التفكير وأوجاع القلب وشروخ الوجدان.. سأجمد قلبي مؤقتا وسأضع عقلي في لفافة من حرير وألقيها في مكان بعيد لا يعرفه أحد سواي، سأقف على الحياد، لن أحب أو أكره، لن أُغَلِّبَ عاطفةً على حكمة بل سأتجرد من الاثنتين معا.. أنا الحاضر الذي لا يموت.. وأنا الماضي الذي سيعيش فيه الجميع معي إلى الأبد..

ارتاحت قسمات وجهه إلا قليلا وبقيت النظرة الميتة محفورة في مقلتيه بعمق ووضوح بعدما التصقت بهما بشدة مع مرور الزمن..!!

أغلق ستيفي باب غرفته الصغيرة الملاصقة للحانة خلفه برفق، بعد أن شعر بخدر الأفيون يسري في عروقه، كانت الساعة تقترب من العاشرة والنصف حين بدأ بعض الزبائن يتوافدون فأشار بإصبعين من يده إلى النادل موفق، فانخفضت الإضاءة إلى المستوى الأول وصارت أركان الحانة أكثر غموضا وجاذبية، مع مرور الوقت علت أصوات طقطقة الكئوس واصطكاكها ببعضها، تناثرت ضحكات من بعض الأركان و بعضها جلجل من منتصف الحانة لسيدة شقراء بدينة قاربت الخمسين، وبصحبتها امرأة تبدو كبناية آيلة للسقوط من فرط طول قامتها، وانحناءة ظهرها، وتجاعيد وجهها التي تشبه الأخاديد.

كان الرواد يتحدثون بصوت مرتفع فلم يكن ستيفي قد أمر بتغيير الموسيقى اللاتينية التي يتصدرها النفير والبوق بعد، شعر بانتشاء وثقة وهو يشد قامته فقد أُغلق باب الترشيح على مقعده في رابطة العاملين بالغرفة السياحية، ولم يتقدم أحد سواه، حتما سيحصل عليها بالتزكية مثلما فعلها من قبل فيضمن التجديد لسن الخامسة والستين.. عامان إضافيان وفقا للّائحة.. وكله بالقانون، ابتسم بهدوء الواثق وهو يردد الجملة الأخيرة همسا و يمر بين المناضد محييا الجلوس متخيلا خيبة الأمل التي ستعتلي وجوه أعضاء مجلس الإدارة عندما يجدون أنفسهم مجبرين على التجديد له لفترة أخرى، اقترب من طاولة يجلس عليها الوزير السابق

وأستاذ الاقتصاد بجامعة القاهرة الدكتور كامل أبو الأسرار الذي ترك وزارته منذ أسابيع قليلة بلا مقدمات، حتى تجرأ عليه بعض الصحفيين الحكوميين طعنا في ذمته المالية، ففهم العامة سبب خروجه وبات الخاصة وأولهم الوزير في انتظار تحقيقات تُجْرَى معه في وقت لاحق؛ فالكلاب دائما ما تتصدر مقدمة القافلة لتنبئ عن وصولها..

صافحه ستيفي بأدب جم مناديا إياه بمعالي الوزير.. أشار لستيفي بعينيه فانحنى مقربا أذنه منه:

– لما المتر وحيد يوصل إبقى بلغني أرجوك لأني معرفتش أقابله في مكتبه..

همس ستيفي له:

– كل يوم أربع من الساعة 3 ظهرا إلى الخامسة مساء، وهنا أفضل من المكتب لاتقلق سأرتب أنا الأمور..

كان الوزير مضطربا فوحيد حلمي لا يرد على هاتفه، ولم يفلح كامل في الحصول على ميعاد بمكتبه، ودائمًا يجيبونه بأن الأستاذ مشغول لشهور قادمة، وهو يخشى مفاجأة البلاغ والتحقيقات التي سوف تظهر حتما فجأة؛ مثلها مثل الرعد والبرق يصعب توقع أيٍّ منها مسبقا، والصحافة القومية بات واضحا من إشارتها المتقطعة أنها لن تتركه حتى تجرسه، وصورته خلف القضبان بصفحاتها الأولى باتت مترقبة.

تركه ستيڤي شاردا غارقا في كوابيس وهواجس مخيفة وهو يقبع في ركن مظلم بنهاية الحانة، بعد أن انحسرت عنه الأضواء من كل جانب.

*****

طلب صابر فطيرة كبيرة بالزيتون وأخرى بالجبن الأبيض، وجلس على دراجته البخارية الصفراء أمام محل الفطائر الذي يعمل به في حي الزمالك يدخن سيجارته لحين نضوج الفطيرتين اللتين سيقوم بتوصيلهما لزبائنه، دق هاتفه مرة أخرى كانت خطيبته هي المتصلة، أغلق الهاتف ولم يرد فلم يعد في مقدوره أن يقدم لها أعذارًا جديدة لتأجيل زواجه منها، فمنذ أن أنهى دراسته في معهد الترميم وهو لا يجد عملا مناسبا، ظن أن دراسته الأثرية ستفتح له أبواب رزق وشهرة في بلد تعاني التخمة من المعروض والمخزون الذي يحتاج بالضرورة لترميم، فأفاق من أوهامه جالسا وسط عشرات الموظفين الإداريين بإدارة مكتبية لا لزوم لها بمبنى حكومي كئيب بمنطقة العباسية، لا يفعل شيئا سوى الحضور والانصراف والابتسام لزملائه والنميمة على آخرين وقراءة الجرائد إن وجدت، عينوه بعقد مؤقت بوساطة من عضو مجلس شعب عن دائرته بعد أن سلمه مرغمًا تحويشة عمره خمسة آلاف جنيه، فاكتشف أن مرتبه الحكومي مائة وخمسون جنيها فقط..

ظل عامًا كاملًا يحاول أن يخلق لنفسه اختصاصا حقيقيا فأعيته المحاولة حتى جاءت إجابة رئيسه باترة لطموحه:

- إحمد ربنا إن مفيش مسئولية عليك، عاوز يبقى عندك عهدة ولما تتجرد تخش السجن؟! شباب فاشل ومستعجل!!

هل كان فاشلا فعلا؟! تساءل مع نفسه وشريط حياته يمر أمام عينيه ببطء..

أثناء فترة خدمته العسكرية عمل سائقا بوحدته وأجاد حتى استخرج رخصة قيادة درجة أولى، فقد أدرك مبكرا أنه لن يعمل بشهادته بسهولة، فحاول الالتحاق بوزارة البترول طمعا في مرتب مجز، ابتسم في مرارة وهو يتذكر عبارة موظف الاستقبال بالوزارة:

- يا أخ صابر انت تعرف حد مسئول هنا في الوزارة علشان تقدم ورقك؟

فلما أجابه بالنفي أشاح الموظف بوجهه وهو يغمغم في ضيق:

- هيه ناقصة مجانين على الصبح!!

نجح بعدها في اختبارات القيادة عندما أعلنت رئاسة الجمهورية عن طلب سائقين، ولكن المهندس المدني بالقصر الجمهوري أبلغه يوم النتيجة بما لا يشتهي:

- مش بالضرورة علشان نجحت تتعين، لكن لو معاك 25 ألف جنيه حنقولك مبروك، انت فعلا سواق شاطر!!

ألقى بعقب سيجارته وسحقه بحذائه وهو يردد كأنه لا يزال واقفا أمامه في نفس الموقف:

- ما انا لو كان معايا 25 ألف كنت جبت التاكسي ياولاد الكلب.

عادت عبارة المهندس المدني ترن في أذنيه:

- يا أخ صابر انت ممكن تترشح سواق في سفارة من بتوعنا في أوروبا وتقبض بالدولار، إيه يعني 25 ألف جنيه تدفعهم دلوقتي.. ده أحسن استثمار يا عبيط!!

وقتها أدرك أنه سيظل عبيطا للأبد فركن إلى الوظيفة الحكومية التي لم يكن راغبا فيها يوما ما معتمدا على شهادته الدراسية.. بعد شهور طويلة من بحث مضن انتهى به الحال إلى الالتحاق بوظيفة عامل توصيل طلبات بمحل الفطائر الصغير الذي يعمل على محاكاة الفطائر الريفية لسكان حيٍّ راق، أغلب زبائنه من الشباب الذين لا يعرفون الطعم الأصلي للفطيرة، وربما شكلها فظنوا أنهم يشترون منتجا ريفيا حقيقيا، ظاهرة جديدة أعجبتهم وكالعادة تمادوا في مدحها وأفرطوا في تناولها، كان يعمل على مدار ثماني ساعات يوميا فضمن دخلا مساويا لما يحصل عليه من الحكومة، أما الإكراميات فقد سمحت له بمواصلة عادة التدخين التي كاد يقلع عنها بسبب فقره..

في شهوره الأخيرة انقلبت حياته رأسًا على عقب عندما ترك زميله رامي العمل واشترى تاكسيا، ولما علت الدهشة وجه صابر وألح عليه مستفسرا أفضى له رامي بسره واختصه به:

- الحشيش يا صاحبي..

كلمات قليلة لخصت الطفرة الاقتصادية التي حلت برامي الذي وجد ضالته المنشودة في صابر بعد أن رغب في التقاعد عن بيع الحشيش راضيا قنوعا بسيارته متغافلا أنها أتت من تجارة محرمة، عرض رامي عليه التوزيع بالتجزئة مقابل مبلغ شهري ثابت يقترب من الواحد الصحيح المتزين بأصفار ثلاثة متلألئة تخطف الأبصار، تردد في البداية وعاش أياما في قلق وأرق، فخطيبته التي أحبها أيام الدراسة وتمناها زوجة أوشكت على الإفلات من بين يديه؛ بسبب طلبات أهلها المبالغ فيها والفقر يوجعه كل يوم ويلكزه بلا رحمة، حتى استسلم في النهاية لمغريات زميله الراغب في التقاعد ويبحث عن بديل جاهز، فلما تودَّك صابر ونضج صار يعمل لحسابه ليزيد دخله فتعامل مباشرة مع تاجر الجملة المهيمن على المنطقة كلها ثم عرفه رامي على بعض زبائنه القدامى، حتى وثقوا فيه. أما الوسيلة فكانت أسهل من أن تخطر على باله فزبونه المدمن عندما يطلب الفطيرة فهذا يعني ضمنًا أن يضاف إليها قطعة الحشيش وبعد مرور أربعة أشهر كبر طموحه وتطلعاته وزاد جشعه، فلم يعد يرى أن

دخلـه يقفز كقرد يتسـلق شـجرة، وإنما رآه دوما أشـبه بنملة تزحف ببـطء على عامود طويل، ولاتزال في ثلثه الأول فلم يجد له مخرجا أبدا من طمعه..

– الفطاير جاهزة يا صابر..

حمـل الفطيرتين متوجها أولا إلى مكتب زينة فهي زبونته الأكثر سـخاء، فتحت له الباب فـي عصبية ظاهرة سـلمها العلبة الكرتونية ومعهـا لفافة تحوى المخدر مصحوبة بابتسـامة اعتـذار عن تأخره، تركتـه لتحضر نقودا فاشـرأبَّ بعنقه يمد عينيـه كعادته مع زبائنه إلى أثـاث مكتبهـا الأنيـق، وهو يحلم بربع مسـاحته كسـكن فـي منطقة شعبية ولا يستطيع بعد..

نقدته إكرامية سخية وأعادت إليه الفطيرة قائلة:

– معنديش حد ياكلها اتصرف فيها..

ثم أغلقت الباب في وجهـه.. في طريق مغادرته التقى محروس جالسًـا في ملل يعبث بأصابع قدميه، ويتأمل المارة والسـيارات في وجوم:

– مدام زينة بعتالك الفطيرة دي بالهنا والشفا..

شـكره محروس بشـدة وظـل واقفـا يحييـه بحرارة حتـى غاب بدراجته البخارية عن الأنظار.

***

4

كوكتيل

- ستيڤي ي ي..

قالها شادي مدوية مجلجلة وهو يرفل في قميص ضيق لونه أحمر كلون الدم ويمرق في رشاقة بين طاولات الحانة، تُرك بينها ممر ضيق ملتوٍ أشبه بثعبان لا أحد يعلم أين يكمن رأسه أو يقبع ذيله، متوجها إلى ركنه المفضل وطاولته الأثيرة التي لا يجرؤ ستيڤي على حجزها لغيره إلا قبل استئذانه..

حياه ستيڤي بنظرة من عينيه محوِّلا بصره في إشارة سريعة للنادل لمعي الذي تحرك على الفور مهرولا ليسبق شادي فاردًا المفرش بكفه، ويستعدل وضع الكئوس المقلوبة، ويسحب المقاعد للخلف لشادي وفتاتيه، ومن طرف خفي كان لمعي يتأمل نتوءات جسديهما والتكورات البارزة من أعلى وأسفل وشدادات الصدر التي تضغط بشدة على نهديهما فيطلان بوقاحة، طلب شادي زجاجة خمره الخاصة وأطباقًا من مقبلات باردة وساخنة كثيرة كعادته، قائلا في صلف؛ ليتخلص من النادل ذي العيون الفضولية:

– يلا بسرعة وستيفي عارف طلباتنا..

لا يجلس شادي أبو الدهب على منضدته طويلا، فهو كثير التنقل والتجول داخل أروقة الحانة، يراقص فتياته ويتناول شرابا على طاولة أخرى، ويشرب نخبا مع صديق قديم على البار الرئيسي فيحظى بخدمة مميزة من ستيفي شخصيًّا، يتلقى ثناء مشوبا بالنفاق على إطالته لشعر مؤخرة رأسه، الذي يكاد يلامس كتفيه ويتفاخر بشعر صدره الكثيف البارز من فتحات قميصه، مع سلاسله السميكة فتبدو كأحراش سوداء تتلوى أسفلها ثعابين ذهبية لامعة عريضة، لا يبرح شادي منضدة إلا وتدور النميمة دوران الرحى عن مظهره وحياته المرفهة ومصدر أمواله وسطحيته.. هو من ذلك النوع الذي تنحصر مشاكله وهمومه في سخونة صالون السيارة ومقاعدها الجلدية الناعمة في الصيف قبل تشغيل مكيف السيارة إذا ما تركها معرضة للشمس، أو ازدحام المرور لدقائق إذا ما وصل مكان سهرته متأخرا.. **شخص تافه**.. هكذا خرجت العبارة من رجل جالس على منضدة قريبة، فلما لاح شادي أمامه كان أول المرحبين به والمحيين له بحرارة، ولما انصرف عائدا لطاولته سألته إحدى فتاتيه عن ذلك الرجل الذي رحب به بحرارة مبالغ فيها، فأجابها شادي وهو يتجرع كأسه الخامس، وقد ثقل لسانه قليلا:

– واحد لزج أنا حتى مش فاكر اسمه..!!

مثلما تفتش قطة في صفيحة قمامة بحثا عن طعام فتظل تموء حتى تجد ضالتها، فيخفت مواؤها فتتزايد بقية القطط حولها قادمة من كل حدب وصوب، كان جرسونات الحانة كلهم خاصة ضياء العجمي يحومون حول طاولة شادي بسبب أو بدون، يحيونه، يرفعون كأسا فارغة، يملئون أخرى نظيفة، يغيرون طبقا، يضعون شراشف جديدة، باتوا كالذباب متمسكين بشدة بابتسامتهم اللزجة الملتصقة بشفاههم حتى ضاق هو بعرضهم المسرحي المكرر فأخرج بضع مئات من الجنيهات دسها في جيب ضياء، متعمدا أن يراه الباقون ليتكالبوا على زميلهم بدلا منه.. كان كمن ألقى بعظمة بعيدا فهرولوا كلهم لاهثين خلفها، لم يكن يعرف قيمة حقيقية للمال سوى ما يحصل مقابله على متعة، أوكل إليه والده المقاول الشهير إدارة شركاته وأعماله ليكون ذراعه اليمنى فاستحال إلى ذراعين طويلين تغرفان ما يفيض عن حاجته لينفق على سهراته وملذاته ولم يعد يرى من الدنيا إلا نصفها المظلم وبات يقضي نهاره نائما، يحيط نفسه دائما بفتيات ساقطات ويبدلهن كما يبدل ملابسه كل ليلة، لا يهتم أبدا بفتاة مظهرها أرستقراطي أو ذات جمال فاضل، تغريه العاهرات فقط حتى لو كن دميمات..

- بقالك أسبوع مختفي وحشتنا..

قالها ستيفي وهو يصب له كأسا سادسة من الويسكي.

تجرع شادي نصفها دفعة واحدة وتجشأ ببطء قائلا:

- كنت في باريس...

- شغل؟

رد شادي بنصف ابتسامة ساخرة:

- لا طبعا، فسحة..

ثم راح يشرح لستيفي معاناته أثناء سفره من القاهرة عندما اكتشف أن الشركة الفرنسية التي سافر على خطوطها غيرت مكان الإقلاع إلى المطار القديم، وكيف كانت أجهزة التكييف ضعيفة به، وأسهب في وصف زحام صالة المسافرين الذي أصابه باختناق مضاعف فضلا عن عدم وجود غرفة لائقة للمدخنين، في حين كان ستيفي يزم جبهته ويمط شفتيه متصنعا التعاطف والتألم مع ما يسمعه من غثاء وتفاهة، رافعا أحد حاجبيه قائلا بجدية وصرامة:

- البلد خلاص باظت يا شادي باشا المهم إنك رجعتلنا بالسلامة..

ثم أكمل له كأسه مرة أخرى محييا الفتاتين بفتور بعد أن قرأهما بعينيه، طالبا لهما كأسين من ذات المشروب الذي يتجرعانه تحية منه لضيوف زبونه السخي، ثم انتحى بالنادل ضياء جانبا وهو يهمس في أذنه:

- ترابيزة شادي سكروا خلاص اعمل حسابك ان إزازة الويسكي تعمل 20 كاس بالكتير مش 25..

ثـم ربت علـى كتفه محفزا.. هز ضياء رأسـه مسـرعا نحـو البار فاحصًـا مـا تبقى من الزجاجـة مراجعـا مكعبات الثلج التي سـيزيد كمياتهـا في الـكأس القادمـة مع جرعـة إضافية من المـاء والصودا ونقطـة واحدة فقـط من الويسـكي لإضفـاء اللون المطلـوب حتى يختلـس ربع زجاجة شـادي مثلما يفعلون مع معظـم زبائنهم عندما يسكرون.

اقترب سـتيڤي مـن منضدة سـعيد ملتقطا زجاجـة النبيذ الأحمر الفاخـر بأصابعـه؛ ليمـلأ كأس فـدوى، فـي حيـن وضع سـعيد يده علـى فوهـة كأسـه رافضـا المزيـد فهـو لا يشـرب أكثر من كأسـين فقط، انسـحب سـتيڤي بظهره وهو يضع يسـراه خلفه في أدب جم، أشـعل سـعيد سـيجارة رفيعـة اختلسـها من علبـة فدوى، مسـتعينا بشـمعة صغيـرة تضـيء في بوتقـة لتضفي جـوا رومانسـيا، لم يكن مدخنا ثقيلا أو معتادا، يخشـى دائما علـى صحته وقوامه الرياضي، ثـم أخرج شـيكات بنكية كثيرة من جيب سـترته دسـها في مظروف صغيـر ومد يده بها إلى فدوى التي كانـت تعتلي مقعدًا دائريًّا طويلًا بلا مسـاند تؤرجـح سـاقيها المتدليتين من أسـفله في مـرح مرتدية ثوبا أسـود قصيـرًا يتعلق بكتفيهـا بحمالتين غاية فـي الدقة وكأنهما شـعرتان شـفافتان، وقد تركت شـعرها الفاحم الندي ينسـدل على

كتفيها بلا ترتيب فبدت كغجرية يطل الشبق من عينيها بلا مواربة، وهي تتفرس ملامح سعيد الذي أحبته لدرجة العشق، حتى ابنتها الصغيرة من زواج سابق لم تعد تتعلق بها أو توليها اهتماما مثلما كانت، راحت تدور في فلك العشيق الجديد والزوج المنتظر، أخرجها المظروف من حالة الهيام فتبدلت ملامحها وتعكر مزاجها وهو يشهره في وجهها، أفاقت من نشوتها قائلة:

– إيه ده؟

أجابها بلا اكتراث كعادته وكأن الأمر لا يعنيه:

– دول 65 شيك اصرفيهم من حساب مراتي ودخليهم حسابي بالتفويض اللي معاكي وبعدين اسحبي نصهم كاش زي كل مرة..

ثم انشغل بإخراج ورقة مطوية من حافظة نقوده فردها أمامها كانت عبارة عن إيصال استلام بالمبالغ التي تسحبها فدوى من حساباته وتسلمها له نقدا، وتحمل توقيعه.. علت الدهشة وجهها إلا أنه احتوى كفها براحته قائلا:

– علشان ورقك يبقى سليم، ثم انا فعلا باستلم الفلوس دي منك..

– طيب ليه ماصرفتهمش وانت عندنا في البنك النهاردة؟!

اقترب برأسه هامسا بابتسامته الحانية:

- نسيت يا حبيبتي.. لما باشوفك بانسى كل حاجة..

ثم ترك مقعده مقتربا منها ببطء وحوطها بذراعيه من الخلف وقبلها في عنقها فأغلقت عينيها ووجهها مضطرم بالرغبة.. فدس المظروف في حقيبة يدها ثم سحبها برفق لمشاركته الرقص فمضت خلفه وكأنها تسير وهي نائمة، ألقت نفسها في حضنه ثم همست وهي تشب لتصل إلى مستوى أذنه:

- اتجوزني ولو عرفي يا سعيد..

ضمها لصدره بقوة ومسح بيده على شعرها في لين، ثم اختطف قبلة من شفتيها المكتنزتين:

- حنتجوز بعد أسبوع بالكتير ورسمي كمان..

دفنت رأسها في صدره بعمق وكأنها تفتش في ثنايا قلبه، وعيناها لامعتان من الفرحة لا تكاد تصدق ما تسمعه.

*****

على مقربة من طاولة شادي كان فؤاد فخري يخلع سترته ببطء فلاحت حروف اسمه ولقبه المكررة باللغة اللاتينية بارزة على صدر قميصه وظهر بوضوح كرشه المتدلي، جلس على المقعد العالي بصعوبة، كان بدينا كسولا، توردت وجنتاه حتى احمر وجهه كله، وهو يشعر ببعض الحرارة في جسده عندما تحسس أنامل الراقصة زيزي التي ترافقه منذ أسابيع، تركت له أصابعها يعبث بها

كما يشاء يقبلها في غرام ثم يضع راحة يدها على خديه السمينتين، ويحكي لها كعادته عن معاناته مع زوجته الأولى التي تركته فجأة وابنه الذي لا يراه، بينما راحت زيزي تتنقل بعيني أنثى الغراب المتلهفة على كسرة خبز تتفرس في وجوه الجالسين لعلها تجد ما يسد رمقها.. التقطت بسهولة عيني شادي اللتين كانتا تشاغلانها في وقاحة، فابتسمت ببطء تاركة ثلث فمها مواربًا فحركت غريزة شادي وأشعلتها، فاقترب من ستيفي هامسا في أذنه ببضع كلمات ضحك على أثرها ستيفي قائلا:

- اسمها الحقيقي زنوبة شحاتة وشهرتها زيزي، رقاصة مغمورة ومطلقة مرتين.

ثم أردف بمكر مبتسما:

- وبتبحث عن فرصة..

عاد شادي لطاولته وهو يسير بخيلاء أمامها ثم حياها مقبلا يدها، واكتفى بإيماءة بسيطة محييًا بها فؤاد الذي اعتدل في جلسته تاركا أناملها، وقبل أن ينطق فؤاد فخري بكلمة ترحيب بضيفه الثقيل شادي كان ستيفي قد أشار إلى نادر لتتغير الموسيقى في ثوان، واشتعلت الحانة بنغمات شعبية صاخبة لأغنية شهيرة جعلت الرؤوس الثملة تحرك أجسادها في خلاعة وتتلوى في مجون على نغم طبول تقرع بشدة..

مضـى النـادل زيـن يمر بيـن المناضـد وهـو يصفق علـى أنغام الموسـيقى بشـدة ويتلوى كامرأة لينة ليزيد الرواد حماسـا للرقص، وسـرعان ما اختلط الحابل بالنابـل لأناس تخلوا عن الحياء طواعية فتخلى عنهم بدوره مجبرا..

أعـاد شـادي ظهـره للخلف عاقـدا ذراعيـه حول خصـره متأهبا لجذب سنارته في أي لحظة.. تلوت زيزي في مقعدها، وهي تتمتم بكلمـات الأغنيـة الشـهيرة ذات المعاني الجنسـية المتدنيـة الفجة، وتنقل بصرها بين فؤاد المتيم وشادي المترقب والتي ألحت غريزته علـى عقله بضراوة ثم سـحبت كفيهـا، فجأة من بين يـدي فؤاد في لحظـة تمـرد، وانزلقت علـى مقعدها فـي دلال مبالغ فيـه وصارت تتمايل في ممشى ضيق بين الطاولتين وهي تستقبل في تلذذ نظرات متبجحة من عيني شادي، لتردها إليه بجرأة تثيره أكثر وتلهب خياله، فأشـار إلى إحدى فتاتيه بعينه صوب فؤاد، وسـرعان ما كانت الفتاة تراقـص فؤاد، وهـي تلتصق بـه والدهشـة تعتري وجهـه الطفولي، وحمـرة الخجـل تندفع بقوة لتكسـو قسـماته فـراح يتصبـب عرقا، والفتـاة السـاقطة تلتصـق به أكثر فـي دلال محبة عاشـقة مالبثت أن ظفرت بحبيب غائب، فألهته عن راقصته التي تظاهرت بأنها شعرت بـدوار بسـيط من تكرار سـتيفي لنفس الأغنية ثلاث مـرات بأمر من شـادي، فترنحت قليلا مائلة بجسـدها نحو شـادي الذي تلقفها بين ذراعيه وأجلسـها بجواره مصوبا نظره نحو ستيفي الذي أومأ برأسه

مبتسما لتنساب على الفور موسيقى ناعمة رومانسية لأغنية فرنسية قديمة، دفعت شباب الحانة للجلوس ليتقدم كبار السن وأصحاب الحركة البطيئة للرقص على أنغام كلماتها..

كانت زيزي تلصق فخذها بساق شادي وهو يهمس لها بنكات فاحشة، كانت تضحك عليها قبل أن تدرك نهايتها بعد أن فقدت القدرة على المتابعة بتركيز تحت سطوة الخمر ونشوة الغريزة... بينما راحت الفتاة الساقطة تحادث فؤاد وتداعبه في خدوده السمينة ضاحكة هامسة في أذنه بأنها في حاجة إلى جرعة من الحشيش فابتسم بثقة مستعرضا قدراته، وهو يطلب صابر على هاتفه المحمول ليمده بمؤونة عاجلة بالحانة، وإن كانت زيزي لم تغب عن عينيه وعقله بعد..

انتبه ستيفي لضوضاء وجلبة تنبعثان بالقرب من باب البار الرئيس.. تحرك على الفور فالصوت ينبئ بمشاجرة على وشك الوقوع، اقترب ستيفي في وقار وهيبة راسما ملامح جدية صارمة جعلت النادل زين يعتدل في وقفته المتراخية ويتراجع خطوتين للخلف وهو يجيب عن تساؤلات عيني ستيفي اللامعتين في غضب:

– البيه مش عاجبه لا المكان ولا الأكل..

تفحص ستيفي الشاب مُحدث الجلبة كان على مشارف الثلاثينيات بصحبته فتاة تبدو خطيبته، جميلة رقيقة ذات عيون قلقة

بينما الغضب يتملك كل حواس الشـاب حتى سـيطر عليها، وصار يوجهها بلا هوادة بصورة عشوائية.. ابتسم له ستيڤي مربتا على كتفه فقـد كانـت أول مرة يسـهر بالحانة ودخلها بتوصية مـن الدمنهوري بك، ثم قال بنبرة حازمة:

- ارفـع الترابيزة يا زين وقول للمعي ينزل اتنين ويسـكي ومزات بسرعة..

والتفت للشاب وخطيبته:

- أنا ستيڤي البارمان و انتوا ضيوفي الليلة..

رفض الشاب محاولات احتوائه وأزاح يد ستيڤي في غلظة وعلا صوته غاضبا:

- بار عادي وقديم وأشكال عجيبة..

كان يتحـدث بعصبية مشـوحا بكلتا يديه فطالت إحداهما كأسًـا صغيرة، سرعان ما استقرت قطعا متناثرة محدثة جلبة لفتت الأنظار أكثر إلى تلك البؤرة الساخنة، فجذب الشاب فتاته من يدها منسحبا مغادرا بينما أمطرت تسـاؤلات المحيطين رأس ستيڤي عما حدث، فابتسم في هدوء قائلا بنبرة باردة:

- معلش أصله لسه فايق ملحقش يسكر زيكم يا حضرات..

تعالـت ضحكاتهم أكثر حتى دمعت أعينهم فبدوا وكأنهم يرثون حالهـم، علت أنغـام الموسيقى المتسـارعة لتغطي علـى أحاديث جانبية قد تفيق الذاكرة لتتدبر فيما رأته. وفي ثوان كان لمعي وموفق وزين قد أعادوا الطاولة إلى ما كانت عليه، وكأن شيئا لم يكن.

*****

ظـل محروس واقفا أكثر من نصف سـاعة وهـو ينتظر دوره أمام بائع خضروات وفاكهة بشـارع 26 يوليو، وكأنه والعدم سـواء، كلما حضرت سـيدة أرسـتقراطية تقدمته أو سـائق لسـيارة فارهة فيسبقه حتـى الخادمات مـررن بجواره، وكأنه غير مرئـي، والخضري يقبل عليهـن بعبارات الترحيب حتـى ضاق بتجاهلـه المتعمد فصاح في وجه البائع:

- إيه مش شايفني؟

رمقـه الرجل ذو الملابـس البلدية المنمقة النظيفـة بنظرة ازدراء لا تخطئها العين قائلا في صلف:

- ربنا يسهلك اتكل على الله..

انشـغل البائع عنه مرة أخرى حتى غلى الدم في نافوخ محروس فخرجـت منـه كلمات مبعثـرة مصحوبة بقليـل من لعابـه الذي كاد يجـف من فـرط غيظـه، كلهـا تعبر عن سـخطه علـى أهـل القاهرة

وتكبرهم عليه، فزاده الخضري ألما وكأنه يطعنه بسكين (تلم) وهو يمد له بثمرة تفاح:

- خد دي وامشي من هنا..

أمسك محروس بتلابيب الرجل وهو يضرب رأسه بشدة عدة ضربات متتالية بجبهته العريضة حتى أسقطه أرضا فتجمع حوله صبيان المحل، وانقضوا عليه فطرحوه وراحوا يوسعونه ركلا إلى أن علا صوت أحدهم وسط عبارات السباب التي تحلق فوق رأس محروس الذي صار كذبيحة عيد الأضحى:

- ده باين عليه حرامي...

كانت تلك الكلمة الأخيرة كفيلة بالقضاء على أية محاولة من محروس للفكاك، بل كانت محفزة أيضا لبعض المارة وهواة التجمع للمشاهدة عن قرب للتدخل بركلة أو سباب ينم عن ضيق مكبوت.. إلى أن انتهى الحال بطالع النخل إلى رجل شبه كسيح يقطر دما من كل فتحات وجهه قابعا كفأر مذعور في حجز قسم قصر النيل في انتظار عرضه على الضابط النوبتجي ليبت في أمره، ولما مثل بين يديه تأمله الضابط في قرف واشمئزاز مشيرا له باحتقار بأصابعه لكي يبتعد عنه بمسافة كافية، ومحروس يشرح في ألم الظلم الواقع عليه. لم تساعده ملابسه الرثة وهيئته المتواضعة الفقيرة في إقناع

الضابط بصحة روايته، فأشار لأحد عساكره بإيداعه الحجز وعرضه على النيابة ملتفتا لأحد أمناء الشرطة قائلا في برود:

– اعمله محضر تسول..

– محروس جابر جاد الحق..

قالها شاويش الحجز بغلظة، وهو يفرد ذراعه ليجذب محروسا من جلبابه ليمثل أمام ضابط المباحث مرة أخرى لإنهاء إجراءات خروجه بعد أن ضمنه النوبي حارس العقار بكارت توصية من فؤاد فخري، بإلحاح من هاجر ابنة محروس... ظل طوال الطريق يسير خلف النوبي مطرقا وكأنه ظله حتى وصلا إلى البناية التي يعملان بها فافترش محروس الرصيف شاردا في ظروفه والمهانة التي تعرض لها، ولا تزال، وهي تطل عليه بعنقها حتى كاد يرى فيها نظرة الأفعى التي أسقطته من أعلى النخلة.. وضع إحدى كفيه على خده الأيسر وفرد الثانية متكئا بها على إحدى ركبتيه وهو جالس القرفصاء يتمتم بعبارات غير مسموعة، ينعي بها حظه العاثر.. تصادف مرور ستيقي في طريقه للحانة كالمعتاد، رمقه بنظرة فاحصة وبحركة لا إرادية عبث بأحد جيوبه، ثم ألقى في حجره بقطعة معدنية استقرت بقعر جلبابه دون أن يلتفت له، ومضى في طريقه فنكأ جراحه أكثر وأكثر...

الجميع تعاملوا معه على أنه صاحب عاهة.. دميم.. فقير.. فحكموا عليه مسبقا بأنه جمل أجرب، لن يمتطيه أحد، ولن يسحبه

آخـر، فالكل ينبذه وعليه أن يسـتتر حتى يموت كمـدا؛ كالفيلة تقبع بحفرة في انتظار الموت لتكون تلك هي رحلتها الأخيرة.

******

- تعـرف إن شـكلك بالباروكـة والبـودرة اللـي علـى وشـك والعدسات الزرقا دي أحلى بكتير من الحقيقة...

تجاهل ستيڤي سخافات أبي عدنان المعتادة والتي يتعمد تقيؤها في وجهه كلما لعبت الخمر برأسـه ليذكره بنقطة ضعفه وسره الذي لا يعرفه أحد غيره؛ ليضغط عليه أكثر حتى لا يطالبه بنصيب أكبر في محل ملابس المحجبات شراكتهما، أو يسأله عن تفاصيل المبيعات، كان سـتيڤي يعلم أن أبا عدنان يسـرقه بانتظام، كلما حاول مواجهته تصـدت منيرة له بحزم فهـي صاحبة نصيب يسـمح لها بالاعتراض الباتـر الحاسـم، الذي يئد كل مقترحات سـتيڤي فـي مهدها، تظاهر بانشـغاله فـي عمـل مزيـج مـن الكحوليـات لزينـة وضيوفهـا فبدا كصيدلي محترف يركب دواء لداء عضال، وهو يخففه بتركيز شديد بالماء وقليل من الصودا؛ ليكون لطيفا على عقلها وجوفها معا.. ثم فجأة كأسد جريح باغت أبا عدنان قائلا:

- سـيبك من شـكلي وكلمني في المهـم.. المركب وصلت من الصين؟

تجرع أبو عدنان جرعتين من كأس الفودكا ثم تجشأ في همس قائلا ببرود:

- وصلت والبضاعة اتوردت بقالها أسبوع..

رمقه ستيفي بنظرة ريبة حادة كالسيف لم يأبه لها أبو عدنان، ثم كلف النادل موفق بتقديم المشروب لزينة ملتفتا إليه في حدة:

- وليه مابلغتنيش لما هيه وصلت من أسبوع؟

نفث أبو عدنان دخان سيجارته في وجه ستيفي وهو يبتسم في بلادة:

- الست منيرة حرمك المصون عارفة وهي اللي استلمتها مع الرجالة ودخلتها المخازن، واتقيدت في الدفاتر وزمانها اتباعت كمان..

ثم أردف وهو يقترب منه بوجهه:

- انت حصتك كلها أقل من 10٪ وعامل هوسة كأنك صاحب المحل، لما نصيبك يكبر نبقى نقولك كل التفاصيل، المعرفة على قد الحصة...

وعاد يضحك ضحكة استفزازية أعلى من سابقتها ويمد كفه لستيفي؛ ليشاركه السخرية فتجاهله متأففا وهو يكتم سخطه من هذا الجلف الذي يعرف سره ويكيد له..

فطن أبو عدنان لما يدور برأسه فعاد يراوغه:

- تخيـل لـو منيرة مراتك جت هنا وشـافتك وانت كـده أو بنتك مريم..ولا أفلام السيما..

قبـل أن يشـرع في ضحكته الثالثة كان سـتيڤي يجذبه من سـترته بشدة، غير عابئ بمن حوله حتى التصق أنفاهما فضغط على مخارج ألفاظه، مهددا إياه بفضح سهراته الماجنة مع فتيات صغيرات مردفا وهو يجز على أسنانه بصوت خفيض:

- وديني لاقتلك يا ابن الكلب لو فتحت بقك بكلمة واحدة..

دفعه أبو عدنان بعنف ومسح بكفيه على صدره متأففا:

- أي دين فيهم يا حاج ستيڤي هو حد بقى عارفلك ملة..

قالهـا ثم طرق كأسـه مرتين علـى الطاولة الرخاميـة التي تتصدر البار الرئيس:

- أنا هنا زبون متنساش نفسك..

ثم صوب عينيه إليه في تحد، ملأ سـتيڤي كأس أبي عدنان حتى كاد يسـيل من فرط امتلائه، ارتشـف أبو عدنان منه رشفة طويلة غير عابـئ دون أن يحيـد ببصـره عنـه، ثم بـدأ يتحرك ببـطء متجولا بين المناضد تاركا سـتيڤي يحترق من داخله والدم يغلي في رأسـه حتى تلونت وجنتاه بلون القرقم.

*****

كان الطبيب مدحت المعداوي متنشيا للغاية تلك الليلة يسير بخيلاء بين طاولات الحانة، وهو يتراقص ويتمايل ممسكا بكأسه و يشدو بالفرنسية مع كل أغنية حتى اقترب من طاولة زينة فتبادلا القبلات، ودار بينهما حديث هامس بدا وديا بعد أن عرفته على ضيوفها الذين كان بعضهم من الأجانب ثم مالت عليه هامسة:

- مردتش عليا امتى حتكون في عيادة الزمالك؟

ضحك مدحت ضحكته الصفراء المعتادة التي يلوي فيها شفتيه إلى اليسار قليلا، وهو يجول ببصره بين الجالسات على طاولتها فابتسمت بخبث وهي تجيبه:

- لأ مش موجودة معانا، لسه مجتش..

هرش مؤخرة رأسه وهو يهم بالانصراف:

- ابعتيها يوم السبت ومعاها 5000 جنيه بس لو خواجاية حتتحاسب بالدولار..

قال عبارته الأخيرة وهو يتفرس في وجوه الجالسين مرة أخرى ويفرد أصابع كفه الخمسة في وجه زينة، ثم أطلق ضحكة عالية كمن يجامل نفسه وعاد إلى طاولته في اللحظة التي كان ستيفي يقترب فيها من زينة محييًا ضيوفها، معتنيا بسقياهم ويرفع بنفسه الأطباق الفارغة من أمامهم ثم قال مبتسما:

- مشروع جديد ولا زباين للدكتور مدحت؟

ربتت زينة على كتفه مبتسمة:

- لأ دول شـركاتي في مشـروع جديد حنعمله في قبرص حنفتح بـار ومرقـص كبير علـى البحر وأكيـد حتسـافر معايا مـرة أو اتنين، حنحتاج خبرتك ياستيفي..

أشـار بإصبعه صـوب عينيه وانحنـى في أدب جم وهـو يتراجع خطـوة للخلـف، مراقبـا النادل زيـن الـذي كان لا يزال فـي مرحلة استكشاف الضيف الشاذ..

ندت ابتسـامة شبه مبتورة من بين شفتي سـتيفي ومال نحو اثنين مـن زبائنـه القدامـى الدائمـي الجلوس على البـار.. وكيـل الوزارة السـابق رأفت المـواردي واللواء المتقاعد نبيـل الألفي وهو يخرج مئـة جنيه من حافظته، مصوبًا عينيه نحو منضدة زينة شـارحًا لهم أن بصحبتها ضيفًا شـاذًّا جنسيًّا، عارضـا عليهما المقامـرة والفائز من يتعـرف عليه أولا.. التفتا نحوها وضحكا ثم أخرجا ورقتين ماليتين كل منهـا بمئـة جنيـه وراحـوا ثلاثتهم يتفرسـون في وجـوه ضيوف زينـة.. كانـوا ثلاثة رجال وامرأتيـن.. أحدهم لم يتجاوز الخامسـة والثلاثين أسـمر طويل القامة عريض له شارب كثيف وقوام رياضي قـوي، أما الثاني فكان يبدو أجنبيا بشـعره الأصفر وبشـرته البيضاء، وتبدو جلسـته متوترة نوعا ما، ويبتسـم طوال الوقـت فوضع رأفت

ونبيل أموال رهانهما عليه باعتباره فرسهما الرابح، أما الأخير فكان بدينا قصيرًا له كرش منتفخ متجهم الملامح ويدخن سيجارة رفيعة للغاية، فراهن عليه ستيڤي منفردا.. انشغلوا بمراقبة النادل زين وهو لايزال يدور حول المنضدة، حتى اقترب النادل موفق من ستيڤي عارضا مئة جنيه أخرى وهو يفردها بالقرب من وجه ستيڤي طالبا المقامرة معهم، ابتسم ستيڤي وهو يقرأ ما دوَّنه موفق بخط يده على العملة الورقية ثم باغت زبائنه قائلا:

- أنا وموفق حنراهن على الرجل الأولاني..

ضحك اللواء نبيل قائلا بثقة:

- حتخسروا..

لم تمض لحظات حتى كان زين قد التقط ضيف زينة الشاذ فحام حوله عدة مرات، ثم بدأ يبتسم له بعينين لامعتين تطل منهما نظرة وقحة ذات مغزى لا يفهمها سواهما، ولما لمس استجابة بدأ يتعمد الالتصاق بساقه وجذعه ليحتك بجسد الضيف كلما رفع طبقا أو قدم آخر.. ثم تجرأ بعدها فاعتصر ظهر كفه بيده، بعدما تيقن بخبرته أن ضيفه شاذ شذوذا سلبيا، وقرب منتصف الليل كان الضيف الشاذ لا يفعل شيئا إلا مراقبة زين بلهفة وولع، والأخير يتعمد إثارته أكثر بتعليمات من زينة التي ظلت تتسلى بمتابعتهما وعيناها تشع بريقا غريبًا.. ابتسم ستيڤي وهو يقتسم قيمة المقامرة مع موفق

ويـدس الأوراق النقديـة في جيبه بعد أن كسـبا الرهان وكان الشـاذ هو الرجل الأول الذي يعمل مصمم أزياء للسيدات وذاعت شهرته في السنوات الأخيرة ولكن مظهره خادع للغاية، اقترب فجأة النادل منتصر مهرولا نحو ستيفي الواقف في منتصـف الحانة يطلق عينيه كالصقـر ليتأكـد من انصهار زبائنه تماما ثم أسـر إليـه ببضع كلمات بصوت خفيض، وهو يشـير بيده إلى أعلى فتهلل وجه ستيفي بعدها وشد قامته وخرج من الباب الخلفي متوجها لحجرته..

أخرج غليونه ونظفه أولا ثم أشعله بعد حشوه لمنتصفه و أجرى اتصالا بالإدارة فجاءه الرد على غير ما يشتهي:

- مفيـش تزكيـة المـرة دي يـا منيـر القـرار كان إعـادة فتح باب الترشيح لازم يكون فيه منافسين ضدك...

شـعر بأن الإدارة أطفأت نور وجهه ظل مغمضا عينيه شـاردا في وجوم وكلمة منافسـين تـرن في أذنيه كجـرس لا يتوقف حتى تكاد تصيبـه بالصمـم وهو يدلف للحانـة مرة ثانية.. في حيـن كانت زينة تعيد ترتيب الجلوس على منضدتها وفقا لرغباتها تلك الليلة تأمرهم فيطيعون، وهي تتلذذ عندما يتقافزون أمامها كالفراشات وهي تحوم حول النار في فرح، وتنتشي أكثر عندما تراهم يحترقون ببطء..

عاد سـتيفي لمكانـه خلف البـار بالحانـة الموقـع الوحيد الذي تسـلط عليه الأضواء بالمكان كله فلفت النظر إليه بوجهه المنطفئ

وكتفيه المنحنيتين ووجومه وبطء حركته، مال العقيد حسين عناني بنصفه العلوي مقتربا من ستيڤي:

- خير يا ريس مالك؟!

لم يرد ستيڤي مكتفيا بابتسامة مبتورة، فأخرج العقيد ورقة مطوية بعناية من جيبه قائلا بنبرة ذات مغزى:

- شهيرة موسى مطلقة ومعندهاش أولاد ونايمة على خميرة حلوة بياناتها كلها هنا بس خلي بالك انها......

قبل أن يكمل جملته كان ستيڤي قد التقط الورقة ودسها بسرعة في جيبه وائدا لحديث العقيد، وبكلمة باترة لما قد يجول بفكره قال:

- بعدين يا حسين بيه..

عاد العقيد يلح بأسئلته على رأس ستيڤي فأفضى إليه بهمومه وهواجسه من غدر الإدارة وتعسفها معه في تجديد مدته بالحانة لفترة أخرى.. ارتشف العقيد حسين ما تبقى من كأسه ثم رفع جفنيه المتهدلين قائلا بثقة:

- بسيطة..

صب له ستيڤي كأسا جديدة وهو يرتكز بيديه على حافة البار منتظرا التفسير في لهفة، قلب العقيد مكعبات الثلج بأصابعه ومضى

يتأمل دواماتها الصغيرة ثم قال ببطء، وكأنه يسمع مناديًا:

- ضيـاء وباقي الجرسـونات اللي عندك في البـار وممكن تحط زين كمان معاهم لو عاوز تنوع في المرشحين!!

عقد ستيڤي ذراعيه قرب صدره ثم عبث بذقنه متأملًا وجه حسين الخامل، وقد بدأت الفكرة تختمر في رأسـه على مهل فلمعت عيناه وراحت ملامح ابتسامة تلوح على شفتيه ببطء فأردف العقيد:

- إدي كل واحـد ألـف جنيه وخليهم يترشـحوا ضدك، ومبروك عليك من النهاردة عضوية الغرفة بعد ما يدولك أصواتهم وأصوات رجالتهم..

لـم يتمالك سـتيڤي نفسـه فصفق بشـدة وشـرع في إعـداد كأس جديدة للعقيد الذي أمسـك بيده وسـد بالأخرى فوهة كأسه مبتسما في خجل:

- أنا جعان عاوز آكل..!

*****

غابت زيزي عن أعين فؤاد التائهة فجأة وكأنها تبخرت مع شادي، وبقيت الفتاتان بصحبته إحداهما أعياها السكر فتقيأت أكثر من مرة حتـى أفرغت ما في جوفها وباتت كريهـة الرائحة غريبة المنظر، أما الثانية فقد ألحت عليه أن يصطحبهما إلى شـقته لتدخين الحشـيش بعد أن حشـت سجائرها بدورة المياه، وجذبت الرائحة أنف ستيڤي

عندما أشعلت واحدة منها، فأجبرها على إطفائها فورا حرصا على سمعة الحانة!!..

كان فؤاد يتفصد عرقا لا يدري ماذا يفعل فأمه ناهزت التسعين من عمرها وتقيم معه بذات الشقة، وهاجر ابنة محروس تجالسها وتخدمها أثناء ساعات غيابه، كيف سيدخل بفتاتين كل منهما يكفي مظهرها وحده لاستدعاء بوليس الآداب حتى ولو لم تفعلا شيئا.. طلب فاتورة منضدته فابتسم له النادل زين في مجون قائلا:

- شادي باشا شال الليلة يا أستاذ فؤاد كل سنة وانت طيب..

غادر بصحبة الفتاتين ورأسه ثقيل للغاية، ثم وقف أمام باب الحانة يملأ رئتيه بهواء نقي مستمتعا بينما إحداهن تستعجله في ضيق، طلب منهما بأدب ثم ترجاهما أن تصعدا بعده بخمس دقائق وهو يشير لمنزله الملاصق للحانة فرفضتا، ظل يحاول معهما حتى تأبطت كل واحدة ذراعه وجذبتاه نحو بيته، لم يكن محروس أو النوبي متواجدين بالمدخل فدخل ثلاثتهم في خفة، وهو يكتم بكفه فم إحداهن التي انتابتها حالة هيستيرية من الضحك فجأة كلما تفرست في وجه فؤاد وراحت تقلده في هلعه وارتباكه، فتح باب الشقة ببطء وحذر وما أن دخلوا حتى لمحتهم هاجر الجالسة أمام شاشة التلفزيون فوضعت يدها على فمها خجلا، وهي تتأمل الفتاتين المتأبطتين فؤاد بينما راح هو ينظر إليها في دهشة لا يعرف ماذا يقول تبريرا لما تراه..

اقتربت هاجر منهم وهي تستعدل طرحتها وترسم ابتسامتها البلهاء على شفتيها كالعادة، فأطلقت إحدى الفتاتين ضحكة خليعة ماجنة جعلت قلب فؤاد ينتفض بين ضلوعه، ويدب بقدميه غضبا مهددا إياهما بالطرد ثم راقب الممر المؤدي لغرف النوم وهمس لهاجر:

- ماما نايمة ولا صاحية؟

أشارت بكفيها المضمومتين بما يعني أنها نائمة، وهي تبتسم بعيون منبهرة بما ترى لا تكاد تصدق ما يجري حولها، وراح خيالها يصور لها فؤاد وهو عار تماما يمارس الجنس مع الفتاتين في وقت واحد، فتراجعت خطوة للخلف وهي تستند بيدها على الحائط حتى غادرت وأغلقت الباب خلفها وظلت قابعة وراءه؛ لعلها تسترق السمع وهي تهز إحدى كفيها بسرعة في جزل كالأطفال الذين اعتراهم الخجل فجأة، ثم انسحبت هائمة منحدرة على الدرج إلى حجرتها الضيقة حتى استقرت أمام مرآة مطوسة في دورة المياه الملحقة بغرفة أبيها، تكاد ترى صورتها كخيال بلا ملامح، شرعت في نزع طرحتها ببطء ليظهر شعرها الأسود المجعد، أغمضت عينيها وعضت شفتيها وهي تقرض بأسنانها ثم تجردت من ملابسها تماما، وراحت تتحسس جسدها بيد غير خبيرة في عشوائية بعد أن

اعترتها شهوة عارمة استبدت بها فجأة فلم تقو على مقاومتها متلذذة بالاستسلام لها في شبق..

*****

تشابكت وتداخلت سحب كثيفة من دخان سيجار فاحتوت الخيوط الرفيعة التي تسربت من أطراف السجائر المشتعلة، اختلطت معًا ثم شكلت أجساما هلامية أشبه بسيدات ورجال يتجاذبون أطراف حديث هامس، التوت سحابة دخان متقطعة على نفسها بعد ما اتصلت خيوطها حتى اتخذت شكل إناء مخروطي، وأسفلها سحب دخانية صغيرة متلاحقة فبدت كقطرات خمر تنسكب من الإناء على مهل ثم سرعان ما تبخرت السحب كلها..

فرك وكيل الوزارة المتقاعد رأفت المواردي عينيه بشدة ملتفتا إلى ستيفي ليطلب كأسا أخرى من مشروبه المفضل.. أعدها له ستيفي وناولها له مداعبا:

– اتفضل يا معالي الوزير..

أشاح رأفت بيده وهو يبتسم في مرارة فقد كان يحلم أن يكون وزيرا، ومع كل تعديل وزاري كان يظن أنها دانت واقتربت ولكن دائما وأبدًا لم يصبه الدور، ظل وكيلا أول لوزارة مهمة حتى استغنوا عن خدماته مؤخرا فأدمن الخمر التي كان من قبل

يعاقرها على استحياء، وصار من زبائن الحانة الدائمين منذ إنهاء عقده فجأة كخبير وطني بوزارته لتخطيه سنوات التجديد وبحجة إفساح المجال للشباب، ففوجئ أن من تم تعيينه في موقعه رجل من رجال الحزب الحاكم قارب الستين، فصار يتندر على ذلك بعبارته الشهيرة:

- الشباب طلع شباب الحزب يا ستيڤي مش شباب القلب زي ماكنا فاهمين!!

يهون عليه ستيڤي كالمعتاد ويضطر للاستماع إلى قصته للمرة العاشرة بعد المئة والتي لا يمل رأفت من تكرارها بحذافيرها..

كثيرون من رواد الحانة لا يملون أيضا سماع حكايته فهو يرويها كل مرة بأسلوب مختلف، يضيف لنفسه بطولات جديدة ويحذف من أدوار الآخرين مشاهد رئيسة، يتحرك بكل جسده الضخم المترهل ويرويها بصوته الأجش، فيبدو بشعر رأسه الكثيف شديد البياض بلون القطن كراوٍ خرج لتوه من كتاب الحواديت القديمة.. كان رأفت كل بضع دقائق يتفحص هاتفه المحمول بدقة، يتأكد من رنين الجرس العالي وكفاءة البطارية.. يسأله ستيڤي في دهشة:

- مستني مكالمة مهمة؟

يجيبه في شجن:

- أنا على المعاش وروحي لا تسري في أوصالي إلا لما يجيلي اتصال من واحد من العاملين اللي كانوا تحت رئاستي عشان يستفيد من خبرتي.. كده أحس إني لسه عايش يا ستيڤي..

يقولها ويفرغ كأسه كلها دفعة واحدة في جوفه ثم يغمض عينيه بقوة في أسى.. كان منضبطا في عمله كالساعة متسلطا على موظفيه كالسيف البتار لا يسمح بالخطأ مرتين، يردد على مسامع الموظفين الجدد دائما جملته الشهيرة: **«الشغل هنا زي المتفجرات الغلطة الأولى هي الأخيرة»**.. كانوا يلقبونه بالمايسترو لكثرة وتشعب الإدارات والهيئات التابعة لوزارته، والتي يشرف عليها ويديرها بدقة متناهية.. عندما تلعب الخمر برأسه يحكي بغزارة عن فضائح الوزراء الخمسة الذين تعاقبوا عليه..

تلك فضيحة أخلاقية، وأخرى مالية، وثالثة مردها الجهل بدولاب العمل، تواجده اليومي بالحانة وثرثرته المستمرة ومعرفته بخبايا وزارات أخرى سيادية تعامل معها بحكم وظيفته، كانت سببا رئيسيًا لمنع المتطفلين من الصحفيين؛ حيث يتولى نادر ومنتصر على التوالي بتعليمات مشددة من ستيڤي إحكام الرقابة على الزوار، وعندما يفد زبون غريب يستوقفه رجل الأمن عند مدخل الحانة ويستدعي أحد الجرسونات ليتفحصه ويسأله عن طاولته التي حجزها، ثم يذهب إلى ستيڤي ليعود محملا بالرد المعتاد:

- نأسف لعدم وجود حجز مسبق..

نديـم خمره الوحيد هو اللواء متقاعد نبيل الألفي الطيار الحربي المقاتل بحرب أكتوبر، الذي لم ينل أي منصب أو تكريم بعد العبور ثم خرج إلى المعاش في منتصف الثمانينيات، فانتقل يعمل بين عدة شركات مستشارا أمنيا تارة وماليا وإداريا تارة أخرى، حتى شعر بأنه يهين نفسـه ولا يكرمها بهذه الوظائف الغريبة عن خلفيته العسكرية كمقاتـل حربي عتيد، فاسـتقر علـى المقعد المجـاور لرأفت ليجترا معًا سنوات الانتصار والانكسار، دائما وأبدا يردد اللواء نبيل أن من زاملوه في الخدمة حصلوا على ما لا يستحقونه من مناصب وجاه، لـم يحلموا مجرد الحلم أن يمروا سـيرًا على الأقدام بجوار المباني التي يعملون فيها الآن.. يعلو صوت اللواء نبيل فجأة وكأنه قد مسه الجنون:

- والله كان بيحلم يعينوه سـفير في لندن علشـان يعمل قرشـين ينفعوه بقية حياته.. حظوظ.

اعتـاد مصطفى بك الدمنهـوري أن يدعوهما إلى طاولته ولكنها عادة لم يكتب لها الاسـتمرار طويلا، فقـد كانا غير مرحب بهما من جوقتـه علـى الإطلاق لسـلاطة لسـانهما، فبعد الـكأس الثالثة عادة مـا يتحدثان باسـتفاضة وبـلا مواربة ليفضحا أي شـخص يتصادف وجـوده على الطاولة، فعلاها مرة مع شـخص يدعى صبري سـراج الدين كان يبدو وجيها ثريا قليل الكلام معتنيا بنفسـه ومظهره، شـن عليه اللواء نبيل بمشاركة من رأفت الموادري هجوما مباغتا ففضحاه

حتـى تعرى أمام الجميع، بعد أن عرفا من سـتيفي أنه لا يمت لعائلة سراج الدين بأي صلة، وأن اسـمه الحقيقي صبري السروجي ووالده بائـع روبابكيا شـارك مواطنين من الخليج في حانـوت لبيع التحف بالزمالك، ولما وجد صبري في كراكيب أبيه صورا ومقتنيات قديمة لعائلة سـراج الدين أعجبه بريق الاسـم وجذور العائلة فاسـتغلهما لإضفـاء وجاهـة لا أصـول لها ثم باغتـه رأفت بأنه يتزوج من نسـاء عجائز ويستولي على أموالهن، يومها اقتلعا الرجل من جذوره تماما فغـادر الحانـة إلى غير رجعة، ثم كـررا فعلتهما مع فنانة شـهيرة لم تـدرك مرحلـة الأفول بعـد، كانت ضيفـة للدمنهوري يومـا ما على مائدته وتتحدث بفخر عن دراستها لفن التمثيل بهوليود وهي شابة، فقرر اللواء نبيل بثقة أنها كانت خادمة في بيت أحد جيرانه بالعباسية منـذ ثلاثين عامـا، فما كان منها إلا أن تخلت عـن وقارها المزعوم، وردحـت لهما بأقـذع الألفاظ فوضعا ذيلهما بيـن فخذيهما عائدين إلـى مقاعدهما على البـار الرئيس، فلم يكرر الدمنهـوري دعوتهما ولـم يجـرؤ أي منهما على طلبها منـه بعد ذلك، فاسـتقرا على أحد طرفـي البار يمطـران من يوقعه حظـه العاثر في طريقهمـا بوابل من السخرية..

مرق الوزير السـابق كامل أبو الأسرار بجوارهما متعمدا تحاشي النظر إليهما ليسـلم من تعليقاتهما اللاذعة، إلا أن حظه العاثر جعل رأفـت يلمحه وهـو يتلفت حوله في شـرود كعادتـه كل فترة وما أن شاهده حتى علا صوته:

- ما دايم إلا وجه الله..

فعقب اللواء نبيل على الفور:

- وحدووه..

كان الوزير السابق متوترا فلم يجلس مباشرة، وإنما وقف في نهاية الممر في انتظار ستيڤي الذي اقترب منه مهدئا وملطفا من سخرية المواردي، فأشاح الوزير بوجهه بما يعني أنه لا يأبه لهذه التفاهات، ثم ارتسمت الجدية على وجهه وهو يسأله عن المحامي وحيد حلمي..

- متقلقش معاليك المتر وحيد على وصول وأنا كلمته في موضوعك، اطمن..

قالها ستيڤي وهو يربت على كتفه بود مبالغ فيه.

جلس الوزير يحتسي خمره شاردا ومع بداية ارتشافه لكأسه الثالثة كان وحيد حلمي يخترق الحانة مع مساعديه نحو طاولته المفضلة في المنتصف تماما بحيث يراه الجميع رغمًا عنهم.. هب الوزير السابق واقفا يغلق أزرار سترته إلا أن ستيڤي أشار له بالانتظار فظل على حاله ساكنا ثم توجه ستيڤي مرحبا بوحيد مشعلا له سيجاره الضخم، وانحنى قرب أذنه هامسا بكلمات قليلة فهز وحيد رأسه بالإيجاب على مضض وهو ينظر لمساعديه نظرة ذات مغزى التفت بعدها ستيڤي مبتسما مشيرا للوزير ليتفضل.

كان كامـل أبـو الأسـرار مشـرئبا بعنقه متابعـا وكأنه فـي انتظار الإشـارة.. استمع وحيد للوزير وهو يحتسي كأسًا من النبيذ الأحمر ويدفـع إلى فمـه كل برهة لفافة مـن ورق العنب البـارد، وبعضا من كـرات الجبـن المقلية ثم وضع سـاقا فـوق أخـرى وأطلق ضحكة خافتة في وجه الوزير المتوتر قائلا:

- شـوف يا سـعادة البيه إنت تهمتـك إضرار بالمـال العام، لكن فـي نفس الوقت لازم الحكومة تحافظ على شـكلها فتعلن إن المال العـام اللي حضرتك أضريت بيـه كان في حدود مليون جنيه بالكتير وإلا تبقى الحكومة بتاعتنا مغفلة والأجهزة الرقابية كانت نايمة على ودانها في العسل..

حـاول الوزيـر المقاطعـة فأشـار وحيد لـه بكفه ليصمـت وتابع قائلا:

- لكـن الحقيقـة إن الحكومة لازم تخرج كسـبانة وعلشـان كده حتسـتفيد سياسـيا مـن محاكمتـك باعتبارك ابـن للنظام بـس بقيت مغضـوب عليـك، يعني تقدر تقـول إنك ابن غير شـرعي.. وممكن على أسوأ الاحتمالات تاخد حكم مخفف وبعدين براءة في النقض بعد ما تكون الناس نسـيتك وظهر ابن عاق غيرك من أولاد الحكومة وهلم جرة..

قالها وأطلق ضحكة عالية قليلا بينما ارتسـمت ابتسـامة واسـعة على وجه مسـاعديه، في حيـن راح الوزير يجفف عرقه الذي تفصد بغزارة من جبهته مندهشـا من بعض التفاصيل التي عرفها المحامي عـن قضيته، ومواطن الثغرات فيها التي راح مسـاعدا وحيد يتلوانها علـى مسـامعه، ثـم ارتعشـت شـفتاه وهـو يسـأل بصـوت خفيض ملتاعا:

- والحل إيه يا متر وحيد؟

- تروح لمحامي شـاطر يا معالي الوزير، قضيتك سـهلة وبسيطة ومضمونة..

قالهـا وحيـد بعيـون تلمع ببريق غريب شـل حركة الوزيـر تمامًا ولكن قبل أن تستغرق الدهشة كامل أبو الأسرار من رد وحيد حلمي عاجله الأخير بالضربة القاضية:

- لأ..لأ مـش اللـي جـه في بالـك خالص يـا معالي الوزيـر، أنا أتعابي في أي قضية موش أقل من خمسة مليون جنيه يعني حضرتك بتهمتك دي تتحبس أرخصلك..

تلـك المـرة انفجر وحيـد ضاحكا وشـاركه مسـاعداه الضحك بقـوة، حتى سـتيفي الذي كان يراقب المشـهد من الخلف اتسـعت ابتسـامته حتـى كادت تطـول أذنيه وانسـحب في هـدوء، وهو يكتم

ضحكته متيقنا أن وحيد حلمي قد كسب القضية، وأن الوزير أبا الأسرار سيدفع الملايين الخمسة صاغرا..

عندما استقر ستيڤي خلف البار كان مزاجه رائقا، تفحص «مانيفستو» الطلبات وهو يدندن وسرعان ما تحركت ذراعاه كالأخطبوط، وبدا كأنه لاعب سيرك يؤدي من الألعاب أخطرها فيحبس المتفرجون أنفاسهم وهم يتابعونه، تعلقت الأبصار به وهو يجهز ثلاثة كوكتيلات في وقت واحد يضيف مكعبات الثلج بعناية ويقطر الروم والفودكا بدقة ثم يضع بعض شرائح الليمون على إحداها وقليلًا من الصودا على أخرى.. جامل منضدة الشباب بثلاثة كئوس كبيرة من البيرة على الطريقة المكسيكية بعد أن رشها بالملح فارتفعت رغوتها وانتفخت فهدَّأها بقليل من الليمون.. أعجبتهم بعد أن خُدِعُوا بفورتها الكاذبة فرفعوا كئوسهم لتحيته وهم يشربون في نخبه حياهم كعادته بكوب الماء الذي يستقر أمامه ونصفه مملوء دائما، مطمئنا أنهم سيطلبون منها الكثير تلك الليلة.. كان اللواء نبيل الألفي ونديمه رأفت المواردي جالسين في مكانهما المعتاد على البار، كان رأفت يتابع ستيڤي بشغف وهو منبهر بأدائه ثم باغته متسائلا بدهشة:

– ازاي بتخلط مقادير الكوكتيل بالدقة دي وانت مش بتشرب أبدا؟!

صمت ستيفي متفحصا الجلوس حوله على البار فلمح فيهم آذانا صاغية متلهفة فرد بثقة لا تخلو من غرور، وكأنه قبطان خاض بحرا جسورا توقف الجميع عند سواحله رهبة وخوفا، جال ببصره بينهما وهو يقول بلغة عربية سليمة متقمصا دور المُعلم:

- المسألة بسيطة يا عزيزي فشارب الخمر ليس دائما صاحب مزاج، أنتم أقلية في هذا الزمان ولكن الأغلب الأعم من السكارى هاربون من شيء ما.. هم كالشخص الخائف الحبيس في مكان كئيب مغلق عليه وحده، وعندما تفتح له بابا يطل على حديقة لن يتوقف كثيرا أمام تنسيق زهورها، بل سيشكرك بحرارة، وبعد عدة كئوس من يدي أستطيع أن أقدم له أي شيء ملون بنقطة واحدة وأيضا سيشكرني.. أنا أعرف ذوق زبوني من عينيه، من حركات جسده، من توتره، من عصبيته ومن هدوئه، كل منهم له مشروبه وكل له طريقة في صنعه، نحن نعيش في فقاعة كبيرة الشاطر فينا هو من يخرج منها لينظر إليها من بعيد فيرى الآخرين جيدا ويقرأ أفكارهم ثم يعود ليلبي احتياجاتهم فيحقق لهم النشوة التي جاءوا من أجلها..

قال عبارته متنقلا ببصره بين منضدتين يضمان زبائن لا يشربون كثيرا، وإنما فقط يأتون لتناول كأس أو اثنتين مع العشاء وينصرفون مبكرا، وكأنه يثتنيهما من حديثه القادم ثم تقمص شخصية الفيلسوف أكثر مسترسلا لمستمعيه الجالسين على البار من

السكارى المنتشين، الذين بدا عليهم جميعا استحسان لما يقوله فأضاف بنبرة مسرحية:

- الناس يا بهوات زي الخمور فالشباب كالبيرة في فورته وانتعاشه والستات زي الفودكا تقرب منها وتفتكر انك سيطرت عليها، وفجأة تلطشك واحدة فتقع من طولك، أما شاربوا الويسكي فدول بيفكروني باللي بيقعدوا مع راجل مثقف حقيقي يسمعوا أفكاره وأراؤه لكن الصداع مش حيرحمهم بعدها، أما المفكرين وبتوع السياسة فدول بقى زي النبيت المعتق كل ما كبروا كبرت خبرتهم.

ثم تقلبت سحنته مائلة نحو القرف وهو يضيف:

- بس اليومين دول بقوا زي الكوكتيلات خليط كده من حاجات ملهاش دعوة ببعض بتبهرنا شوية، وبعدين تروح عليها زي الموضة بالظبط..

- وانت يا ستيفي؟!

أجاب باللغة الفصحى مرة أخرى، وبغرور وزهو يطلان من عينيه في خيلاء :

- أنا كالماء لا غنى عنه في أي وقت.. أنا موضة لا تنتهي أبدا يا رفاق..

***

5

الساقي

تمـوج النيل فجأة وكأنه يُطوى على نفسـه غضبًا من أناس تركوا سـيارتهم الفارهة، ونسـيم الكورنيـش العليل وترجلـوا صوب قبو ابتلعهـم في ثوان معـدودات ليستنشـقوا هواءً معلبا..اقترب شـاب غريب المظهر مع فتاته المتطرحة بغطاء فاقع لونه لا يسـر الناظرين فاعتليا مقدمة السـيارة ليكشـفا النيل بأبصارهمـا، التصقا ببعضهما ثـم غابا في إغمـاءة قبلة متوهجة مسـروقة من زمـن رديء، متمردة على التقاليـد ولكنها تفتقر إلى منطق قوي أوحجة مقنعة تسـاندها، فازدادت صفحة النهر تقلبا..!

هبطـت داليـا خليل درجات القبـو ببطء من جـراء كعب حذائها العالي حتى أتمت خمسًا وعشرين درجة فدلفت إلى الحانة لترتقي درجًا خشـبيًّا آخر ملتويًا على نفسه هبوطا، كانت خمرية اللون ريانة الجسـد صدرها المسـتدير هـو أبرز ما فيها، شـعرها فاحـم، عيناها واسـعتان جريئتان، يعلوهما حاجبان عريضان، كانت على مشارف

الثلاثين، تكتفي بابتسامة مبتورة أشبه بوميض الألعاب النارية سرعان ما تختفي، ترسمها دوما على شفتيها لتحيي بها من يتعرفون عليها، تتصرف على أنها نجمة مشهورة في مشيتها وحديثها. كَذُوبة دوما ولكنها غير ذَكُورَة مطلقا.. وقفت قليلا في مقدمة مدخل الحانة تجول ببصرها بين الطاولات حتى التقطت عيناها الحائرتان منضدة زينة التي ضمتها لجوقتها مؤخرًا حتى لا تتحرك من وراء ظهرها ولا تجذب انتباه أحد، فقد كانت زينة تغار منها فجعلتها تلعب دورا ثانويا أيضا في حياتها كما في أفلامها..

عندما دلفت داليا إلى الحانة مرقت بين الطاولات في طريقها إلى طاولة زينة، مرت بالقرب من البار الرئيس فلما لمحها اللواء نبيل رفع من صوته وكأنه يوجه حديثه لرأفت المواردي:

- بكرة تظهر عليها أعراض الكتابة كمان ونقرالها مقالات..

رمقتهما بنظرة ازدراء قاسية ومضت في طريقها، ما كادت تشرع في الجلوس حتى أمرتها زينة أن تجلس في مقعد آخر لتكون في مرمى بصر أحد ضيوفها حسبما خططت.. وجه داليا المرهق وكم المساحيق التي اعتلته أثارا استياء زينة كثيرا؛ فوبختها همسا وقبل أن تستمع منها لأعذارها بادرت الرجل الهدف الذي بدا بدوره مستعدا لما تقوده زينة إليه بعد أن التهم جسد داليا بعينيه عدة مرات:

- أصل داليا كان عندها تصوير بقالها أسبوعين علشان كده شكلها مرهق، بس لما عرفت مين ضيوفي الليلة صممت تيجي..

الحقيقة التي أخفتها زينة أن داليا لم تكن فنانة بالمعنى المعروف وإنما أقرب ما تكون إلى كومبارس متكلم اقتصرت حياتها الفنية على عدة مشاهد عابرة غالبًا ما كانت تظهر فيها في دور فتاة ليل مع أخريات أو عشيقة لزوج خائن، كل ما تفعله أن تقوم بإغراء بطل العمل الفني في مشهد وحيد يجمعهما في الفراش بينما تتنقل في حياتها الخاصة من فراش منتج إلى سرير مخرج لتؤدي نفس الدور طمعًا في مشهد أطول وأكبر على الشاشة أو لعلها تنطق بحوار بدلا مما تؤديه دوما من ضحكات خليعة، بعد أن يهمس البطل في أذنيها بكلمات لا يسمعها المشاهد لزيادة مساحة الإيحاءات الجنسية..

ظلت على حالها التعس لسنوات حتى ذاع صيتها منذ شهور قليلة عندما ظهرت في مشهد طويل نسبيًا مع أحد نجوم الكوميديا وأضاف لها كاتب السيناريو جملتين بعد أن أشبعت غريزته قبلها بليلة واحدة، فعرفها الجمهور وصارت الأغلبية تردد عبارتها التافهة التي نطقت بها في فيلمها الأخير، بعدها التقطها مخرج الإعلانات الشهير مستغلا وميض الشهرة الذي أحاط بها قبل أن يخفت فقد كانت وقتها تضيء بوهج للحظات كالشهاب وسرعان ما ستهوي

معتمة فلا تتبعها الأعين، التي كانت معلقة في السماء كي تراقبها، كانت الموسيقى قد ارتفع صخبها فهمست داليا في أذن زينة:

- عملتي إيه في موضوعي..

ربتت زينة على فخذها مطمئنة إياها ثم أطالت النظر في عمق الحانة، فهرع النادل زين إليها على الفور وسرعان ما هرول عائدا، وهو يسبق مدحت المعداوي بخطوتين..

لم يرفع مدحت بصره عن فخذي داليا البرونزيين اللامعين منذ الوهلة الأولى، أعطى أذنيه فقط لزينة بعد أن نادته غريزته فترك باقي حواسه تحوم حول داليا، كانت الخمر قد تمكنت منه فصار لسانه ثقيلا، ولم يعد يحسن تقدير المسافات فكاد يدفن رأسه في صدرها الناهض وهو يحادثها من شدة التصاقه بها، ابتسم لها في بلاهة وهو يصب كأسا له وأخرى لها، معطيا ظهره لزينة التي كادت تستشيط غضبا فقالت بلهجة مؤنبة:

- دي داليا اللى حتجيلك العيادة يوم السبت ومعاها الـ 5000 جنيه اللي طلبتهم..

تعمدت إحراجه فأتت خطتها ثمارها وابتلع مدحت الطعم متراجعا خطوة وذهنه مشوش حائر بين طمعه وغريزته حتى مالت كفة الأخيرة فقال مبتسما:

- أنا خدام الإنسانية من غير فلوس...

تعالت ضحكة مصطنعة من زينة وأخرى مبتورة يشوبها الأسى ويعتصرها الحزن من بين شفتي داليا، بعدها راحت زينة تعدل وتبدل من خطتها فطلبت من مدحت أن يشاركهما السهر على طاولتها فلم يتردد ثم أدارت رقمًا على هاتفها المحمول للاستعانة بصديقة أخرى بديلة ممن يتمنين السهر بصحبتها لتقدمها لضيفها الثري الذي بدا ضيقا عصبيا بعد ما استعد للمشاركة وهيأ غرائزه وحواسه كلها فطُلب منه في اللحظة الأخيرة أن يظل احتياطيا لمدحت المعداوي، وكأن زينة قد أمرته كقائد عسكري صارم يصيح في جنوده: كما كنت.. فالتزم!!

*****

بمجرد أن استقر الشيخ عبد الموجود في مجلسه على أريكة بالية حتى تفرس في وجوه الحاضرين ثم علا صوته بنبرة آمرة:

- إنت يا أخ محمود اقترب مني أكثر، والأخ علي تفضل واجلس هنا بجواره، أما أخونا المخضرم عثمان فليعد إلى الصف الخلفي.. تقدم يا عبد الوهاب لماذا تبدو شاردا مهموما خيرا إن شاء الله...

اتكأ عبد الوهاب على يديه وركبتيه ومضى يحبو متقدما الصفوف حتى اقترب من أمير جماعته فبدا وجهه ذابلا وعيناه تائهتين وهو يتمتم:

- لا شيء يا مولانا أنا بخير الحمد لله..

ظل الشيخ يعبث في مسبحته وهو يتفرسه بنظرات ثاقبة متمتما:

- لا يحمد على مكروه سواه على أي حال..

ثم أشاح عنه ومضى يلقي عليهم الدرس الأسبوعي عن تحريم مصادقة الأقباط أو تحيتهم أو تهنئتهم بأعيادهم، وحينها انفعل قائلا:

- فالمهنئ يتشبه بهم في عبادتهم، ونحن لا نؤمن بهذه العبادة أبدا و كل هذه الأعياد الدينية تخص أصحاب من يتبعون دينا غير ديننا، والدين عند الله الإسلام فلا يحل لنا تهنئتهم، وإلا نعد آثمين مشاركين معترفين بكفرهم والتهنئة هنا حرام..حرام.. حرام..

تطرق الدرس بعد ذلك إلى تحريم العمل بالحكومة بناء على سؤال من أحد مريديه. فأفاض في الشرح وقرب النهاية كان صوته قد علا وتشنج وجهه بعدما اندمج تماما فنفرت عروق رقبته زاعقا:

- ومن يعمل في وظائفها فهو آثم، ومن يدفع الضرائب لها فهو آثم، ومن يستحسن أداءها فهو آثم..هذه الدولة دار كفر تسن قوانين وضعية ولا تحتكم إلى كتاب الله أو سنة رسوله، وتعترف بالنصارى ولا تطبق عليهم الجزية وتتحالف مع الأمريكان والصهاينة..

مضى مسترسلًا مكملًا ما بدأه وقبل أن يختم درسه، رأى أنه من المناسب أن يعرج بالحديث عن أنهار الخمر بالجنة ليلطف وقع كلامه عن التكفير عليهم، ارتفعت يد أحدهم طالبا السؤال فلما أذن له الشيخ، سأله عن موقفهم من الانتخابات الرئاسية ولمن من المرشحين يعطون صوتهم.. أطلت ابتسامة ساخرة من بين شفتي الشيخ، وهو يجيبه باستنكار أقرب إلى اللوم:

- وهل من بينهم مرشح إسلامي يا أخ علي؟

قبل أن يتلقى جوابا من علي أو أقرانه أردف:

- هؤلاء علمانيون لا يطبقون شريعة الله، والإمامة لا تنعقد لكافر وإذا ما بايعت مبارك أو غيره فأنت أقرب للكفر من الإيمان..

ثم علت نبرة صوته محذرة مهددة تلك المرة وهو يضيف:

- بل لو رضيت بحكمه الجاهلي العلماني فتنطبق عليك الآية الكريمة: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ .. ومن ثم أنا أدعوكم بل آمركم بالمقاطعة فهذا من قبيل الإنكار بالقلب وهو أضعف الإيمان..

كانت الوجوه أمامه ناصعة مشرقة في أغلبها لشباب ناضر في عمر الزهور، يحملون قلوبا صافية بين ضلوعهم، ولكنهم باتوا كالعود الأخضر الذي صارعلى وشك أن يلتوي بسهولة على

الشـر؛ تقليدا أعمى لشيوخهم وأمرائهم، تراصوا على حافة التطرف يتأهبـون للانزلاق برفق فرادى وجماعات كالقطيع، تدفعهم عقول مغيبـة جوفـاء وثقافة منعدمـة فانطبع على وجوههـم تجهم وكأنهم شحنوا به وتغذوا عليه حتى امتلئوا وثملوا تمامًا..

قبيـل الختـام راح يقلـب في حقيبـة بلاسـتيكية سـوداء بجواره ليخرج منها أوراقا مطبوعة وكتبا قديمة، وهو يسـألهم عما إذا كانوا قد قرأوا ما وزع عليهم في الدرس السابق فأجابوه جميعا بالإيجاب عدا عبد الوهاب بدا مترددا، وهو ينقل بصره بينهم ولـم يرد..

- لماذا لم تقرأ يا أخ عبد الوهاب؟

قالها الشيخ بنبرة مؤنبة.. أجابه وهو يتلعثم قليلا:

- الحقيقة أنا بدأت ولم أنته بعد بسبب كتاب آخر جذبني وأردت أن اكمله..

زام الشيخ وهو يصوب بصره نحوه أكثر:

- إذن فلتقل لنا عنوانه ونبذه عنه لتعم الفائدة...

ارتاحت قسمات عبد الوهاب وهو يجيبه بجزل الأطفال:

- قصة الفلسفة.. وكأن الشيخ قد لدغه عقرب صغير فقد انتفض وسـرعان مـا لملم نفسـه متظاهرا بأنـه يعتدل في جلسـته، ولاحت ابتسامة صفراء واسعة على شفتيه ولم يعلق ثم أنهى درسه كالمعتاد

بالدعـاء علـى اليهود والنصـارى ونصـرة المجاهدين فـي كل بلاد المسلمين، وهم يرددون خلفه: «آمين» بعد أن حصروا تركيزهم في نهايـة الجملة دون تدبير في مضمون الدعاء نفسـه، ثم سـلموا عليه جميعا مستأذنين في الانصراف..

انتظر يا أخ عبد الوهاب أريدك في أمر خاص..

كانت نبرة صوت الشيخ آمرة أكثر منها راجية فدفس عبد الوهاب ذيـل جلبابه من مقدمته بين فخذيه، وعاود الجلوس فلم يكن معتادًا علـى ارتـداء الجلابيب إلا وقت الدروس فقط، وكثيـرا ما تعثر فيها ويسـببها، تقلبت ملامح الشـيخ حتى تجهمت تماما وهو يحدق في وجه عبد الوهاب الطفولي قائلا بحدة:

- هل تحب دينك؟

بنبرة لا تفتقر إلى الدهشة أجابه:

- نعم.. وإلا لماذا أنا هنا؟!

- هل تؤمن بالعقائد والغيبيات والمقدسات؟

- طبعا يا مولانا هذا أمر لا يحتاج إلى سؤال؟!

قالها عبد الوهاب وهو يبتسم في تبسط..

- هل ترضى أن يشكك أحد في ديانتك ومعتقداتك؟..

راحت الابتسامة من وجهه وهو يجيب:

- بالطبع لا أقبل.

- وما رد فعلك إذا ما شكك أحدهم في ديانتك أو في البديهيات والحقائق المعلومة لنا بالضرورة؟

ارتسمت ملامح الجدية على وجه عبد الوهاب قائلا بحماس: أتصدى له بكل قوة كما علمتنا وأناقشه وأحاول أن.....

قاطعه شيخه بحدة:

- بل تقتله إن استطعت..

تراجع عبد الوهاب برأسه قليلا وقد بهت من الجملة فأردف الشيخ:

- هذا كافر ومرتد لا استتابة له ويجوز قتله شرعا.. اسمعني جيدا يا عبد الوهاب أنت طيب القلب، ولكنك ضيق المعرفة قليل الخبرة فالفلسفة التي تقرأ فيها تقوم والعياذ بالله على الشك ثم تسري في وجدانك وتتملكك عندما تتعلم الشك في المعتقدات والعقائد والبديهيات التي تحبها وتؤمن بها وتقدسها.. هذه فرية اخترعها الغرب وروج لها وتبعه فيها العلمانيون عن جهل ثم عن عمد؛ ليضعوا لنا السم في العسل، فحق عليهم قول ربهم فمضوا في ضلالهم يعمهون.. صدق الله العظيم.. رددها خلفه عبد الوهاب دون أن يفهم معناها ظنًّا منه أنها آية كريمة وهو يشعر برعشة تدب

فـي أوصالـه لم يفلح فـي التغلـب عليهـا وزادت وتيرتها مـع بريق نظرات شـيخه وكأنه يؤججها.. ثم ابتسـم الشيخ ابتسامة حانية وقد اكتست نبرة صوته بود وهدوء:

- دعنـا الآن مـن الفلسـفة وقل لي مـاذا بك؟ أنـا أكاد أجزم أنك لست على ما يرام..

ظلـت عينـا عبد الوهـاب تلك المـرة تلمعان بدموع حبيسـة لم يقـو علـى مقاومتهـا طويلا، فانهمـرت كالسيل فجأة أمـام نظرات شـيخه الناريـة الثاقبة الذي لا يـكل من إطلاقها صوبـه كل فترة، ثم احتضنـه بقوة وهو يربت عليه بكفيـه الكبيرتين ويتمتم بعبارات غير مسموعة، مستعيذا من الشـيطان الرجيم، بينما عبد الوهاب ينتحب بصوت مكتوم؛ لينتفض جسـده السـمين بشـدة، ولم يتركه الشـيخ عبد المـوجـود إلا بعـد أن هـدأ تمامـا وروى له بالتفصيـل قصته مع مريم من البداية آملا أن يضع شيخه نهاية لها.!

*****

صعدت مريم الدرج في تكاسُلِ سيدةٍ عجوز حتى ارتقت سطح بيتها، واقتربت من كشـك الحمام الخشبي، وهي تتأمله كعادتها في ضيق.. تخيلت لوهلة أن الطير يكاد ينطق، كانت إحداها ترفع رقبتها في حركة عصبية مفاجئة وتشـدها للـوراء قليلا ثم تميل بعنقها جهة اليميـن تتفحص مريم بعينها الدقيقة ثم تخفض منقارها بغتة وتعاود

التقاط الحبوب في حذر، اقتربت مريم منها أكثر فأبطأت الطيور من حركتها وصارت أكثر حذرا، دبت مريم بقدمها بشدة فجأة، تزحزت حمامتـان للوراء قليلا ورفرفت أخرى وهي واقفة، أطلت من عيون الطير دهشة عارمة أو هكذا خُيل لمريم فعاودت الكَرَّة لتحثهم على الطيران فباحوا لها بهديل مكتوم أشبه بنواح العاشقين، ولم يحركوا ساكنا، وكأنهم فقدوا القدرة على التحليق وصاروا طيورًا داجنة وبدا التحليق كأنه مُحِيَ من ذاكرتهم تماما، جن جنون مريم فراحت تدب بكلتـا قدميهـا في عصبية ولكن الطير أبى أن يبـرح مكانه، والتصقوا بعضهم ببعض ثم تسـمروا في مكانهم وهم يميلون برقبتهم قليلا.. شـعرت لوهلة أنها تكاد تفهم هديلهم.. كأنهم يقولون لها في أسـى إن حالك من حالنا فلماذا تُصرين على نكء جراحنا..؟!

زفرت وتنهدت في يأس فلمعت عيون الطير ورفرف في موضعه وكأنه يواسـيها فترقرقت دمعة في عينيها ثم جـرت قدميها الثقيلتين جرا حتى ارتكنت على السور، واتكأت برسخيها عليه كانت شعائر صـلاة الجمعة قـد انتهت، قفـز إلى ذهنهـا فجأة مشـهد المغادرين لقداس الأحد، الوجوه واحدة كلها متشابهة تخشع لدقائق معدودات وسرعان ما تعود لطبيعتها وكأن شيئا لم يكن..

ابتسـمت في شـجن وهي تلمـح أباها مـن بعيد يغادر المسـجد بعباءتـه البنيـة الداكنـة الشـهيرة، وطاقيتـه البيضـاء ذات الفتحـات

الضيقة.. تذكرت عندما كان يصطحبها وهي شابة لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها كل أحد لصلاة القداس الأسبوعي مرتديا بدلة سوداء متحررا من رابطة العنق كعادته، كان حريصا على حضور القداس مثل حرصه على صلاة الجمعة التي لا يؤدي غيرها، لمحت على مقربة منه جارهم النقيب بالقوات المسلحة، وهو يخترق صفوف المغادرين بزيه المموه ليلتصق بأبيها محييا إياه بحرارة، غابت ابتسامتها وحل محلها الضيق يزاحمه التوتر وهي تراقب أباها محاولة أن تستشف من إيماءاته وحركات جسده ما يريح قلبها ويزيل عن كتفيها همومَ الخلاص من هذا الشاب الصبور الذي لا يكل ولا يمل أبدا ويصر على هدفه بإلحاح غريب فلم تفلح، فقد كان ستيفي مرحبا ودودا محتفظا بابتسامة بلاستيكية يشهرها في وجه الجميع بلا استثناء، تحسست صليبها الذهبي الذي ورثته عن أمها والمُدَلَّى من رقبتها حتى منتصف صدرها، والتي تحرص على خلعه قبل مغادرتها المنزل خوفا من أن يلحظه أحد خاصة عبد الوهاب.. إلى متى ستظل تعبد ربها في الخفاء وكأنها خطيئة أن تتمسك بديانتها التي فطرت عليها، توارت خلف ستائر خوفها وسرت رعشة خفيفة بيدها فتشبثت بأناملها بطرف الصليب من فوق ملابسها؛ لتحتمي به وضغطت عليه بقوة وراحت تتمتم بصوت مسموع : **كثيرون في دور العبادة بأجسادهم.. قليلون مع الله بقلوبهم..!**

*****

كعادته كل جمعة كان ستيفي يحتفظ بعملات ورقية فئة الجنيه، يوزعها بانتظام عند باب المسجد على الشحاذين الذين تنشق الأرض عنهم فجأة، صافح من حوله من المصلين وهو يغادر مغلفا بدعواتهم ثم ترجل مخترقا شارع القسم عارجا نحو حانوته، لدهشته كانت زوجته منيرة قد سبقته وأيضا غالبية صبيان المحل، ألقى السلام عليهم مستفسرا عن مكان أدائهم صلاة الجمعة فأجابته منيرة بلهجة حازمة:

– أنا فرشتلهم وصلُّوا هنا جماعة عندنا شغل كتير النهاردة، تعالى يا منير على المكتب أنا عاوزاك في كلمتين...

مضى خلفها صاغرا وهو يقبض على ذيل عباءته بكفه في عصبية مكتومة طالبا من أحد صبيانه أن يجهز له الشيشة ومقعدًا خشبيًّا أمام المحل..

– إنت سحبت امبارح 6000 جنيه من الخزنة وكتبت في الدفتر انها مصاريف دعاية، بتوع إيه دول؟ جوازة عرفي جديدة؟!

تنحنح ستيفي ثم أجاب بعينين زائغتين:

– ما انا مضيت في الدفتر اني أخدتهم.

– أنا مش بسألك مضيت ولا لأ.. أنا بسأل في إيه صرفتهم؟ ودعاية إيه دي؟

حلت لهجة منيرة العصبية عقدة لسانه فأجابها على الفور:

- مصاريف انتخابات رابطة العاملين في غرفة السياحة.

مطت شفتيها في امتعاض ودونت شيئا في الدفتر أمامها قائلة في نبرة حاسمة دون أن تنظر إليه:

- أبوعدنـان قالي كده برضـه وأنا اتفقت معـاه إن لو طلع كلامه صح حتتحملهم مـن نصيبك لوحدك، الانتخابات دي ملناش دعوة بيها..

- الانتخابات دي لو كسـبتها حفضل في شغلي والشغل بيجيب فلوس، والفلوس بشتري بيها بضاعة للمحل وأنا...

لم تمهله منيرة في الاسترسـال وتركته مغادرة إلى أسفل، منادية أحـد صبيانها وسـرعان ما علا صوتهـا عندما لاحظـت تغيير مكان عرض العباءات جاءها رد العامل خفيضا:

- الحـاج منيـر هـو اللـي طلـب كـده امبـارح يـا حاجـة وانـا عبد المأمور..

اخترقت أذنيه عبارتها المنطلقة كالسهم الناري:

- رجعوا كل حاجة في مكانها..

مرت سـاعة وهو جالس يدخن شيشته في هدوء والعمل يسـير علـى قدم وسـاق، من خلال منيـرة التي لا تكف عن إلقـاء أوامرها

بحـدة وعصبية وحزم طوال الوقت.. مضى يتأملهم وهم يباشـرون أعمالهـم.. أخـرج دخانـا كثيفا من أنفه وهو يهز رأسـه متسـائلا مع نفسـه.. لمـاذا لا يكونون على نفـس القدر من النشـاط والإخلاص فـي العمل عندما تغيب منيرة؟ لم يشـك لحظة فـي إخلاصهم له أو طاعتهـم لأوامره ولكنهم يتراخـون قليلا معه بينما ينتفضون لمجرد رؤيـة منيـرة أو أبي عدنـان.. تدب فيهـم روح مختلفـة يغلب عليها الخـوف والخنوع بينما تشـع نظراتهم بطمأنينة فـي وجوده رغم أن شـريكيه ليسا ودودين مثله، هل أخطأ بتدليلهم أم أنهم يرونه ضعيفا لصبره على سـخافات منيرة وشـريكهما الثقيل أبي عدنان؟! كبرت علامات الاسـتفهام في رأسـه وتربعت علامات التعجب أمام عينيه فأعيتـه على الفهـم وأفقدته القدرة على الرؤية فاسـتمر ينفث دخانه لتتكون سحب متقطعة متراصة فوق رأسه أشبه بتيجان كبيرة عريضة وكأنهـا تتوجـه للحظـات على عرشـه فينتشـي من داخله وسـرعان ماتـزول وتتبخـر فـي الهـواء.. قطعـت منيرة حبـل أفـكاره بصوتها المبحوح وهي تقبض بكفها على ظهر مقعد خشبي لتجلس بجواره قائلة بنبرة لا تخلو من الحدة:

- إنت ليه مش بتفاتح مريم في موضوع العريس؟..

نفـث دخانـه في وجههـا وكأنه يحـاول أن يبعدها عنـه ضيقا بها وبأفكارها، فلم يكن لديه ما يقوله بعد أن رفضت مريم أكثر من مرة

مجرد لقاء هذا النقيب الشاب الذي يعمل ضابطا بالقوات المسلحة، ويريد أن يتزوجها عن قناعة بأنها طيبة وجميلة وملتزمة دينيا، ولكن المشكلة أنه مسلم ولا يعرف حقيقة ديانتها بعد، ولم يجرؤ ستيفي على مصارحته ولم يستطع أن يضغط على مريم لتغير ديانتها، فقد كانت تتمسك بها بشدة.. ظل يتفرس وجه منيرة ولا يجيب ويهز رأسه مستنكرا، فبادرته وهي ترفع أحد حاجبيها كعادتها:

- انت بقيت زي الحيطة المايلة في كل حاجة، لو مش قادر تتكلم معاها سيبهالي وانا اخلص الموضوع كله في يومين اتنين، انت اصلك مدلعها ومش عارف...

أشار لها بكفه بأن تصمت ووضع الشيشة جانبا وهو يقول بصوت ضعيف متردد :

- احنا متفقين من أول يوم انك ملكيش دعوة بمريم ابعدي عنها وهيه تعمر، أنا حتصرف معاها بطريقتي..

فجأة ظهر أمامه أبو عدنان وبصحبته رجل في ملابس مدنية لا تنبئ سحنته بأي مودة رمق منير بنظرة ثاقبة ثم تجاوزه دون أن يحييه متتبعا أبا عدنان ومنيرة إلى الطابق الثاني وسط ترحيب مبالغ فيه من صبيان المحل، وسرعان ما لحق بهم منير دون أن يدعوه أحد..

- بس الكمية دي كبيرة يا باشا 10.000 طرحة و5000 عباية، واحنا تجارتنا صغيرة وفي تجار غيرنا في السيدة..

أشعل الرجل سيجارة في برود بعد أن فرغ من تناول الشاي وهو يستمع إليهم، وجال ببصره بين ثلاثتهم ثم وجه حديثه لمنيرة:

- مرشح الحزب عن العمال محتاج أصوات كتيرة ومحدش حيقدر يعمله حاجة غير الجماعة دول لأنهم منظمين وعندهم كتلة تصويتية، وبعدين دي أوامر عُليا يا حاجة ولو مش عاوزة انتي حرة ذنبك على جنبك..

وأردف وهو يهم بالقيام:

- بس محدش منكم يجيلي القسم يعيط بعد كده ويقولي المحل انسرق ولا اتحرق..

استمهله أبو عدنان برفق ليجلس طالبا منه أن يكون رحيما بهم فنحاه الضابط في غلظة قائلا بخشونة:

- وهو انا يعني كنت حاخد منكوا البضاعة ابيعها، ما هي حتروح للبيوت اللي رجالتها حتصوت لمرشح الحزب، وكله مصلحة ليكم..

أنهى عبارته وألقى ببقايا سيجارته على الأرض بعدم اكتراث وغادر بعد أن أمهلهم أسبوعين لتدبير الكمية المطلوبة... زفرت منيرة في ضيق، بينما راح أبو عدنان يسب ويلعن في الحزب

والانتخابات والمرشحين، في حين كتم ستيڤي ضحكة تشف نابعة من أعماقه، ولسان حاله يكاد ينطق..

- **ناس تخاف ولا تختشيش.**

ثم أخرج هاتفه شارعا في إجراء اتصال بالعقيد حسين عناني، بينما انشغل أبوعدنان ومنيرة في البحث عن فائدة عاجلة مستحقة نظير هذه الجزية التي فرضها الضابط عليهما واختلفا فيما بينهما هل تكون تهربا ضريبيا، أم جمركيا؛ ليعوضا خسائرهما إلى أن انضم ستيڤي إليهم فاتفقوا ثلاثتهم على أن تشاركهم الدولة في مصيبتهم بنصيب الأسد فتهربوا من الضرائب المستحقة عليهم، وأدخلوا بعدها بضائع كثيرة بدون جمارك، ثم حرصوا يوم الانتخابات البرلمانية على المشاركة بحماس والتصويت لصالح مرشح الحزب، وكأنهم يوقعون بأسمائهم بسجل التشريفات لإمارته الجديدة على حي السيدة زينب مهللين شاكرين.

*****

كان صابر منتفخ الأوداج بالطموح والأمل في بيت وزوجة وأطفال ومستقبل مشرق وبعد أن امتلأت جيوبه صار بخيلا، يائسا، محبطا أكثر مما كان، فجبن على أن يخطو خطوة أخرى نحو استقراره بعد أن أعماه الطمع، كعادته حين يتحدث يتجنب النظر في وجه محدثه كأنه يتحاشاه، ينفعل بلا مبرر فجأة ويتلعثم

أحيانا فيضغط على مخارج ألفاظه وهي تنساب ببطء من بين شفتيه الرفيعتين.. غادر بيت أسرة خطيبته لا يلوي على شيء، مضى شارد الذهن بعد أن عادت مفاوضاته معهم إلى نقطة الصفر قرر وقتها أن ينهي الموضوع برمته ولكن دون مواجهة صريحة.. يختفي من حياتهم، لن يرد على اتصالاتهم ولن يجلس معهم.. كأنه لم يكن، ارتاح لهذا الحل وشعر بأنه تخفف من حمل ثقيل كان يجثم على كتفيه.... أصابه سعار مفاجئ ووجد أنه سوف يضحي بحياته وحريته دون أن يحقق ما يضمن مستقبله..طلب من أهل خطيبته تأجيل الزواج ثلاثة أعوام على الأقل حتى يشتري التاكسي ويسدد أقساطه فهو يخاطر في مغامرة كبيرة إن ظل يتاجر بالمخدرات وهو متزوج وقد يرزق بطفل.. لم يقو على شرح ما يجول بخاطره من هواجس ومخاوف ومشاعر متباينة وأفكار مشوشة، فبدا مرتبكا للغاية فذهب غير مأسوفٍ عليه..

في الطريق انتابته صحوة ضمير مفاجئة لم يكن قد عمل حسابا لها فاستدعت دموعه على عجل؛ لتكتفي بدورها بالترقرق في عينيه دون أن تنهمر، واكتفى هو بهذا القدر منها متملصا من الصحوة المباغتة متعمدا دفنها بأعماقه هاربا إلى ترسيخ أقدامه على أرض واقعه.. أفاق على رنين ملح من هاتفه أخبره المتصل بضرورة حضوره إلى عنوان محدد بشارع 26 يوليو بالزمالك، فانطلق على

دراجته البخارية إلى طريقه المختار والهواء البارد يلفح وجهه بعنف حتى كاد يغمض عينيه من شدته، فلا يرى الطريق أمامه بوضوح.!!

تأمل لافتة المحل القديمة التي تحمل اسم «أبو عيدة» بحروف بارزة كبيرة ثم دلف في ثقة، استقبله أحد رجاله في غلظة فتبخرت ثقته على الفور ثم اصطحبه إلى الدرج الخشبي المؤدي للقبو الصغير أسفل المحل، هناك و بسهولة شديدة استطاع أن يتعرف على أبي عيدة من وسط الجمع الذي كان يحيط به من رجال متفاوتي الأعمار والأشكال، كانت له هيبة ملحوظة وهالة تحيط به رغم قصر قامته وترهُّل جسده، وقف ينتظره على مقربة حيث كان أبو عيدة يتفحص بدقة جيبًا علويًا لجلباب يرتديه رجل متوسط العمر نحيف كالبوصة ومبتور الذراعين تماما، كان الجيب عريضا للغاية يكاد يغطي مقدمة الصدر..

رجع أبو عيدة خطوتين للخلف فبدا كفنان يتأمل لوحته قبل أن يضع عليها لمسته الأخيرة.. ساد صمت وترقب لثوان ثم تقدم أبو عيدة وملأ الجيب بأوراق نقدية متنوعة حتى صار مكتظا تماما ثم طلب من أحد مساعديه أن يحصيها..

- 150 جنيه يا معلم..

هز أبو عيدة رأسه غير قانع طالبا توسيع الجيب أكثر ثم التفت إلى صابر فجأة رامقا إياه بنظرة ميتة باردة، علا من الخلف صوت أحد رجاله:

- ده الواد صابر اللي بعته المورد علشـان يوزع في الزمالك كلها بحري وقبلي..

تجاهلـه أبو عيـدة متوجها إلى خارج المحـل فلحق به صابر بعد ثـوان وهـو يلهث من جراء ارتقائه درجات السـلم علـى دفعتين في لهفـة متوجسـا خيفـة أن يرفض التعامـل معه.. كان صابـر قد رغب فـي مضاعفة الكمية التـي يوزعها بعدما زاد عـدد زبائنه، وأن يعمل منفـردا فأبلغه المورد أن الزيادة والكلمة العليا من اختصاص رئيس المنطقـة الـذي لـم يكن سـوى أبي عيدة نفسـه فهو يمارس أنشـطة متنوعة ولا يظهر إلا وقت الضرورة فقط..

- روح دلوقتـي وتعالالـي بكـرة فـي نفـس المعـاد أكـون قلِّبت الموضوع في دماغي..

قبل أن يفيق صابر من برودة اللقاء عاجله أبو عيدة بكلمتين وأدتا كل محاولاته في استكمال النقاش:

- مع السلامة.

*****

فتح فؤاد عينيه ببطء كان رأسه ثقيلًا للغاية، وجد نفسه ممددًا في فراشـه يرتدي ملابسـه كاملة بلا حذاء، أصابته الدهشـة فاعتدل في مرقـده وهو يفرك عينيه بقوة وكمن لدغه عقرب انتفض فجأة متجها نحـو سـترته المعلقة بالقـرب من سـريره، وهو يلهج مـن الانفعال والتوتـر، عبثـت أصابعـه في عصبية بجيوبها وسـرعان مـا ارتاحت

قسـمات وجهه فعاد بخطى بطيئة هادئة إلى فراشـه ممسـكا بحافظة نقوده التي كانت سـليمة لـم تمس، تنهد بعمق فقد ظـن أن الفتاتين قد سـرقتا الحافظة وهربتا، جال ببصره فـي الغرفة كانت مرتبة وكل شـيء في موضعه، لاحظ وجود ورقة بيضاء كبيـرة موضوعة بعناية في مرمى بصره على منضدة قريبة التقطها مبتسمًا، وهو يقرأ ما دُوِّنَ عليها بأحمر شفاه قانٍ، كانت تحوي رقم هاتف وأسفله قبلة مطبوعة من شـفاه رفيعة وتحتها توقيع يقرأ.. فؤادة.. ضحك على سـخريتها من اسـمه ثم طوى الورقة بعناية في حافظته.. اطمأن إلى أن المنزل لم يُسـرَق منه شـيءٌ، ثم هرول إلى غرفة والدته إثر سـماعه سعالها وذهنه مشـغول بصاحبة القبلة.. يا ترى كانت أي فتاة منهما؟! أعان والدته المسنة على دخول دورة المياه بعد أن وبخته لتركها ساعات طويلة مع هاجر..

- دي بنت عبيطة يا فؤاد وبتضحك من غير سـبب شـوف غيرها أرجوك..

وعدها بأنه سـيتدبر الأمـر قريبا ثم نظر في سـاعته كانت تقترب من الواحدة ظهرا، فأخذ دشًّـا بـاردًا وارتدى ملابس خفيفة متوجها كعادتـه لنادي الجزيرة ليلعب الجولـف، في طريق خروجه انحرف يسـارا نحو غرفة البواب محروس كان بابها مواربا دفعه برفق فلمح سـاقا أبنوسـية رائعة وأنامل رقيقة تمتد لتنزع أشواكه، اتسعت عيناه وهو يتأمل فخذي هاجر بعد أن انحسر عنهما سروالها، تنحنح قليلا

فانتفضت من قرفصتها فزعة، وهي تشهق محاولة مداراة ابتسامة خجل أنثوية قفزت لشفتيها فجأة، عبثت بيدها عن طرحتها مثبتة بصرها على وجهه، وهو لا يبرح مكانه ويبتسم في رضا كمن أعجبته لوحة فقرر اقتناءَها بعد أن تأملها مليًّا، واستقر على الجدار الذي سيعلقها عليه..

استدار فؤاد بعد أن تطرحت هاجر متعمدًا أن تحمل نبرة صوته بعضا من الجدية والصرامة:

- **اطلعي يا هاجر بسرعة، ماما لوحدها...**

عندما خرج من الغرفة وجد محروس فجأة في مواجهته وقد تجهمت ملامحه، وهو يتفرس وجه فؤاد في ضيق ومن خلفه باب الغرفة مواربا وخيال هاجر يتحرك وراءه فيثير هواجسه أكثر..

- **لما تعوز حاجة يا فؤاد بيه ابقى ازعق عليا..**

ربت فؤاد على كتفه وكأنه ينحيه عن طريقه جانبا ولم يرد وانصرف بخطوته البطيئة غير عابئ بالبركان المتقد في صدر محروس.. لم تمض لحظات حتى كان صوت صراخ هاجر يملأ فراغ المدخل ومحروس ينهال عليها ضربا بلا رحمة، ولما سألته زوجته عن سبب ضربها لم يجد ما يجيبها به فلم يكن يعرف ماذا حدث، ولكنه يدرك جيدا ما يمكن أن يحدث فاستبق الأمر، وعاقبها ليردعها قبل أن تسول لها نفسها أمرًا..

- إنـت يـا حيـوان، انت فاكر نفسـك لسـه فـي زريبـة بلدكم؟!

خـرج محروس ليسـتطلع الأمـر، فوجـد مدحت المعـداوي الذي كان في طريقـه لعيادته وراءه الصياح والصراخ المنبعث من حجرة محروس الذي تسـمر بدوره أمام مدحت في تحدٍّ متحفزا ولم يرد، فعاود مدحت سـبه مهددا إياه بطرده من الخدمة فزفر محروس وهو ينظر إلى السقف العالي مرددا في ضيق:

- اللهم طولك يا روح..

لم يكد يكمل جملته حتى هوت صفعة مدوية على صدغه طرحته أرضـا، فلـم يكـن يتوقعها وهو يقـف متراخيا، وفي ثـوان قليلة كان النوبـي الذي أقبـل على عَجَلٍ يحول بينهما بجسـده الفارع الضخم دافعًا محروس بغلظة في صدره وهو يكتم فمه ليتوقف عن السباب لمدحـت ويلكزه بعنف فـي صدره حتى أغلق عليه باب حجرته، ثم هـرول خلف مدحت الـذي توتر قليلا يرجوه المغفـرة والعفو بينما الطبيب الغاضب يردد بالفرنسية مستنكرا:

c, est. Impossible ces animaux la.

ثـم صفق بـاب المصعد فـي وجه النوبـي في طريقه إلـى عيادته لإجراء عملية الإجهاض لداليا خليل..!!

*****

لـم ينقض أسـبوع على حـوار سـتيفي ومنيرة بمحـل الملابس، والذي أنهاه كأسـد هصور بجملة باتـرة لحديثها عن زواج مريم من جارهم الضابط، حتى عاد كعادته معها وقد رضخ واستسلم، دبرت منيرة كل شـيء واسـتعد البيت كله لحضور العريس المنتظر ضابط الجيـش الشـاب الملتزم بعـد أن فاتحت منيـرة أمه معلنـة موافقتها المبدئية، ودعوتهما لجلسة تعارف بسيطة..

أغلـق سـتيفي باب غرفتها خلفـه برفق، وهو ينظر إليها وينكسـر بصره إلى أسفل رغما عنه أمام نظرات مريم القوية المتحدية.. شعر لأول مـرة بأنه يتأرجح بيـن ديانته الأصلية وتلك المكتسـبة، ينبض قلبـه بحنين للمسـيحية التي كانت تمنحه حرية أكثـر من القيود التي فرضتها عليه ديانته الجديدة، وإن كانت قد أضفت عليه هالة ووقارًا بلقب الحاج الذي اكتسبه بدون أدنى مجهود أو سعي!! اقترب ببطء من فراش ابنته وهو يتحسـس بيده سـجادة صلاة طويت بعناية على منضدة خشـبية عالية مرتاحًا لملمسـها الناعـم، وكأنها وضعت في موضعهـا لتزين الغرفـة لا لتنير قلب مريم، فلم تكن تسـتخدمها إلا فـي التمويـه على منيرة زوجـة أبيها فقط.. ظل يحرك كفه المنبسـط في خفة حتى تعثرت أصابعه بجسـم صلب أسـفلها قلبها برفق كان صليـب مريـم مطويا بعناية علـى قلادتها، وضع يـده عليه وأغمض عينيه لوهلة، وكأنه يمسح هاجسًا من ذاكرته ثم خرجت كلماته على استحياء تتوارى خجلا أمام صلابة موقفها:

- معلـش اسـتحملي واصبري حتعـدي زي كل مـرة.. الصبر.. الصبر.

- ليـه دايمـا الصبر مـن نصيبي أنـا.. ليـه محدش بيصبـر عليا.. أنـا بقيت حاسـة اني بعيش بشـخصيتين واحدة بتظهر مسـلمة والتانية....

لـم يجعلهـا سـتيفي تكمـل عبارتهـا وضـع يـده علـى شـفتيها واحتضنها برفق فاستسـلمت وانكمشـت بين ذراعيه، وهي تجهش بالبكاء ظل جسدها ينتفض وعقلها يموج بالحيرة حتى عجزت عن التفكيـر والتدبيـر، فأغمضت عينيهـا الدامعتين وهي تسـير بجواره ببطء حتى وصلا إلى دولاب ملابسـها ليختار لها زيا مناسـبا بأكمام طويلة كالمعتاد؛ حتى تلقى عريسـها فبدت كعروس النيل التي تزف إلى النهر في احتفالية كبيرة وفرحة عارمة من الموجودين، رغم أنها ستلقى حتفها بعد قليل...!!

دُفعـت ضلفتـا البـاب كأنهـا ريح صرصـر لتظهر منيـرة بوجهها المتجهـم المؤنـب لكليهمـا علـى تأخرهمـا فـي ارتداء ملابسـهما ترقبا للضيـف الذي دفعته منيرة دفعا في طريق مريم؛ لتتخلص منها بالـزواج، بـدت منيرة فـي عيني مريم كملـك الموت وهـي ترمقها بنظرات حادة تجلد جسـدها بسـياط اللوم.. أخفى ستيفي الصليب والقـلادة في جيبه بحركة لا إرادية، وبادلتهـا مريم النظرات بأخرى حزينة شـاردة مستسـلمة لقدرهـا ولكن في لامبـالاة.. راحت منيرة

تتقدم نحوهما بخطوات بطيئة وهي ترسم ابتسامة صفراء وتبسط كفيها بطرحة حريرية سوداء كاشفة عن أسنانها ذات المفرق قائلة:

- جبت لك دي هدية الفاتحة وفستان فرحك برضه حيكون هدية مني..

أغمضت مريم عينيها بشدة لتحبس دموعها التي تدافعت وراء الجفون كالسيل الضارب في السدود والطرحة السوداء لا تفارق مخيلتها كأنها كفنها.. غادرت منيرة الغرفة فربت ستيفي على كتفها في حنان متأثرا:

- هانت كلها ساعتين وتقلعي الحجاب.. شوية صبر علشان خاطري..

ارتدت مريم الطرحة في هدوء وبحركات آلية مرتبة، وكأنها خاضعة لتنويم مغناطيسي ولسان حالها يكاد يصرخ:

- غيثيني يا عدرا..

كانت لا تريد خلع طرحتها فقط، وإنما تتمنى أن تخلع أوهامًا كثيرة من مخيلة من حولها وتلقيها بعيدا؛ ليتأملوا معها الحقيقة الغائبة..!

******

عندما وصلت فدوى لمنزلها بمدينة الرحاب نحو الخامسة والنصف صباحًا عائدة من سهرة صاخبة بالحانة مع سعيد النحال..

خلعت حذاءَها بالصالة وهي تترنح في مشيتها من تأثير ما احتسته من خمور، ثم دلفت إلى دورة المياه اغتسلت وغمرت وجهها بالماء البارد عدة مرات ثم أعدت لنفسها كوبًا كبيرًا من القهوة، وأشعلت سيجارة وجلست في ركن مظلم ساكنة تحتسيها وتدخن.. قرب السادسة صباحا دخلت إلى غرفة نوم ابنتها الصغيرة ذات الأعوام التسعة فأيقظتها برفق وربتت على شعرها في حنو ومسحت وجهها وقبلتها، ثم عاونتها على النهوض ودخول دورة المياه فقد كانت تعاني من شلل أطفال أصاب ساقها اليمنى ولم تبرؤ منه، أعدت لها حقيبتها المدرسية وبعضا من ثمار الفاكهة ثم اصطحبتها حتى استقلت سيارة المدرسة ووقفت أمام البيت تلوح لها بكفيها حتى غابت عن بصرها تمامًا..

مضت بخطى متثاقلة حتى ألقت بنفسها على فراشها منهكة من الشراب والسهر والتفكير، عادت كلمات عزة الجارحي رئيستها الجديدة بالإدارة البنكية تلح على عقلها كذبابة سخيفة لا تيأس كلما طردتها تعود لتقبع أمامها في تحد..

– ليه يا فدوى ميمضيش على طلبات السحب والتحويل قدامك.. مراته عندها حسابات بملايين وهو الوحيد المستفيد، لازم نتأكد ان ده توقيعه فعلا..

أشعلت سيجارة رابعة والساعة تقترب من السابعة وهي لا تزال بملابس السهرة وحديث عزة يمر أمام عينيها كقطار سريع بعربات

كثيرة، كانت تثق في سعيد أكثر من نفسها ثم إنه سلمها توكيلا تسحب بمقتضاه من حسابه وتسلمه له نقدا ودائما ما يكون التوقيع الذي يقدمه لها صحيحا تقبله خزينة البنك بدون اعتراض.. عاد صوت عزة يتصدر المشهد:

- حتخسري ايه لو عملتي بنصيحتي ما يمكن متفق مع حد بيقلد التوقيعات بدقة..

أغمضت عينيها بعد ما أنهكها التفكير واستسلمت لنوم مضطرب على وسادة مبتلة ببقايا دمعات متمردات لا يجدي معهن قمع ولا أمر..

في صباح الأحد التالي اتصلت بسعيد النحال وطلبت منه الحضور للبنك لأمر مهم.. ما إن طرق موظف العلاقات العامة باب مكتبها ليدلف منه سعيد والانزعاج يسيطر عليه بعد أن دس ورقة مالية بخمسين جنيها في كف الموظف كالمعتاد، حتى بادرته قائلة بنبرة حانية خجلة:

- معلش يا سعيد بس الإدارة طلبوا تحديث بيانات وصحة توقيع فكان لازم.....

قاطعها بنبرة عصبية غاضبة وقد امتقع وجهه:

- ما انتي معاكي توكيل مني يا فدوى..

تلعثمت وارتبكت وتظاهرت بانشغالها بالبحث عن أوراق تائهة على مكتبها متجاهلة عتابه، فعلت نبرة صوته مؤنبا ومستاء ومهددا بالانصراف، فأثار شكوكها أكثر وعادت عبارة رئيستها عزة تتصدر المشهد بقوة، فاستجمعت رباط جأشها، وحسمت أمرها وهي تمد يدها إليه بورقتين قائلة بحسم استدعته من ذاكرة بعيدة:

- أرجوك وقع هنا يا سعيد توقيع البنك أربع مرات علشان يعملوا مطابقة، وإلا مش حقدر اصرف من حسابك مليم واحد بعد كده..

سادت فترة صمت ثقيل لم يعد يُسمع فيها إلا صوت تنفسها العالي من جراء توترها، وزفرات غضبه بسبب ضيقه وهو يحدق في وجهها بنظرة لم تألفها منه ثم أخرج قلما من سترته، وأطبق عليه بقبضتيه وراح يصوب نظرة حادة غاضبة إليها فترتعد فرائصها وكأنها المريبة، أغلق قلمه بهدوء ثم دفع إليها بالورقتين دونما توقيع قائلا بحسم:

- أنا رايح اقابل مديرتك وتوقيعي حيكون في مكتبها وحسابنا بعدين..

وتحرك صوب الباب مغادرا قفزت أمامه في خطوتين، والدموع تكاد تفر من عينيها والجزع يغزو ملامحها بسرعة:

- أرجوك متزعلش مني أنا واثقة فيك بس الإدارة.....

لـم يدعهـا تكمل مـا تقوله وأزاح كفهـا بعيدا عـن ذراعه وخرج يسـير بخطى سـريعة في الردهة فهرولت خلفـه محدثة جلبة بكعب حذائهـا حتى لفتت أنظار السـعاة وموظفي العلاقـات العامة، فهبوا واقفيـن لتحيـة سـعيد النحال مستفسـرين مـن فـدوى بأعينهم مما يحدث أمامهم وهي تناديه بصوت متحشرج:

- أرجوك يا سعيد اديني فرصة علشان افهمك..

لـم يرد ولـم يلتفت خلفـه كانت سـحب الغضب تغطـي وجهه بكثافـة وهـو يسـرع الخطـى، حتى دلـف إلـى مكتـب مديرتها عزة الجارحـي دون أن يلتفت إليها، فـي حين وقفت هي تلهث في يأس ثم عادت بخطى ثقيلة تجر أذيال الخيبة في أسى، تجرأ أحد موظفي العلاقات العامة قائلا..

- في حاجة يا مدام؟

نظرت إليه بوجوم ثم مضت إلى حجرتها..

بعد نصف ساعة وصلها الرد من عزة الجارحي:

- سـعيد جالي يـا فدوى، والحمـد لله التوقيـع صحيح ومطابق لكل التوقيعات السـابقة.. وأنا اعتبرت إنه مضى في مكتبك علشـان محدش يحس بـإن فيه حاجة غريبة بتحصل.. كان لازم تبقى أهدى من كده يا فدوى.. الحمد لله إنها عدت على خير.

تهلـل وجهها قليلا ثـم حاولت الاتصال به مـرات عديدة ولكنه لم يرد، أرسـلت عشرات الرسائل التي تعتذر فيها وتقر بخطئها فلم يستجب، وقـرب نهايـة اليوم قبيـل مغادرتها البنك اتصـل بها على هاتف مكتبها، ردت ودموعها تسـبق لسـانها الـذي يلهج بالاعتذار والنـدم فـي آن واحـد.. كان سـعيد على عكـس توقعها بـاردا هادئا لطيفا ودودا كأن شـيئا لم يكن، أخبرها بأن زوجته سـتجرى جراحة عاجلة بعد أسـبوعين بألمانيا وهو ما جعله عصبيا معها وطلب منها أن تسـحب كل الرصيـد المتبقي بموجـب التوكيل الـذي معها بعد تحويلـه لعملة صعبة وتسـلمه المبلغ نقـدا غدا...اتفقـا على اللقاء بجارسـونيرة الزمالك التي يسـتأجرها منذ عام ويلتقيان بها أسبوعيا لاختـلاس سـاعات غـرام.. راحـت تمسـح دموعها وتقبل سـماعة الهاتـف وتحتضنها حتـى وضعتها برفق، ثم ارتـدت نظارتها الطبية في حماسة وطرقت بأصابعها في سرعة لوحة المفاتيح رقم حساب زوجته فظهر الرقم أمامها على الشاشـة وهو يتزين بسـتة أصفار عن يمينه، فشـرعت في إجراء التحويل لحساب سـعيد على الفور دون تفكير.

*****

عندمـا فـرغ من صـلاة الجمعة ذلـك اليوم لم يذهـب إلى محل الملابس كعادته، فاليوم هو الجمعة الثالثة من الشهر فعاد إلى بيته أعد حقيبة صغيرة خاصة على عجل بمطبخه ثم صعد إلى سطح عقاره،

مر ستيڤي بجوار عشة الحمام وهو يبتسم ثم تجاوزها بمسافة قليلة حتى اقترب من أقفاص الديوك الثلاثة وتفحَّص أوسطها وابتسامته تتسع معلنة عن رضا كبير بحجمه ومخالبه، مد يده وأخرجه من قفصه وهو يربت عليه ثم بدأ يقلبه بكفيه لمدة ثلث ساعة لينشط دورته الدموية ودهن بطنه وساقيه بخليط من العسل والروم لتزداد قدرته على التحمل وتركه بعدها يستمتع بدفء شمس منتصف النهار لفترة وجيزة ثم عاجله بحقنة مقويات ودسه بعدها برفق في حقيبة جلدية تاركا له طاقة صغيرة يتنفس منها وانصرف مغادرا..

ما إن اقتربت سيارته من شارع السد بناحية إمبابة حتى انعطف يسارا، وترجل منعطفا في حارة صغيرة ودلف عقارا قديما من ستة طوابق يبدو مهجورا حتى وصل إلى سطحه.. فانقلب الحال تماما.. رجال يروحون ويجيئون، ركن صغير تعد فيه مشروبات ساخنة وثلاجة متوسطة تخرج منها زجاجات بيرة كل فترة.. في وسط السطح تماما أعدت حلبة بدائية على شكل دائرة محاطة ببراميل قديمة وضعت عليها صناديق فارغة لزجاجات مياه غازية لتصير متكأً للمتابعين، في أركان السطح المتبقية تجمعات قليلة من الرجال وديوكهم يعدونها لعراك وشيك منتظر.. اكتفى ستيڤي بتحية من حوله بعينيه ثم استقر في مكان بعيد قليلا عن الأنظار وبدأ يهدهد طائره وكأنه يحفزه ويعده للنزال.. حديث صامت يدور

بينهما لا يفهمه أحد غيرهما من كثرة ما رباه وحبسه وأطعمه ليطلقه فـي يوم محدد ليرد له الجميل، يجلب له ما يشبـع به هوايته القديمة التي ورثها عن والده.

دقائق قليلة مرت ظهر بعدها أبو عيدة واثنان من رجاله وخلفهما محـروس يعـرج كعادتـه، ويحمل ديـكا شركسـيًّا يبدو شرسـا بعد أن قـص عرفـه الأحمر النـاري إلا قليلا. تبادل أبو عيدة السـلام مع ستيڤي ثم داعبه قائلا:

- سقفك أد إيه النهاردة؟

ضحك ستيڤي ضحكته المبتسرة ولم يرد مكتفيا بفرد أصابع كفه الخمسة في وجه أبي عيدة الذي علت ضحكاته قائلا:

- تقصد 500 جنيه ولا خايف من الحسد..

لـم ينتظر منه ردا وتركه وانصرف مشـيرا لمحـروس بأن يبدأ في تجهيز طائره فاسـتجاب علـى الفور وكأنه مدرب علـى هذه المهنة منـذ زمـن قديم مـع أنه لـم يعرفها إلا من أسـابيع قليلـة مضت لقاء بضعة عشـرات مـن الجنيهات يحصل عليها من مكاسـب أبي عيدة التـي تتجاوز آلافًا كل مـرة، إذا ما تمكن الطائر مـن الصمود لثلاث دورات من النزال الشرس ولـم يمت..

التقت عينا محروس وهو جالس القرفصاء ممسكا برقبة الديك بعيني ستيڤي القابع أمامه، وعلى الرغم من أن أيًّا منهما لا يعرف الآخر من قبل فقد طلت نظرة كراهية متبادلة بينهما بلا مبرر، تدافعت لمخيلة محروس خواطر غريبة شتت تركيزه، ذكرته نظرة ستيڤي بذات النظرة التي رآها في عيني الثعبان قبل سقوطه من النخلة. في حين كان ستيڤي يراه كالجراد القادم من الجنوب؛ ليأتي على الأخضر واليابس ولا يشبع أبدًا.. أخرج أبو عيدة حافظة نقوده مقررًا رفع سقف المراهنة إلى ألف جنيه بعد ما تغلب ديكه مرتين هذا الصباح فبات واثقا من فوزه الثالث، قبلها ستيڤي على مضض فهو يتأخر عادة عن المشاركة في الجولات الأولى ليتفحص ديوك الآخرين أولا، دار رجل قصير ممتلئ دميم حول الحلبة بنوتة صغيرة يدوِّن فيها مراهنات الواقفين ويجمع أموالهم في صمت وهم يحددون رهانهم بلون الشريطة الملفوفة على ساق كل طائر، حتى بلغت قيمة المراهنات أكثر من عشرة آلاف جنيه رغم أن غالبية المراهنين من موظفي الحكومة وبائعي الطيور وبعض الباعة المتجولين وحراس العقارات في المناطق الراقية..

أطلق الرجل الدميم صافرة طويلة بشفتيه تنبه الجميع على أثرها وتركزت أبصارهم على منتصف الحلبة بعد أن أفلت ستيڤي ومحروس أيديهما عن رقبة الديكين اللذين راحا يدوران في نصف دائرة يتفحصان بعضهما البعض وهما يميلان برقبتيهما العاريتين

من الريش، ورغم أن ديك أبي عيدة بدا منهكا إلا أن تعطشـه للدماء كان واضحـا، في حين راح ديك سـتيفي يراوغ بحذر حتى يسـتفزه أكثر فيندفع بلا حسـاب للدفاع عن هجوم مضاد، سـرعان ما انقض كل منهمـا علـى الآخر في نقار شـرس علت معه صيحـات الرجال كلما استطاع ديك ستيفي القفز إلى أعلى متجنبا وخزة منقار غريمه، ثم يهبط بمخالبه على رقبته لينخر جراحه أكثر، ومع كل قفزة كانت الحلبة تشـتعل أكثـر حتى علت حمية الصراع لدقائـق تراجع بعدها طائر سـتيفي خطوتين للوراء، لاحت معهما ابتسـامة تشف واضحة على شفتيه، وهو يكاد يصفق لطائره الشجاع بينما ظل طائر أبي عيدة متسـمرًا في مكانه للحظات وكأنه فقد القدرة على الحركة ثم أطرق بعدها برأسـه كمن سـيطعن صدره بمنقاره ثم لاحت بقعة لزجة من دمائه على رقبته، سـرعان ما اتسعت وقطرت دماؤه منها حتى هوى بعدها الديك متكوما على جانبه الأيمن بلا حراك..

لطـم محـروس خـده لا إراديًا وهـو يختلس نظرة متوجسـة إلى أبي عيدة الذي كاد يقطم مبسم سيجارته بين فكيه غيظا مشيرا لأحد رجالـه بإحضار طائر آخر لاسـتكمال المراهنـات، أطرق محروس قليـلًا وهو يتأمل الديـك القتيل ودماؤه تنزف ببطء شـعر لوهلة بأنه سـيلقى ذات مصيره يوما ما، سيفترسـه الفقر وتنخر عظامه الحاجة حتى تتهشـم ضلوعـه ويتكـوم حطاما بائسـا، ارتعش فكاه توجُّسًـا فاسـتعاذ بالله وهو يسـحب جثة الديك بعيدا، في حين كان سـتيفي

في ركنه البعيد مرتديًا قبعة بيضاء كبيرة يعد حقنة من عصير البرتقال مكافأة لطائره المنتصر ثم انشغل بعدها في تضميد جروحه البسيطة ليتحمـل ما هو قادم من نزال اشـتعلت وتيرته مبكرا ذلك اليوم.. إن كان في عمره بقية.

***

6

جنايات قصر النيل

ابتعد المارة مسرعين من نهر الطريق إلى أقصى جانبيه؛ لتمر ثلاث سيارات شرطة مسرعة تطلق سريناتها عالية فتلفت الانتباه أكثر، حتى توقفت فجأة مزمجرة كوحوش كاسرة قرب كورنيش النيل من الناحية البحرية لحي الزمالك، هرول من صناديقها الخلفية عشرة مخبرين وأفراد شرطة وكأنهم سباع جائعة فُتحت أقفاصها فهرولت تبحث عن فريسة بضراوة، انهالوا ضربا وركلا على باعة جائلين وشحاذين وآخرين ممن لا عمل لهم سوى إجبار قائدي السيارات على التخلي قسرًا عن بضعة جنيهات نظير ترك سياراتهم بالطريق العام.. اقتربت سيارة نصف نقل تابعة لقسم شرطة قصر النيل ليقوم الرجال العشرة بتحميلها بمخلفات الحملة من بضائع الباعة الجائلين في حين حُشِرَ المتهمون من رجال أبي عيدة في سيارة شرطة أخرى لينطلق الموكب مخترقا شوارع الزمالك البحرية في طريقه إلى الجانب القبلي من الجزيرة لتتكرر

ذات الموقعة فباتت سيارة الشرطة المكشوفة أشبه بتلك التي تسير فـي أفـراح الريف محملة بأثـاث العروس من كثرة مـا تم جمعه من غنائـم.. عـرج الموكـب بعدها إلـى أقصى جزيـرة الزمالـك ناحية كوبـري قصـر النيل حيـث ترابط خمسـة مراكب شـراعية يُسيِّرها أبـو عيدة، قام الضابـط بالقبض على صبيانه المتواجدين بالمرسـى وأمر رجاله بتفتيش المراكب وتجريدها من أجهزة الموسـيقى التي تصدح بها وهي تتهادى على صفحة النيل..

تعدت خسارة أبي عيدة في تابعيه العشرين رجلا وامرأة بخلاف العشرات من ذوي العاهات المستديمة الذين كان من الصعب عليه إيجاد بديل لهم بسهولة.. استقروا جميعا في قبو القسم إلى أن يفرغ ضابط المباحث من تسطير محضره ولكنه تراخى في إعداده متعمدا، متعللا أمام مأمور القسم بإرهاقه الشديد بعد الحملة المكبرة..

ما إن اسـتقر العقيد حسين عناني أمام ستيفي حتى قدم له الأخير كأسا من الويسكي مبتسما في مكر:

- ولزومها إيه الغارة المفاجئة دي يا باشا؟

تجرع العقيد كأسـه دفعـة واحدة ثم رفع جفونـه المتراخية وهو يجيبه بخبث بعد نجاح مخططه، واثقا من وساطة ستيفي لعقد هدنة سلام جديدة مع أبي عيدة:

- لازم يتربى و يدفع الشهرية في معادها..

اقترب ستيفي هامسا:

- طلباتك أوامر دايما...

ثم أخرج مظروفا منتفخا بخمسة آلاف جنيه ما إن قلبهم العقيد بيديه، حتى أعاده لستيفي بلا اكتراث قائلا وهو يحدق في وجهه بعينين حمراوين من الإرهاق مشهرا إصبعين في وجهه:

- المرة دي دوبل يا ستيفي علشان يتأدب..

تأزم وجه الساقي ثم أردف:

- مش كتير يا باشا؟!

- لأ مش كتير، لو المحضر اتحرك من القسم حيروح النيابة والنيابة محتاجة محامين وبعدين في محكمة وحكم بالحبس وطبعا غرامة.. يبقى يوفر كل ده ويدفع الغرامة وخلاص..

قالها وهو يتجرع كأسه الثانية بتلذذ مبتسما في برود..

أفلتت ضحكة استنكارية من ستيفي رغما عنه ثم استأذن بأدب جم كعادته تاركًا البار ليجري اتصالا هاتفيا، ولم تمض بعده دقائق طويلة حتى كان أبو عيدة بصحبة أحد رجاله ينطلقان بقاربه البخاري مخترقين صفحة النيل كالسهم حتى استقرا على المرسى

القريب من الحانة، وهرول رجل أبي عيدة في اتجاهها، وسرعان ما كان ستيفي يقدم مظروفا مماثلا للأول بخمسة آلاف أخرى ليدس العقيد المظروفين في جيوب سترته ثم هاتف ضابط مباحث القسم الذي سبق أن اتفق معه على ألا يحرق سفنه خلفه بتحرير محاضر ضبط؛ لتخرج بعدها بدقائق معدودات الدهماء والسوقة والشحاذين إلى شوارع الحي العريق مرة أخرى لتستقر بأماكنها.. وكأن شيئا لم يكن.

*****

في الفترة الميتة كما يطلقون عليها بالحانة ما بين انصراف زبائن الظهيرة وحضور خفافيش الليل للسهر، اجتمع ستيفي برجاله وهو يفتح صندوق الإكراميات الأسود والعيون ترقبه في لهفة، لم يخصم نسبة الثلاثين بالمائة الخاصة به ثم يعيد تقسيم المتبقي عليهم جميعا مثلما يفعل دوما، بل ترك لهم كل ما في الصندوق هذا الأسبوع وأنقد كلًّا منهم ألف جنيه إضافية من جيبه الخاص شارحًا لهم دورهم في الترشح ضده بانتخابات الغرفة واعدًا إياهم بمزيد من الرعاية إذا ما نجح، انتابتهم الدهشة لوهلة ولكنهم أبدوا موافقة سريعة بعدها، عدا ضياء العجمي الذي بان عليه الارتباك وأمام نظرات ستيفي الحادة التي كادت تجرده من ملابسه تفصد عرقه حتى لمعت جبهته العريضة وخلع نظارته الطبية وردد متلعثما:

- الحقيقة يا ريس أنا رشحت نفسي من أسبوع لما عرفت إن الإدارة رفضت التزكية، لكن كنت عاوز اعملهالك مفاجأة واتنازل لصالحك..

قال عبارته الأخيرة وهو يحك أنفه بيده.. اقترب ستيفي منه وربت على كتفه مبتسما في استنكار خفي، ثم التفت إلى الباقين محفزا إياهم على جمع أصوات لصالحه خاتِما:

- وكل واحد فيكم ياخد صوت ولا اتنين، لازم العملية يبقى شكلها مقبول ونضيفة.. شدو حيلكم.

استقر ستيفي خلف البار مرة أخرى ليجد العقيد حسين قد اختفى.. مرت دقائق ثم لمحه جالسا مع شادي وزيزي التي تعلقت به وتعلق بها، فلم يعد يسهر بالحانة أو يظهر في مكان إلا وهي بصحبته فلم يكن قد مل منها بعد.. ثمة صداقة قائمة على تبادل المنفعة نمت وكبرت في الحانة بين العقيد حسين وشادي.. الأول كان يطمع في وظيفة مضمونة بعد تقاعده الذي بات وشيكا في حركة الشرطة القادمة، وفقا لما يتم تسريبه إليه من كواليس وزارة الداخلية في حين كان شادي يرغب في ضمه إلى مجموعته من أصحاب النفوذ الذين يرعاهم ويختصرون له خطوات كثيرة عند أي احتكاك مع أجهزة الدولة؛ ليكون طريقه دائمًا ممهدا قصيرا فيحصل على

خدمة مميزة بغض النظر إن كان يستحقها أم لا، المهم عندما يطلبها يجد من يلبي النداء.

إلـى اليسـار قليـلا حيـث اعتـاد أن يقبع فـي ركنـه المفضل ذي الإضاءة الخافتة فيبدو الجالسـون هناك أشـبه بظلال سوداء تحتسي شـرابًا وتدخن سجائرها بشراهة، لم يكن الصحفي كمال شرف من رواد الحانة المرحب بهم من جانب ستيڤي فقد كان يراه ثقيل الظل متفلسفا نوعا ما، حادا في رأيه لا يجامل بسهولة وكثير الانتقاد.. فبدا وكأن وجوده مفروض عليه لا يستطيع منعه أبدا رغم محاولاته ولكن كلها باءت بالفشـل، فكمال من الرواد الأوائل، الذين يترددون على الحانة منذ منتصف السبعينيات بانتظـام، و يجلس في ذات المكان لا يغيره أبدا، يظهر في أوقات تكون الحانة فيها شبه خاوية بصحبته أوراق وأقلام وكأنه حضر للتأمل والاسـترخاء، واستعدادا لالتقاط فكرة عابرة في أي وقت، لا يحتسي سوى البيرة مع قليل من حبات الفول السوداني ورغم أنه يلقى معاملة طيبة من النادل نادر ومجاملة تصـل أحيانا إلى حد إعفائه من فاتورتـه، إلا أنه يصر على دفع قيمة ما يشـربه بانتظام.. لا يقرب الويسكي أو الكحوليات البيضاء إلا إذا دعاه أحد إلى طاولته ووقتها يكتفي بحوار قصير ينتهي بنهاية كأسـه ثم يعود أدراجه وكأنه يدخل إلى عالم خاص أرقى وأسمى يرى فيه الجميع من فوق منصة عالية، فلا يشعر بذاته إلا هناك..

كان الوزير كامل أبو الأسرار يتنصت على حديث الصحفي كمال مع نادر حول دور كارل ماركس في إعادة قراءة التاريخ وحقوق العمال التي كانت مهدرة في ظل رأسمالية شرسة، ولأن كمال كان مندمجا للغاية وكأنه تقمص شخصية ماركس فلم يشعر بالوزير السابق الذي بدا كمن اقتحم عليهما غرفة مغلقة فجأة صائحًا في حدة..

- خلاص كل حاجة في الرأسمالية بتشوفوها غلط.. مفيش حاجة صح؟ انتوا فاكرين نفسكوا أوصياء علينا؟ البلد عمرها ما حترجع أربعين..خمسين سنة لورا اصحوا.. قولوا لنفسكوا كفاية.

التفت كمال ببرود ناحية الوزير..وعيناه حمراوان تبرقان في غضب، ثم ابتسم له مستنكرا وهو يرد بهدوء وكأنه يعلق على مشهد يجرى أمامه لا علاقة له به:

- عارف يا باشا الناس مش بتثور عليكم ليه رغم انها متضررة منكم اوي؟

قبل أن يستوعب الوزير السؤال أردف كمال:

- لأن الوعي العام كله بقى مزيف.. مصر بتعيش حفلة تنكرية كبيرة ومش حيستقيم الحال وتنجح أي ثورة شعبية إلا بعد أن يخلع الجميع الأقنعة..

مط الوزير شفتيه في امتعاض قائلا:

- انت مغيب وأفكارك قديمة أكل عليها الزمان وشرب، بالعكس الناس مش حتثور على النظام؛ لأنه الأقرب للعدل يعني انت بتكسب على قدر موهبتك ومجهودك، لكن طبعا أفكار حضرتك قايمة على المساواة اياها يعني اللي بيشتغل زي اللي مبيشتغلش، شوف الهند والصين بقوا فين بعد ما تحرروا من الأفكار الشيوعية القديمة وطوروا نفسهم، كل فكر وله وقته يا كمال ولو ملحقتش قطار التطوير حتفضل واقف تهتف لوحدك على المحطة ومحدش حيعبرك، الناس عاوزة تاكل وتشرب وتتعالج وتتعلم، تتقدم بجد مش بشعارات من اياها..

ارتشف كمال رشفة من كوب البيرة متلذذا ثم قال بنبرة واثقة:

- لو فتشت عن التفاصيل الاشتراكية في حياتنا يا دكتور حتندهش، كل الحقوق اللي بتتكلم عنها أصلها من أفكار كارل ماركس لأنه ببساطة هو أول واحد قال إن شغلنا أساس الربح اللي بيكسبه صاحب العمل يعني بالبلدي كده احنا البقرة الحلوب بالنسباله..

قاطعه الوزير بحدة:

- بلاش كلام نظري، كفاية فكرة التأميم وملكية الدولة لكل وسائل الإنتاج علشان تدرك فشل نظرياتك كلها، البقرة اللي

بتتكلم عنها عندما كانت مملوكة للدولة ماتت من الهزال والسرقة والفشل..

ضحك كمال بسخرية ولمعت عيناه بشدة وهو يجيبه:

- ولما حضرتك كنت في الوزارة كنت بتعمل ايه لما الحكومة بتحتاج فلوس؟

بدت على الوزير ملامح الاندهاش والتعجب بوضوح فاسترسل كمال بسخرية:

- مش كنت برضه بتمد ايدك على فلوس التأمينات والمعاشات وصناديق الادخار.. تأميم ده ولا مش تأميم يا دكتور؟ مش دي برضه بقرة حلوب بالنسبة للحكومة؟ الحقيقة دي شيزوفرنيا سياسية كلكم مصابين بيها زي ما يكون مصل بيطعموكوا بيه وانتم بتحلفوا اليمين..

ارتشف كمال قليلا من البيرة ثم أردف مشيرا إلى النادل نادر:

- تقدر تقولي لو الجرسون المحترم ده أصابه مرض أو جاتله عاهة في ايديه مين حيعالجه، مين حيصرف عليه وعلى ولاده و مين حيشوف حقوقه؟ الحقيقة يا معالي الوزير ده مش عدل خالص.. ده اسمه استغلال..

تأهب الوزير لمغادرة البار بعد أن ظهرت عليه ملامح عصبية مبكرة كالعادة وضاق بجدل محدثه قائلا:

- أنا فاهمك لكن لازم تعرف إن البلد فيها رأسمالية مختلفة عن أمريكا، والحكومة أولوياتها التقريب بين الطبقات وعندها خطة طموحة لسد الفجوة الرهيبة بين الحضر والريف لكن انتم عمركم ما حتشوفوا حاجة طول ما النضارة السودا دي فوق عينيكم..

علا صوت كمال ضاحكًا:

- راجع نفسك يا دكتور واقرا تاني علشان تعرف مين بدأ النضال من أجل الحريات وحقوق المرأة والأقليات ونقابات العمال، وبعدها نكمل كلامنا..

رفع الوزير الأسبق يده اليسرى وكأنه يحتج والتفت ناحية كمال وهو يغادر مبتسما قائلا:

- لأ.. كفاية!

*****

مضت الليلة بنفس الوتيرة مثل سابقتها.. الكل تحول إلى فراشات تحوم حول نيران نهايتها، هذا يسكر وهذه ترقص، ذاك يشاغل تلك وهذه تضع عينيها على آخر لترافقه، صفقات تُعقد في ثوان ومشاعر تتأجج في دقائق تحت وطأة نشوة خمر زائفة، كئوس تقرع وتفرغ في جوفٍ ظمأى يئنون بالشكوى ويرسون بسفن همومهم على شاطئ ساقيهم، هو ينصت ويبتسم ويربت عليهم في حنو ثم تخرج

من بين شـفتيه كلمات براقة مدموغة بأمل كاذب، يبيع لهم السـراب كل ليلـة، فيتجرعـون الوهـم راضين مقبلين عليه بشـغف يحتضنونه في لهفة، يخشـون أن يتسرب من بين أيديهم، ولكن تتبخر كلماتهم وهمومهـم من عقله وتنمحي من ذاكرته عندما يغادر السـاقي حانته كل ليلـة متخفيا مثلما حضـر إليهم ينزع القناع الـذي ارتداه أمامهم ويعود من حيث أتي، مثلما ينفضُّ السـامر ويلملمون خيمة السيرك لينكشـف العراء، ويبـدأ المهرج في خلـع القناع وإزالة المسـاحيق من علـى وجهه.. تنجلـي الحقيقة وتظهر الوجـوه الحزينة المرهقة البائسـة، يهدأ الأسـد ويكف عن الزئير ويصبح وديعًا كسـولًا كقط أليف، يسـدل السـتار عن المسـرح بأضوائه الباهرة ليختفي الجميع فـي ظلام الكواليس وبعدها بليلـة تضاء الأنوار، يجدهم في انتظاره بلهفـة، نفس جمهوره لا يتغير، يترقبون حضوره وكأنهم على موعد مسبق مع قدر تعيس مختار لا يحيدون عنه ولا يخطئهم أبدًا.

قـرب الفجـر بقليـل وقد خـلا نصف الحانـة من روادهـا، غادر شـادي وزيـزي تتأبط ذراعـه وهما يترنحـان تمامًا لا يسـتطيعان أن يكمـلا خطوتيـن مسـتقيمتين، تـكاد سـيقانهما تلتف حـول بعضها البعـض، اسـتقرا فـي سـيارة شـادي ثـم انتابتهمـا فجـأة موجة من الضحك الهسـتيري فقد جلسـت زيزي على مقعد القيـادة بدلا منه وغاص هـو في المقعد المجاور فبدا تائها وهو يتأمل تابلو السـيارة

بحثا عن المقود، صممت زيزي على القيادة وتحت إلحاحها وثقل رأسه رضخ، إلا أنها لم تكد تتجاوز شارع الحانة وتنعطف يسارًا في طريق أضيق، حتى بدأت تحتك بالسيارات المتراصة على الجانبين، بدت السيارة مترنحة كقائدتها تتمايل يمينًا ويسارًا، أدرك شادي خطورة الموقف بعد برهة فجذب عصا الفرامل اليدوية ثم نزع المفاتيح ليجبر زيزي على رفع قدميها من دواسات البنزين وبالكاد استبدلا موقعيهما، وما إن تحرك بسيارته حتى علا صوت زيزي بعبارات غير مفهومة وهي تهذي مصممة على القيادة مرة أخرى محتجة بشدة على اتهامه لها بأنها ثملة، لم يستجب لها فظل صوتها يعلو مهددة إياه بتصرف جنوني، فلم يأبه لتهديداتها وقام برفع صوت الراديو ليغطي على صراخها..

ضاقت الطريق أمامه فجأة ولمعت أنوار متقطعة وأبطأت السيارات من سرعتها بسبب كمين شرطة بالمنطقة البحرية من حي الزمالك فهدأ من سرعته طالبًا منها بحسم أن تضبط ملابسها وتعتدل في جلستها المتراخية وألا تنطق بحرف واحد.. فتح عينيه بقوة ليعين نفسه على التركيز ولمح لوهلة خيالا وحركة من زيزي، ولكن شغله الضابط الشاب الذي كان قد اقترب منه بينما راح شادي ينظر إليه بعينين زائغتين قلقتين وعقل ثمل متحفز للشجار.. انحنى الضابط مقربا رأسه من نافذة شادي ثم تراجع على الفور متأففا من

رائحـة الكحول ثم انحنى مرة أخـرى وقبل أن ينطق بحرف لاحت منه ابتسـامة سـاخرة، ظن شـادي أنه يحييـه بها فبادلـه بأخرى بلهاء واسعة، إلا أن الضابط جذب باب السيارة بعنف قائلا:

- انزل انت وهي..

كانـت زيزي قد نفـذت تهديدهـا الجنوني بالفعل، مـد الضابط يده لمرآة السـيارة ملتقطًا حمالة صدر سـوداء، خلعتها هي وتركتها معلقـة بالمـرآة الأمامية، أمسـك بها الضابـط وهو يفردهـا بذراعيه حتى نهايتها متفرسًـا ملامحهما، كانت زيزي تستند لمقدمة السيارة لا تقوى على صلب طولها مطرقة في قلق، بينما ظل شادي بالقرب منهـا يجـز على أسـنانه ويعبث في خصلات شـعره بعصبيـة وذهنه المشـوش يعمل ببـطء محاولا الخـروج من أزمته بـلا جدوى، في حيـن ارتسـمت ابتسـامة واسـعة على وجوه أفـراد قـوة الكمين من أمناء الشرطة والمجندين وهم يتنقلون بأعينهم الجاحظة بين حمالة الصدر وجسد زيزي تاركين لخيالهم العنان..!!

*****

هـوت صفعة سـريعة على وجـه هاجر مـن أمها تلتهـا صفعات متتالية عشوائية تعبر عن هلع نفسي أكثر منها إيلاما بَدَنِيًّا، ثم راحت الأم تلطم خديها وتبكي بدموع سـاخنة بللت وجنتيها السـمراوين فلمعتـا، تهاوت علـى الأرض بجوار هاجر جالسـة القرفصاء وهي

تضع كفًّا على رأسها وتضرب بالأخرى عليها، في حين انكمشت هاجر مذعورة وقد تكومت على نفسها في ركن الغرفة الضيقة وعيناها تزدادان اتساعا فزعًا ورعبًا عندما التقطت أذناها خطوات أقدام ثقيلة زاحفة تنبئ عن قدوم أبيها، لم يستوعب عقل محروس كل ما قيل له وربما لم يسمع حديث زوجته حتى نهايته؛ فقد سبقت كفاه عقله، وشعر بغصة في حلقه وضيق في صدره، برقت عيناه ثم انغمس في الاعتداء على هاجر حتى فقدت وعيها من شدة ما صفعها، وسالت دماؤها من جانبي شفتيها ورغم ذلك استمر يركلها في بطنها بقدميه بلا وعي حتى خارت قواه تمامًا فاستند على الجدار وترك جسده يتهاوى ببطء، هو ينظر إلى لا شيء في حين لم تتوقف زوجته عن النحيب المكتوم..

صدمة لم يتحملها أيٌّ منهما، دار أمام عينيه وعلى مسمع منه صورة أبي عيدة وصوته الأجش وهو يحذره من أهل مصر واصفا إياهم بالذئاب، لم يكن محبذا لخدمتها بالبيوت، فعلها مضطرا تحت وطأة الفقر والعوز والحاجة، ولأن والدة فؤاد فخري قاربت التسعين وهاجر تتواجد في فترات غيابه فقط فلم يدر بخلده أن يعتدي عليها رجل في سن أبيها إن لم يكن يكبره بسنوات، شعر بأن عقله لا يستوعب المشهد وكأنه قد توقف عند جانب وحيد منه ولا يفارقه، ويأبى أن ينصرف عن مخيلته، استجمع قواه ونهض

مقتربـا من زوجتـه فلطمها على خدها بشـدة؛ لتصمـت.. ثم طلب منهـا معاونتـه فيما انتوى عمله فامتثلت في خنوع ودموعها تنسـاب في صمت لتبلل صدر جلبابها تلك المرة من فرط غزارتها.

علـى بعد أمتار قليلة من غرفة محـروس كان مدحت المعداوي يدلـف مـن مدخـل العقار وبصحبتـه داليا بعـد أن أمضيا سـهرتهما بالحانـة مصطحبـا إياها لعيادتـه الخالية احتفالا بشـفائها من عملية الإجهـاض التـي أجراهـا لها ليقبـض ثمن مساعدته الإنسـانية لها حسـبما يحلـو له أن يصـف عمله دائمـا، وبينما كان يقـف محتضنا داليـا فـي انتظار المصعد سـمع صـوت ارتطام مكتوم تكـرر مرتين متتاليتيـن فانتبـه قليلًا ثم فتـح باب المصعد ليدلـف فتكرر الصوت لمرة ثالثة أعلى من سـابقتيها، هنا لم يسـتطع أن يقاوم فضوله، سار على أطراف أصابعه بالقرب من الدرج يسـترق السـمع ويركز بكل حواسـه حتى حدث الارتطـام للمرة الرابعة مصحوبـا بأنين مكتوم استطاع بسهولة أن يحدد مصدره فاندفع مسرعا نحو غرفة محروس دافعًا بابها بقدمه ليجده أمامه وبجواره زوجته ينظران إليه في دهشة، وتتوسـطهما هاجر مسـجاة على ظهرها وخيط رفيـع من دماء داكنة يسـيل مـن بيـن فخذيها، وهي في شـبه إغمـاءة تهذي بعبـارت غير مفهومة وتتأوه وقسمات وجهها تنبئ عن ألم رهيب مكتوم يغمرها، سـادت لحظات صمت ومحروس، ومدحت يتبادلان نظرات حادة

غاضبـة وكل منهما يسـتجمع قواه ويلملم شـتاته ليهاجم الآخر في ضراوة..

انتبه مدحت فجأة لوجود داليا بجواره، والتي أفلتت منها صرخة مكتومـة لما وقعـت عيناها على هاجر وهي تتلوى في بطء ولا تزال تنزف..ارتبك محروس وزوجته لما شاهداهما وتراجعا حتى ألصقا ظهريهمـا بالحائط وقد تراخيا أكثر، فما كان من مدحت إلا أن جثم على ركبتيه وسـرعان ما حمل هاجـر مهرولا نحو المصعد، ووراءه داليـا وهي ترتجف من أعماقها خوفا، لـم تمض لحظات حتى كان محـروس قـد لحـق بهما ليقف بجـوار داليـا التي كان جسـدها كله ينتفـض ويرتـج في غرفة الكشـف، وهمـا يراقبان مدحـت محاولا إيقـاف النزيـف في سـرعة وعرقه يتفصـد منه ويداه ترتشـعان قليلا والصـداع يضـرب جنبات رأسـه بعنـف، بعد أن انسـحبت سـكرة الخمر ونشـوتها فجأة.. مرت دقائق ثقيلة كسـلحفاة تائهة.. وأستار الصمت تُسدَل على الغرفة وتغلفها في هدوء قاتل لا يسـمع فيه إلا أنـات هاجـر المتقطعة، وأصوات اصطـكاك أدواتـه الجراحية التي راح يسـتخدمها بحذر شـديد وبيد مغلولة شبه عاجزة وعقل لم يُهيَّأ من قبل لإنقاذ حياة، بعد ما استمرأ وأد أجنة على مدار سنوات...

أخرجت هاجر لسانها ولعقت شفتيها وكأنها ظمأى ولا تجد من يسـقيها، كان بياض عينيهـا هو الغالب، بدت شـبه غائبة عن الوعي

وعقلهـا تتراقص فيه خيالات لأطياف مهـزوزة من بعيد لها مع فؤاد فخـري وهو يضاجعها بعد أن شـربت من زجاجـات خمره.. ذاقت كثيـرًا من ثـلاث منها فـي غيابه فتاه عقلهـا، وتجرعت كأسـين معه عندما عاد تلك الليلة البعيدة من الحانة فشربتهما دفعة واحدة تحت إلحاحـه فراح العقل تماما، كان فؤاد، يومها ثملا مسـطولا منتشيًا، فلـم تدر بنفسـها إلا وهي تتقلب بيـن ذراعيه كدمية وهـو ينهل من جسـدها البكر كل ما تطوله يداه وعضوه، حتى انتبهت فجأة لفقدها عذريتهـا فجزعت وأصـاب الهلع فؤاد أكثر منهـا، فزادها قلقا على قلقها فدفعها بعيدا عنه حتى أفاقت، بعدها تهرب منها حتى هجرها، مرت أيام ثم أسـابيع، انقطعت عنها فيها دورتها الشـهرية فأصيبت بالهلـع، أبلغـت أمها لتسـترها قبـل أن تفضحها بطنها، ولكن سـبق السيف العزل، انهارت الأم غير مصدقة ما كانت تتوجس منه بعد أن تحول الكابوس إلى واقع أليم... شهقت هاجر فجأة وارتج جسدها الرقيق برفق ثم سكنت تمامًا..

ألقى مدحت بمشرطه المدمم في إناء معدني وهو يزفر في ضيق زفـرة طويلة ثم غطى وجه هاجر بالملاءة وفرك عينيه ومسـح وجهه بعصبية، متلفتا خلفه نحو محروس وداليا ليبلغهما أنها فارقت الحياة فلم يجدهما.. تبخرا فجأة من العيادة كلها دون أن يشعر بهما، انتابته رعشـة مفاجئـة وشـعر بالخوف يسـري تحت جلده كأسـراب نمل

تتحـرك في جحافل وكأنها تحتشـد لمعركة وشـيكة، فظل قابعًا في مكانه بعد ما حاول النهوض، فلم تقو قدماه على حمله تلك المرة.

*****

لـم يعد الحـاج عبد الحكيم السـهلي يتـردد على مكتبـه بوكالة البلـح يوميا مثلما كان، تبدل حاله وصار مهمومًا بعد أن تحول إلى أضحوكة ومثار سـخرية لتجار الوكالة الذين لم ينالوا شـيئا من زينة فشمتوا فيه أشد شماتة، عندما اكتشف أنه تعرض لأكبر عملية نصب في حياته إن لم تكن في تاريخ وكالة البلح كلها.. لم يتحمل الرجل نظرات صبيانه وكلمات السخرية من التجار الآخرين الذين وصلت بهـم الصفاقة لدفع صبية صغار مأجورين أمام محله ليعايروه بعبارة ثابتـة لا تتغيـر يرددونهـا بنغم.. «يا زينـة الرجالـة».. وكأنهم يزفونه لآلامه وجروحه كل يوم، فاعتكف في بيته..

كانـت البدايـة عندما بـدأت زينة تتهـرب منه وتؤجل لقـاءه، ثم سـاوره الشـك لمّا حل ميعاد وصول الشـحنة المنتظرة والتي وضع فيهـا معظـم ثروتـه، ثـم تبين له أنـه لا توجـد شـحنة ولا يحزنون.. وقتها قدمت له زينة عشـرات الحجـج المختلطة بالأكاذيب بمهارة لتبرير تأخرها، فلما استحقت الشيكات التي وقعتها له كانت الطامة الكبـرى عندما أبلغـه البنـك أن التوقيع غير مطابـق ولا يخص زينة علـى الإطلاق، كاد وقتها يجن فقد وقعت أمامه الشـيكات بمكتبها

ولم يفطن وقتها إلى أنها قد بدلتها جميعا بمعرفة سكرتيرتها عندما طلبت منها تسجيلها بدفتر الاستحقاقات لتطمئنه على ماله.. دقيقة واحدة كانت كافية لتستبدل السكرتيرة شيكات زينة الحقيقية بأخرى مقلدة ومعدة سلفا قبل حضوره في تلك الليلة المشئومة..

بعد اجتماعات ومشورة مع ثلاثة من أبنائه الذين أخذوا على عاتقهم مهمة استعادة هيبة أبيهم وأمواله المفتقدة، فطنوا بعد تفكير إلى الاستعانة بتلك السكرتيرة ترغيبًا وتهديدًا فاستجابت طمعًا وخوفًا حتى وقفوا منها على الحقيقة، بعدها انتقلوا إلى تنفيذ المرحلة الثانية من معركة إعادة الأموال المنهوبة على وجه السرعة بعد أن أمدتهم السكرتيرة بمعلومات مهمة عن انتواء زينة إغلاق مكتبها بالزمالك خلال أيام؛ استعدادا للسفر إلى قبرص لبدء نشاط جديد هناك..

في صباح يوم جمعة كان عبد الحكيم السهلي واثنتان من زوجاته يغادرون مطار القاهرة في طريقهم لأداء العمرة، وبعدها بيومين نحو السابعة والنصف مساء اقتربت سيارة صغيرة ذات زجاج داكن ولوحات معدنية مطموسة من الحانة حتى استقرت على مقربة منها، بعد نحو ساعة غادرت سكرتيرتها العمارة، توقفت قليلا أمام المدخل وهي تتلفت ثم استقلت تاكسيًا تعمدت أن يساعدها النوبي حارس العقار في إيقافه منفذة كل ما طُلِبَ منها بالحرف الواحد..

عاد النوبي يقبع متربعا أمام المدخل في وجوم متذكرًا مأساة هاجر ومحروس ولم تمر لحظات طويلة حتى سمع صوت زجاج سيارة يتهشم على مقربة منه فمضى يتفقد السيارات التابعة للسكان.. في ذات التوقيت فُتحت أبواب السيارة الصغيرة وخرج منها ثلاثة رجال دلفوا إلى منزل زينة في خفة وسرعة، ولم تكتمل دقيقة من الزمن حتى كانوا في مكتبها مستخدمين نسخة من مفتاح السكرتيرة..

حمل وجه زينة دهشة ورعبًا أكثر مما يحتمل، فَنَاءَ بِحِمْلِهِ، وتدلت شفتاها بعد أن اتسعت حدقة عينيها فزعًا والرجال الثلاثة يحيطون بها مشكلين نصف دائرة.. لم تقاوم كثيرًا، صفعة واحدة كانت كافية لكي تلتصق في مقعدها، وما هي إلا لحظات حتى شدوا وثاقها تماما من يديها وساقيها، ووضعوا شريطًا لاصقًا عريضًا سميكًا بحيث يغطي فمها، بينما راح أحدهم يشهر مسدسا كاتما للصوت في وجهها ملوحا به في تهديد واضح لا يحتاج إلى تفسير أو شرح لما سيحدث لها عند أي بادرة مقاومة؛ فملامح الرجل توحي بأنه ممن لا يترددون لحظة في أن يفعلوها بقلب ميت..

أخرج رجل آخر هاتفه وأدار رقمًا سعوديًا ولما جاءه صوت عبد الحكيم السهلي على الجانب الآخر، أخبره بتمام المهمة ثم استمع له قليلا بعدها وضع الهاتف على أذن زينة، لم يتحدث عبد الحكيم كثيرًا، وإنما جاءت كلماته القليلة حاسمة أشبه بأمر واجب النفاذ فورًا وإلا غادرت زينة الدنيا في هدوء.. كانت تهز

رأسـها عدة مرات متتالية بالإيجاب وهي تستمع إلى حديثه وتصدر صوتـا مكتومـا لتعبر عـن موافقتها والفـزع لا يزال يطل مـن عينيها وكأنـه التصـق بهمـا.. التقـط الرجل سـماعة الهاتف منها واسـتمع لتفاصيل مشـهد النهاية ثم أغلق هاتفه وملامـح وجهه تزداد تجهما وصرامـة.. على مقربة منها كان الرجـل الثالث يعبث بيدين ملقنتين جيـدًا وتعرفـان ماذا تريـدان، حتى التقط دفتر شـيكات لحسـاباتها بالبنـك الجديـد غير الذي تعاملت مع عبـد الحكيم عليه من قبل ثم فكوا وثاق ذراعها لتوقع شيكات جديدة بتاريخ شهر سابق..

بعدهـا تبـادل الرجـال نظرة ذات مغـزى قام علـى إثرها أحدهم ببعثـرة محتويات المكتب ونزع أدراجه، ثم اقترب الثالث منها ببطء وهـو يجز على فكيـه، ويضع كفيه خلـف ظهره، فأغمضـت عينيها بشدة وهي ترتجف.

*****

ضـرب صابـر جبهته بشـدة وهـو يقفز مـن دراجته أمـام المحل ليدلـف مهـرولا طالبا فطيـرة عاجلة فلما استفسـر منـه الطاهي عن نوعها أجابه في تسرع:

- أي حاجة.. بالسكر..

ثـم عبث بهاتفه ليتصل بها معتـذرًا عن التأخير فقد كان يدرك أن غضبها شديد ولن يحتمله قط.. لم ترد على مكالماته، عبث بجيوبه ليتأكد من وجود قطعة المخدر الملفوفة بعناية ثم ألقى بعلبة الفطيرة

في صندوق دراجته البخارية وانطلق صوب شارع الحانة.. ترك الدراجة قرب النوبي موصيًا إياه بالعناية بها مقررا له أنه في طريقه لمكتب زينة.

عندما غادر المصعد لاحظ أن الباب موارب، قرع الجرس عدة مرات فلم يسمع سوى رنين الصمت، دفعه فضوله لدفع الباب ببطء محدثا صريرًا بطيئا متقطعا.. دلف إلى الصالة الصغيرة مناديا باسمها فلم يتلق جوابًا ظل يتلفت حوله والظلام يحيط به إلى أن تعود عليه فلمح خيالا متكومًا على مقعد، اقترب وأضاء مصباح الغرفة ثم تسمر مكانه، لم يقو حتى على التراجع، كانت رائحة الموت تنتشر في المكان وتعبئه، وجثة زينة أمامه موثقة بالحبال الغليظة، ورأسها مهشمًا بالكامل، ووجهها تغطيه الدماء اللزجة الساخنة بعد أن هوى أحد رجال عبد الحكيم بكعب مسدسه على رأسها بشدة ففقدت الوعي فهشمها بعد ذلك، تدلت رقبتها على جسدها كثمرة ثقيلة أوشكت أن تسقط في أي لحظة.. سقطت منه علبة الفطيرة وتدلى لسانه من فمه بعد أن فغره عن آخره وسرت رجفة قوية بجسده وكأنه قد مسه الجان، لم يتعرف عليها في البداية ولم يكن متأكدًا أن زينة هي التي أمامه من فرط تشوُّه ملامحها.. بدأ يتراجع بظهره مذهولا وشعر بأنه قد فقد القدرة على النطق والاستيعاب معًا.. ما أن تخطى عتبة شقتها حتى ارتقى الدرج هابطا في سرعة واندفاع ثم هرول مستقلا دراجته البخارية والنوبي يحملق في وجهه ذاهلا..

- حصل حاجة يا أستاذ؟

قالهـا النوبـي وهو يهـم بالنهوض مستفسـرًا في قلـق فلم يجبه، وسـرعان مـا اختفـى بدراجته البخاريـة دون أن يفطن إلى أنه يسـير عكس الاتجاه..!

*****

تنبه العقيد حسـين أن هاتفـه يهتز بإلحاح فأخرجه بتكاسـل من جيبـه، فلمـا وقعت عيناه على شاشـته ترك مقعده على البـار مبتعدًا بمسـافة، انزوى في ركن كاتمًا فمه بكفـه مطمئنا محدثه ومهدئًا من روعه ثم قال في حسم:

- إديني الظابط أكلمه..

دار حديـث لا يخلـو مـن رجاء فـي بداياتـه بين العقيـد وضابط الكميـن الشـاب لكي يتـرك شـادي ورفيقته زيـزي لحال سـبيلهما ولكـن ضابـط الكمين كان قـوي الحجة يرد في حـزم ولهجة مؤنبة لمن يتوسط:

- ده سُكر بين وفعل فاضح يا حسين باشا..

- يا سـيادة النقيب دول كانوا ضيوفي وشـربنا شوية لزوم السهرة ولازم نكرمهـم لغايـة ما يروحوا بالسـلامة ده واجـب الضيافة، والا اتحبس أنا معاهم كمان بقى..

قالها العقيد في سخرية وهو يطلق ضحكة مصطنعة ليعود ويلح على ضابط الكمين ليتركهما دون أن يترك له فرصة ليشرح ويدافع عن مبادئه وشرف مهنته، فقد كانت تلك أول مرة يطلب فيها منه شادي أمرًا ويستحيل أن يخذله حرصًا على مستقبله المأمول، فلما لم يلن الضابط صغير الرتبة حسم العقيد الأمر بلهجة مغلفة بتهديد سافر بالاتصال بقيادة الضابط والحضور بصحبته للكمين لتحريرهما..

خارت مقاومة الضابط مع تهديدات العقيد فهو يعلم صلته برؤسائه، ويوقن أنهم سيلينون ويستجيبون لوساطته من جراء سيل خدماته المنهمر على رؤوسهم، ولن يستفيد شيئا من مواجهة ريح عاتية بمفرده ستقتلعه وحده في نهاية الأمر، فأحنى رأسه مستسلمًا وهو يعطي الهاتف لشادي بعد أن قرر العقيد في النهاية إبلاغ رئيسه والحضور للكمين، ثم أدار وجهه متفاديا النظر له ولأمين الشرطة المكلف بحراستهما قائلا بنبرة خافتة متحشرجة:

- خليهم يروحوا يا أمين.. ورجع كل الرخص المسحوبة لأصحابها.. واعملوا تمام انصراف الكمين.

على بعد بضعة كيلومترات كان كمين شرطة آخر قد نصب شراكه قبل الحانة بمسافة قريبة، يقف على رأسه ضابط مباحث

مـن قسـم قصر النيل بملابسـه المدنيـة يراقب بوجـه مرهق متجهم ضابـط مرور الكمين وهو يستوقف السـيارات، فإذا مـا لمح بادرة خوف أو لاح له ارتباك على وجوه مسـتقليها تدخل بنفسه لتفتيشهم وسيارتهم، انتبه فجأة إلى صوت دراجة بخارية قادمة بسرعة عكس الاتجاه وصابر يحاول إيقافها بصعوبة من جراء سـرعتها المكتسبة، فأشـار لأحد مساعديه وسـرعان ما كان صابر يمثل كعصفور جريح بيـن يديه يقف أمامـه مرتجفا، وهو يتفصد عرقا بلا انقطاع كالسـيل المنهمر رغم برودة الطقس..

بـدا كالفراشـة التي ظلت تحوم حول النـار تؤدي رقصة الموت الأخيـرة، ثـم تلقـي بنفسـها فيهـا دون مقدمـات، تفحَّصـه الضابط مَليًّا ثم فتشـه وهـو يثبت نظراته علـى عينيه الزائغتيـن وما إن عبثت أصابعه المدربة في جيبه الأيسـر حتى لاحت ملامح ابتسامة انتصار كشفت عن أنياب الضابط التي كان يحجبها منذ قليل شاربه الضخم وملامحه الصارمة، وهو يتحسس لفافة الحشيش السلوفانية الكبيرة قبل أن يخرجها بإصبعين مشهرًا إياها في وجه صابر ممسكا بطرفها كبندول ساعة ساخرًا:

- دي لوحدها جناية غير مخالفة المرور يا بطل..

تهـاوى صابـر كبناء أجـوف دقه معول قـوي في عامـوده فتكوم علـى الأرض أمـام غرفـة رئيـس المباحـث.. علـى مقربة منـه كان

مدحت المعداوي يجلس على مقعد خشبي متوترًا يدخن بعصبية ويعبث بهاتفه المحمول ثم يضعه على أذنه، وما يلبث أن ينظر في شاشته ويعيد الكرة ثم يزفر في ضجر ويتلفت يمينًا ويسارًا فيزداد ضيقا، بجواره على مسافة غير بعيدة كان محروس يفترش الأرض دافسًا وجهه بين كفيه في صمت وبجواره زوجته تقبع بزيها الأسود مكلومة، بدا صابر مذعورا كفأر حبيس في حجرة معتمة ضيقة خانقة لا تسمح له بالحركة المعتادة فانكمش أكثر في مكانه حتى حان دوره بعد ساعات، فحمله اثنان من المخبرين الأشداء حتى مَثُلَ بين يدي رئيس المباحث ثم تراجعا خطوة للوراء فشتتا تركيزه أكثر؛ ظنا منه أنهما سينهالان ضربا على قفاه إذا ما أنكر، لكن ضابط المباحث الذي بدا متسامحًا هادئا عكس ما كان بالكمين أشار لهما بالانصراف وأمره بالجلوس، فامتثل بسرعة فقد كان متعبًا في أمسِّ الحاجة لإراحة جسده المنهك..

أخبره الضابط بأنهم اكتشفوا جثة زينة وسرقة مكتبها، فلم يرد وظل صامتا يتفرس في وجه الضابط بوجه منحوت لا حياة فيه.. ابتسم الضابط في برود وهو يقدم له سيجارة ثم اقترب منه وهو يغرق أذنيه بمفاجأة العثور على علبة الفطير وفاتورة الشراء وتأكدهما من المحل أنه كان مكلفا بتوصيلها إلى القتيلة، وأنه أخبر صاحب المحل بأنها اتصلت به هاتفيا كعادتها لتطلب منه ما تريد

وأخيـرا كان النوبي الذي شـاهده يفـر هاربا وأنه آخر مـن زارها في تلـك الليلـة، وبعد ما ألقـى الضابط بكل ما عنده بيـن يدي صابر لم يمهلـه ليدافع عن نفسـه، بل أردف في حسـم وكأنه يكمل سـيناريو قصة دارت أحداثها في مخيلته فقط..

- قولـي مين شـركاءك وسـرقتوا ايه، وليـه قتلتوها وانـا أوعدك بشرفي إنك تكون شاهد ملك..

كان صابـر مـن داخله يحتـاج عمرًا آخر على عمـره حتى يخرج ممـا هو فيه، وعبثا حاول إقناع الضابط بأنه شـاهد ملك بالفعل ولـم يقتل أو يسـرق مبررًا المخدر المضبوط معه بعثوره عليه في شـقتها ملقـى علـى الأرض فالتقطه فضولا، كان يحـاول أن ينجو من تهمة الاتجار بالمخدرات في طريق عبوره جسر النجاة الهش من جريمة قتل زينة قانعا بعقوبة بسـيطة للتعاطي، لكن الضابط العنيد لم يقبل أي تعديل في السـيناريو الذي رسـمه في مخيلتـه وأجبر صابر على قبوله بلا تعديل فظل يُضيِّق عليه الخناق قدر ما يستطيع..

قطـع حديثهمـا دخول أمين شـرطة ليبلـغ الضابـط بالعثور على جثـة طافية على النيل بالقرب من كازينو أبو الفدا في نهاية كورنيش الزمالك البحرية، أمره بالتحفظ على الجثة عند الشـاطئ مؤقتا دون انتشـالها لحيـن تعليمات أخـرى ثم التفت إلـى صابر منتشـيًا قائلا بلهجة حاسمة لا تقبل التردد كثيرا:

- شوف يا بطل قدامك حل من اتنين يا تشيل قضية قتل فيها إعدام والجثة انت اللي رمتها في النيل، ومسكناك متلبس كمان، أو تعترف بقضية زينة واوعدك إنها تبقى مخففة.. ضرب أفضى لموت يعني بالكتير سبع سنين ويمكن بالرأفة تلاتة، أما حتة الحشيش اللي كانت معاك انساها كأن لم تكن، جدعنة مني بمناسبة عيد الشرطة.. قلت إيه؟

بعد ضغوط ووعود ومفاوضات وتهديد ووعيد استمر ليلة كاملة رضخ صابر لسيناريو الضابط ووافق عليه بتعديل بسيط؛ أنه كان بمفرده وتشاجر معها؛ لأنها تعمدت إهانته فانتقم منها ووثقها وضربها على رأسها بآلة صلبة ألقاها بالطريق بعد ذلك، ولم يكن يقصد قتلها آملا في تخفيف العقوبة.. كان الضابط عند وعده الآثم فلم يثبت قطعة المخدر بالمحضر ودفع بالورق إليه ملقيا القلم فوقه فوقّع صابر بيد مرتعشة باسمه ثلاثيا على كل ورقة.. رجع الضابط بظهره إلى الوراء وهو يتثاءب ثم ضغط زرًّا أسفل مكتبه فمَثُل أمين الشرطة أمامه مرددا التحية العسكرية، أشار الضابط إلى صابر قائلا:

- عرض على النيابة مساء اليوم..

ثم سلمه المحضر وبعد برهة استدعى أمين الشرطة بمفرده قائلا بلهجة آمرة وهو يستعد لمغادرة مكتبه للراحة:

- خليهم يرموا جثة الراجل في النيل تاني علشـان تعوم مع التيار ناحيـة امبابة احنا مـش ناقصين قضايا.. النهاردة زينـة هانم وامبارح هاجر بنت البواب..

راح أفراد قوة القسـم يحملون جثـة الرجل العجوز ويلقونها في النهـر مـرة أخرى لتطفو بعد قليل ويجرفها التيـار وهي تتهادى على صفحة الماء إلى الجانب الآخر بعد أن أدت دورها المقسوم لها في إجبـار صابر على الاعتراف بجريمة لـم يرتكبها، بل ولم يفكر فيها يومًا ما أبدًا، بعد أن أعفاه الضابط من إثمه الحقيقي.

***

7

المرء يموت مرة واحدة

ارتكن محروس على حافة النافذة، وهو يطوي الحقول والغيطان بعينيه، حتى انخفضت السرعة تدريجيًا قبل أن يتوقف القطار لعطل بالقضبان، فأحدثت عجلاته صفيرًا متقطعا، وكأنه يلتقط أنفاسه اللاهثة.. راحت تفاصيل الصورة تتضح أكثر فأكثر.. وقع بصره على نخلة عجوز، جزعها ضامر وقد ناء بحملها فمالت وكأنها تخر ساجدة تائبة عن ذنوبها تكاد تلامس الأرض كما ينوخ البعير من تعب الترحال ومشقة السفر، وحامت حولها الغربان حتى أتت على ثمارها فنقرتها كلها ثم تركتها وكأنها لمْ تستسغ طعمها فشوهتها وطارت محلقة مرة أخرى في سرب أسود كئيب المنظر يجلب التشاؤم وقد علا نعيقها يصم الآذان...

تحسس جلبابه وآيات الأسى تغطي وجهه، كان جيبه منتفخًا بالمال الذي جمعه له السكان بعد مصرع هاجر في عيادة المعداوي، أغمض عينيه و كأنه يغلقهما على مشهدها الأخير لا يريد له أن

يخـرج للنور مرة أخرى، شـرد متذكـرا اللحظات الأخيـرة بالعيادة وكيف انسحب جاذبا داليا خليل من ذراعها مغادرًا العيادة في تلك الليلة المشئومة مهددا إياها بالقتل إذا مـا فتحت فمها بكلمة، وهي بدورها تعلقت بتهديده واستكانت إليه مضت خلفه كالسائرين نيامًا فلم تكن ترغب في فضائح أمام الشرطة والنيابة ليرتبط اسمها بقضية قتل، اختفت تمامًا بعد الحادث، ولم يستطع مدحت إجبارها على الشهادة لصالحه بعد أن لوحت لمحاميه بفضح عمليات الإجهاض التي يجريها فسـقط بين شـقي الرحى لا يعرف كيف يدفع عن نفسه اتهـام محروس له باغتصاب ابنتـه ومحاولته إجهاضها حتى فاضت روحهـا إلى مولاهـا بين يديه وفي عيادته، بينمـا دليل براءته الوحيد داليـا خليـل بـات علـى وشـك أن يدينـه في جريمـة أخـرى فصار كالمستجير من الرمضاء بالنار..

لم يكن محروس يحتاج يومها لكثير من التفكير فبمجرد انسحابه مـع داليا من غرفة المـوت بعيادة مدحت، حتى أبلغ شـرطة النجدة مـن هاتفها مقررًا أن مدحت يحاول إجهـاض ابنته، ومضت الفكرة في رأسـه فجأة فلم يمهل نفسـه وقتا لمراجعتها ونفذها على الفور، وضُبط مدحت بعدها بقليل متلبسا دونما تخطيط أو تدبير مسبق من بشـر.. وكأن السـماء صبت جام غضبها عليه وخاصمه القدر فتركه وحيدًا.

غـادر محـروس القاهـرة للأبـد، أطلـق القطـار صافـرة طويلـة ومضى يشـق طريقه ثانية وسط الحقول، يطوي مشاهدها في سرعة فاستحالت في عينيه إلى لون أخضر باهـت إلا قليلا، فأغلق جفنيه مـرة ثانية على صورة هاجر وهي تلفظ أنفاسـها فـي مخيلته لا تريد أن تبارحهـا، وكأنهـا حفرت في ذاكرته بمعـول هدم معقوف مدبب فصارت أخدودا عميقا لا يقوى الزمن على محوه أبدًا.

*****

مضت مريم تحادث نفسـها بعد أن جلست على الدَّرَجِ المواجه لباب شقة عائلة عبد الوهاب القديمة في انتظار حضوره.. ما أصعب التعامـل مـع شـخص يقرؤك مـن الداخـل، يـراك عاريًا بلا سـتر.. يكشـف عـن نقاط ضعفك بلا عناء، ولا يسـعك حينهـا أن تتحمل، فقد سـقطت أمامـه كل الحصون، وتـوارت أدوات الزينـة كلها في خجل مزرٍ، وانمحى الكبرياء تحت وطأة الحب الأول.. بقيت ورقة التـوت الأخيرة وها هي تستميت لبقائها وهي تأبـى بإصرار وعناد المكابرين ألا تسـقط.. هل عبد الوهاب لديه كل هذه القدرة بالفعل أم أنـا التي تجردت مـن كبريائي قطعة تلو الأخرى في عرض خاص له وحده؟!

لـم تجـد إجابة لتسـاؤلاتها ولـم تُرِدْ أن تسـمع من عقلها شـيئا فصمتـت، مكتفيـة بـأن عبـد الوهـاب قد وافـق أخيـرًا علـى لقائها

بعـد محاولات مسـتميتة منها وإلحاح مهين مســح مـا تبقى لها من كرامة، بعد أن اشـترط عليها شـرطين للقاء، أن تأتـي متطرحة، وأن يكون لقاؤهما بشـقة والده بوسـط البلد بعد مـا انتقلوا للإقامة بحي المهندسـين، فقبلت متضررة متعلقة بأهداب مشـاعر لاتزال تغذي قلبهـا الجريح فينبض بوهن.. اعتادت دومًا أن تروي بسـتان رغباته أولا لتموت حديقتها بورًا، هزت رأسـها في سـخرية وهي تتحسس طرحتها بكفها و زغاريد منيرة هذا الصباح عندما رأتها، لا تزال ترن فـي أذنيهـا وكأنها انتصرت عليهـا ووصلت إلى قمة نشـوتها عندما تطرحـت مريـم.. **يا اللـه**.. خرجت منهـا الكلمة وسـط زفير جريح يائس يتقافز كطير مذبوح قبل أن يسكن للأبد..

عبثـت بهاتفها في ملـل حتى وقعت عيناها على رسـالته لها في عيد ميلادها الماضي، قرأت ماكتبه قبل أن يتحول للنقيض وكأنه قد مسـه الجن: «**مازلت أتوضأ ببريق عينيك حيـن تحين صلواتي ومن أجلك أتجرد مـن كل نقائصي**» دمعت عيناها وهي تعيد القراءة، ثم قفـز إلى مخيلتها حديث أبيها إليها إزاء سـخافات زوجته وتضييقها عليها طالبًا منها أن تتحلى بالصبر، قضت عشـرة أعوام وهي تخفي دياناتها وكأنها رذيلة لا فضيلة، جاهدت كي تبحث عن وسيلة تصبر بهـا، فكفرت بـكل آيات الصبـر حتى آمنـت بأنه خرافـة اخترعناها جميعًـا لنلطف بها أوجاعنـا حين تصطدم أحلامنا بالفشـل في حق الحياة مع من نحب في سلام.

أفاقت من شرودها على وقع أقدامه.. مضت تتأمله في ذهول وهو يرتدي جلبابًا أبيض قصيرًا، أسفله سروال من ذات اللون.. كادت تصرخ في وجهه كيف يتبدل الرجل وكأنه عجينة طرية لينة لا تجف أبدًا فتتغير أشكالها بسهولة.. فاجأها بأن أعمل مفتاحه في باب الشقة ودلف دون أن ينطق بكلمة، وكأنها كم مهمل أشبه بصفيحة قمامة يأنف أن ينظر إليها.. نهضت متنمرة ثم صفقت الباب خلفها بعنف معلنة عن رياح غضب مكتوم على وشك الهبوب..

جلس متربعا وأخرج سواكا من جيب جلبابه ومضى يلوكه في فمه، وهو يرميها بنظرات باردة ليطفئ غضبها فزادها اشتعالًا.. تمالكت أعصابها واستجمعت قواها مستعيدة ذاكرة مشاعرها وأحاسيسها لمرة أخيرة، وهي تحادثه بنبرة هادئة ودودة تستجدي الرحمة من بين طياتها فكان يتململ في جلسته أكثر.. شرعت في خلع طرحتها المكذوبة فاتسعت عيناه شذرًا فخابت إرادتها وتراخى ذراعاها، جلست على مقربة منه وهي تحوطه بعينين تلوح منهما أطلال حنين قائلة:

- نسيت يا عبد الوهاب حكايتنا في الغرام..

- أستغفر الله...

تمتم بصوت هامس لم تسمعه مريم..

- لسه عاوز تتجوزني فعلا؟

- نعم.

- بتحبني...؟

ساد صمت القلق انتظارًا لجوابه.. يزوم بما يعنى موافقته..

- جاوب.

- ما انا جاوبت.

- دي مش إجابة محب أو عاشـق، وحتـى تصرفاتك كلها عبارة عن.......

قاطعها بعصبية:

- عايزة تسمعي إيه تاني بعد موافقتي على الجواز منك؟ ده فصل الختـام في كل حكاية غـرام زي ما قلتي.. اسـمعيني كويس أنا عليا ضغوط كثيرة، ومش عاوز أخسر علاقتي بربي وكفايا اللي فاتني في دنيتي، تتنقبي ونتجوز ونسـافر صنعاء وكفاية اوي إني سـاكت على بلاوي تانية..

- في دهشة بالغة ردت مريم:

- أتنقب!! ونسافر صنعاء؟؟

رددتهـا مرتين كمن لا يصدق ما يسـمع.. ثم أفلتت منها ضحكة سـاخرة كانـت مكبوتـة، رمقتـه بنظـرات حائـرة و تكرر في دهشـة وبصوت خفيض:

- ساكت على بلاوي!!

لـم يـرد وظل يزفـر في ضيق وهو يتطلع لسـقف الحجرة وسـاد صمـت ثقيل، ثم بدأت نذر العاصفـة تلوح في الأفق قريبًا، فأردفت بجدية:

- ليه عاوزني أتنقب؟ وليه طلبت مني اجيلك النهاردة متحجبة؟ مش الأقباط دول اخواتنا ولا نسيت كلامك الأولاني؟

قالتها وهي متنمرة تنتظر الإجابة في تحد.

قال عبد الوهاب في سخط:

- مالهـم الأقبـاط ومالنـا؟ ربنـا تاب عليكـم وانتـم دلوقتي عيلة مسلمة، أما النقاب فده أقل ما يمكن أن يمسح خطيئتك معي..

أجابته في تحد:

- وانت مغلطتش؟ ولا انا كنت بغلط لوحدي؟

- مـا اجتمـع رجل وامـرأة إلا وكان الشـيطان ثالثهمـا، وأنا نيتي كانت الجواز منك ومازلت، والله غفور رحيم.

- غفور.. رحيم.. ليك وحدك؟! وأنا؟ ضحية وحيدة لشيطانك؟ هو انا مش كنت برفض اتعرى ادامك كل مرة؟ دلوقتي بقيت أنا الجاني وانت الجلاد؟

أشاح بوجهه وهو يلوح بيده غير عابئ بحديثها:

- قلت لك اتنقبي لتمسحي خطاياك..

- عايز تمسح خطاياي بخطيئة؟ تدفني في النقاب علشان تحس برجولتك؟ أتنقب علشان اعيش في الضلمة، في السر، نسيت كلامك ان الحياة لا تُحتَمل عندما نمارسها كعادة، وانها تتحول جحيما عندما تصبح العادة سرية.. انت إيه اللي حصلك وفاكر نفسك مين علشان تتحكم فيا كده؟

رفع رأسه ببطء قائلا في تحد:

- على الأقل أنا أحسن من أبوكي، أنا عرفت واتاكدت انه بيقدم المُسكرات والعياذ بالله في خمارة حقيرة، ومش بيشتغل في إدارة مالية بشركة الفنادق زي ما بيكذب عليكم هذا الأفاق الكذوب وكفاية أوي إني حاقبل الزواج منك وانتي بنت ساقي في بار.. وحسبي أنكم الآن مسلمون، اسمعيني كويس أنا استخرت الله والنقاب هو الحل علشان اغفر لك ذنوبك ومحدش يعرف انك بنت البارمان الكافر ده..

- أنا قبطية يا مولانا...

قالتها بسـخرية مريرة بعد أن نزعت طرحتها عن رأسها ونهضت ولكنهـا فجـأة ترنحت كعامـود على وشـك السـقوط، وقلبها يكاد يقطـر دمًا علـى حبيب خان العهد.. لم يستوعبْ عقلها ما قاله عن أبيها فشـعرت أنهـا تدور في فقاعة كبيرة من الوهـم لا تجد لها منها مخرجًا، فراح فكها يميل ناحية اليسـار متدليا مرتعشًـا وهي ترجف ثم اتسـعت حدقتا عينيها محلقة في عبـد الوهاب الذي كان لا يزال مسترسـلا في الحديث عن مهنـة أبيها، وهو يريهـا هاتفه المحمول الـذي يخزن علـى ذاكرته صـورًا لستيفي بالحانة التقطهـا أصدقاء عبد الوهـاب ممن يزاملونه الدروس الدينية بتعليمات من شـيخهم عبد الموجود الذي وضع له خطة اللقاء وأمره باسـتخدام ورقة مهنة أبيها للضغط عليها كي تتنقب..

صاح عبد الوهاب بعصبية:

– **شوفي واتأكدي بنفسك.**

ثـم انتبه فجـأة لكلمة قبطيـة، وكأنه تلقاها على مسـامعه في التو واللحظة فشعر بأنها قد دقت رأسه فشطرته نصفين متساويين تماما، فارتج من داخله وهو يردد ببطء وصعوبة:

– **نصرانية؟! انتي نصرانية؟!!**

لـم ترد، انقلب وجهها باكيا حزينا تسـيطر عليه الفجيعة وتبسـط سيطرتها على كل بقعة فيه..

بدأ عبد الوهاب ينكمش في مقعده وهو يتفصد عرقا باردا غزيرًا، وهي تصوب ناحيته سهام نظراتها النارية و جسدها لا يتوقف عن الارتجاف. غطت سحب الغضب عينيها فلم تعد ترى منه ما يجعلها تتراجع أفلت زمام أعصابها في لحظات وشعرت بالدم يغلي في رأسها، وانحدر عبد الوهاب من عينيها الجاحظتين مع دموع الندم وتبخر فارسها مع أحلام الهجرة وأوهام الغرام.. لم تدر بنفسها إلا وهي تقذفه في عنف بمطفأة ثقيلة من الكريستال طالما وبخه والداه وهو صغير على العبث بها حتى لا يكسرها، فأصابت أم رأسه وكأنها تدك عقله الذي تجمد لتقتل بنات أفكاره المتزمتة، سقط أمامها مضرجًا في دمائه ووجهه الطفولي متأزم منقبض وسرعان ما ظهرت بركة صغيرة من الدماء أسفل رأسه، برقت عيناها وأفلتت منها ضحكة مبتورة، وفكها لا يزال يتدلى منحرفا، زاغت عيناها قليلا وهي تقترب من وجهه غمست كفيها في دمائه الساخنة المتدفقة بغزارة وتأملتهما، وضحكاتها تعلو في هيستيرية ثم هرولت مغادِرة على غير هدى كمن يفر من أشباح لا يراها أحد غيره، وراحت ترسم صليبًا بدمائه على الجدران وأبواب الحوانيت، حتى جفت دماؤه فكان صليبها الأخير في الفضاء وهي تصرخ من أعماقها، ثم جثمت على ركبتيها وهي تطلق نواحًا مكتومًا إلى أن سقطت بلا حراك، اكتفى المارة بمشاهدتها وعلق بعضهم ساخرًا وضرب البعض الآخر كفا بآخر ثم مضى لحال سبيله، بينما الأغلبية تتابع في صمت، وكأن الأمر لا يعنيها أو كأنها فقرة عابرة يواصلون

بعدهـا برنامج حياتهـم ولا يدرون أن كثيرين منهـم قد حان دورهم ولكنهم لا يدركون.

*****

سـبقهما سـتيفي إلى باب شـقته وهو يجر قدميه جـرًّا، ثم وقف أمامه يصعـد بعينيه الدَّرَج المؤدي للسـطح ولم يبـرح مكانه..لمح ابنـه شـهاب مقبلا عليه فأشـار لـه أن يطعم الطيور قبـل أن يتوجهوا للمحكمة، غـاب الصبي قليلا ثم خرج بكيس ممتلئ وقفز درجات السـلم قفزا، ما إن عبر بوابة السـطح حتى تسمر في مكانه للحظات ثم تراجع إلى الوراء خطوتين وعيناه تتسـعان خوفا مما يراه.. كانت الديوك الثلاثة قد مزقت أسـلاك أقفاصها وراحت ترتع في المكان، طيـور الحمـام مسـجاة بـلا حراك وثقـوب في جسـدها مـن مناقير الديكة.. وطارت البقية حتى صارت العشـة خاوية على عروشـها.. ألقـى الصبـي بكيس الطعام بعيـدًا بعد ما لاحظ اقتـراب الديكة منه فـي جـرأة.. فانصرفوا عنه منشـغلين بالطعام، اسـتجمع قـواه حتى يهدأ قلبه من شـدة الخفقان.. سـمع صوت أمه تناديه فأخرج صوتًا مبحوحًا ضعيفًا لا يُسـمع، فكررت نداءَها بنبرتها العصبية فتحركت قدماه بأمر من عقله المضطرب نزولا على الدرج، التقت عيناه بعيني والـده الذي استفسـر منه في صمت عمـا إذا كان قـد أطعم طيوره، فأومأ شهاب بالإيجاب ثم أمسك بيد أمه والتصق بها ولم ينطق بأي كلمة طوال الطريق إلى المحكمة.

تمـوَّج البشـر بدهاليز سـراي محكمة بـاب الخلق كبحـر هادر، أمواجـه عاتيـة تتأرجـح منها القـوارب الصغيـرة حتى تـكاد تغرق، يختلط الحابل بالنابل في أروقة محراب عدالة عفا عليه الزمن وأكل الدهر عليه وشرب فصار أطلالا كئيبة لا تبث طمأنينة ولا تشي بعدل قريـب.. باعـة جائلـون وبائعو تمغات ورجـال متنطعـون تجاوزوا الأربعين جُلبوا من مقهى قريب ليكونوا شـهودًا في قضايا لـم ير أيٌّ منهم أحداثها، ولكنهم لا يسـتحيون أبدا أن يقسـموا بأغلظ الأيمان علـى صحـة ما يقولـون ممـا لقنـوا.. محامـون يرفلون فـي أرواب سـوداء بعضها يضفي عليهـم وقـارًا وغالبيتها يثير الرثـاء من هيئتها المتواضعـة.. الشـروخ تزحـف في صمـت كثعابين علـى الجدران وتشـق السـقوف العالية للقصـر العتيق الذي أحاله حظـه العاثر إلى مـكان لإعادة حقـوق ضائعة، فضاع حقه في البقـاء باهيًا كما كان.. عيون متقاضين تترقب وصول محاميهم في شـغف تتعلق أبصارهم بالبوابة الرئيسة في لهفة انتظار قاتل يكاد يفتك بأعصابهم أو ما تبقى لهم منها..

تفتـرش بعـض النسـوة الأرض بجلابيبهـن السـوداء، تنتحـب إحداهن على نجلها الذي ضل الطريق وصار سـارقا، وتدمع أخرى في صمت وهي تدعو ربها أملا في أن تتخلص ابنتها من قسوة زوج لم يُحسن العشـرة وحرمها من أطفالها.. متهمون في ملابس بيضاء

يمضـون في صفين متراصين يربط بينهما قيد حديدي يعلوه الصدأ، محلقة رؤوسهم مطرقين في خجل وأحيانا في ندم، يدلفون من باب خلفي مترجلين من سـيارة ضخمة ذات ثقوب صغيرة على جانبيها أسـموها نوافذ، يكاد المرء منها يطل على الدنيا من ثقب إبرة وكأنه يُعاقَب مرتين..

ردد الحاجب بصوته الجهوري المميز العبارة الشهيرة:

- محكمة..

طـرق القاضي المنصـة طرقتين بمطرقته الخشـبية بعد أن لاحظ بعـض الضوضـاء بالقرب مـن قفص الاتهـام، ثم التفـت للحاجب طالبًا منه نداء المتهمين.. كانت فدوى تروح وتجيء خلف أسـلاك القفص ذي الفتحات الضيقة كلبؤة جائعة وقد أهوش شعرها وباتت نظراتهـا تائهة تطل من عينين فزعتين محدقة في الجالسـين بالقاعة، تبحـث في شـغف عن سـعيد النحـال الذي تـوارى خلـف محاميه محاولا أن يبدو متماسكًا مختبئًا وراء ابتسامة صفراء باهتة لم تغادر شـفتيه منذ دخولـه القاعـة.. جلس أمامـه مباشـرة المحامي وحيد حلمي بصحبة مسـاعديه وعشـرات الأوراق والملفات قد تراصت أمامهـم في نظام انتظارًا لـدوره في الدفاع عن الوزير السـابق كامل أبو الأسـرار الذي سـمح له نفوذه القديم بإدخال مقعد خشـبي إلى القفص ليستريح أثناء محاكمته!!

.. على عكس فدوى وتوترها، ظهرت مريم هادئة تستند بظهرها إلى الحائط خلف القضبان شاردة في وجوم، تطل من عينيها نظرة جامدة للسقف وكأنها تسبح في ملكوت آخر على مهل، تعلقت عينا ستيفي القابع في سكون منتصف القاعة بها، وكأنه يقول لها لست وحدك.. أنا هنا أحميك من نظرات الفضول المتسائلة عن تهمة تلك الفتاة الجميلة الحالمة، التي بدت بسكونها كوجه حزين في لوحة عتيقة أهملت على مدار الزمن.. على بعد خطوات قريبة من مريم وقف مدحت المعداوي بملابس بيضاء فاخرة نظيفة مهندمة ممسكا بالقضبان، ينقل بصره كبندول ساعة بين محاميه وقاضيه وكأنه يحاول تلمُّس مصيره المجهول..

كان ستيفي قد تخلى عن باروكته وعدساته اللاصقة وعاد إلى طبيعته فبدا كهلا، كأنه شاخ عشرات السنين في الأسابيع القليلة الماضية بعد القبض على ابنته مريم بتهمة الشروع في قتل عبد الوهاب الذي نجا من الموت بأعجوبة وجلس مع أبيه في نهاية القاعة مطالبًا بتعويض مدني عما أصابه من أضرار، ورأسه لا يزال ملفوفًا بقماش أبيض ناصع نظيف فبدا وكأنه يعلن عن عقل بداخله لم يستخدم بعد.!

على مقربة من مقعد الوزير السابق داخل القفص قبع صابر على الأرض، مرتكنا بظهره على أسلاك القفص، وكأنه قد خاصم

الحضور جميعًا ولم يعد يرغب في رؤية أحد، فدفن رأسه بين ذراعيه منكفئا ودموعه تغلبه كلما قاومها بعد أن تورط باعترافه بضرب زينة حتى الموت، فجاء تقرير الطبيب الشرعي وتحريات ضابط المباحث الذي دفعه إلى هذا المنزلق يؤكدان أنه تعمد قتلها بقصد سرقتها، قدمته النيابة محبوسًا بالتهمتين فقبع كفأر مشلول في انتظار قصاص من إثم لم يرتكبه..

الوحيد الذي بدا متماسكا نوعًا ما هو ضياء العجمي الذي وشى به ستيفي يوم الانتخابات خوفا من فوزه فقُبِضَ عليه بتهمة تزوير فواتير الأغذية والمشروبات وتلاعبه في حسابات الفندق، كان يبدو واثقا من براءته بعد أن لمس تعاطفًا من الإدارة معه بعد سجنه، فوقف متراخيًا في لا مبالاة، عاقدا ذراعيه أسفل صدره يبحث عن ستيفي بعينين تطل منهما رغبة مكبوتة في انتقام مؤجل، ظل يبحث عنه مثله مثل الباقين ولا يتعرف عليه بسهولة، فجميعهم لم يروه من قبل بمظهره الحقيقي، لم يعرفوه إلا ساقيًا نشيطًا ناضرًا، وعندما وقع بصرهم عليه اليوم كادوا يتشككون في أنفسهم، باتوا أشبه بمن يقف في منطقة جرداء بلا حياة.. أرض بور قاحلة.. تفصل بين الواقع والخيال فاختلطت عليهم الحقيقة بالوهم الذي عاشوه لسنوات طويلة في نشوة زائفة ولا يزالون يترنحون..

لم ينبس ستيڤي ببنت شفة، بدا كالشاهد الصامت، فهو القاضي الحقيقي الذي رأى عوراتهم، هو صندوقهم الأسود الذي يحتفظ بتفاصيل خطاياهم هو الشيطان الأخرس الذي طالما سكت عن الحق، حتى أخرسته فجيعته في ابنته للأبد.

استمعت المحكمة للشهود في قضية فدوى.. موظفو العلاقات العامة الذين شهدوا ضدها بأنهم رأوها تهرول وراء سعيد وتستميحه عذرًا أن يغفر لها دون أن يعلموا جرمها الحقيقي، وموظف شركة الاتصالات الذي قدم تفريغا برسائلها المرسلة إلى سعيد النحال من هاتفه، وكلها تقر فيها بأنها المخطئة وتطلب منه العفو عنها وسوف تصلح ما فسد دون أن تفسره، ففُسر ضدها..

- نادي على المجني عليه...

قالها القاضي وهو ينظر للحاجب الذي انتفض واقفا وقد علا صوته:

- سعيد محمد النحال...

تقدم سعيد وأقسم على ألا يقول إلا الحق.. ثم استرسل في سرد أكاذيبه شارحا ما يحفظه عن ظهر قلب وخطط له مسبقا بدقة، فشرح كيف أنه منذ عام مضى افتتح حسابا باسمه وآخر باسم زوجته بالبنك الذي تعمل فيه فدوى عبد السلام، التي أبدت تفانيا في العمل

جعلـه يثق فيها ويرتاح للتعامل معها إلـى أن اطمأن إليها، ثم فوجئ منذ أسابيع بسحب رصيده ورصيد حساب زوجته بالكامل بموجب شيكات بنكية، وتفويض مزورين بتوقيع منسوب له..

كانت فدوى تتابع شـهادته والذهول يقطر من عينيها وقلبها يكاد يدمـى، حاولـت الحديـث ومقاطعته فخانهـا صوتها ولـم يخرج.. شـعرت بأنهـا تنهـار ببـطء وكأن كلماتـه تنهـش جسـدها قطعة تلو الأخـرى.. أزاح القاضـي نظارته الطبية الذهبيـة وقلب أوراق تقرير خبير الخطوط أمامه، فوجد أنه قد انتهى إلى نتيجة مؤداها أن جميع التوقيعـات المنسـوبة لسـعيد النحـال، مقلـدة بطريقة متقنـة للغاية يستحيل على الشخص العادي اكتشافها..

تدخـل المحامي وحيد حلمي طالبًا الكلمـة فلما أذن له القاضي قـرر أنه بصفته محاميًا عن البنك الـذي تعمل به فدوى قد تصالح مع العميل سعيد النحال حرصا على السمعة التجارية للبنك، وسددوا له نصف المبالغ التي اختلسـتها فدوى بالشيكات والتفويض المزورين والباقي اتفقوا على جدولته معه.. أومأ سعيد بالإيجاب مؤكدا صحة حديث المحامي.. قلب القاضي في الأوراق ثم سأل وحيد:

– وهل أعادت المتهمة الأموال المختلسة من البنك؟

أجابـه وحيد بالنفي وهو يهز رأسـه أسـفا وكأن ماله الخاص هو الذي فُقِد..

- عندك أقوال أخرى؟

- لأ..

قالها سعيد للقاضي وهو يتقدم ناحية سكرتير الجلسة الملاصق للقفص ليوقع على أقواله بيده اليمنى وما إن فرغ حتى صرخت فدوى:

- سعيد أشول والله العظيم أشول..

ارتبك سعيد للحظات وتعلقت عيناه بالقاضي الذي انتبه لصراخ فدوى، فسأله وهو يقلب في التقرير مرة أخرى عما إذا كان يستخدم يده اليسرى أيضا.. تمهل سعيد لبرهة ثم رد مستعيدًا بروده:

- لا يا فندم وخبير الخطوط سألني نفس السؤال وجربت قدامه ومعرفتش..

وقع بصر القاضي على فقرة بالتقرير يؤكد فيها الخبير أن سعيد لا يجيد استخدام اليد اليسرى ولا يستطيع الكتابة بها بصورة منتظمة وذلك بعد فحص أوراق وتوقيعات محررة في ظروف طبيعية خلال عام مضى، وبجوارها محاولات لسعيد للكتابة بيسراه فبدت كخطوط طفل يتعلم الكتابة في بداياته.. حروف كبيرة وكلمات متعرجة ونقاط مفقودة..

ظلت عينا فدوى متعلقة بسعيد وهو يغادر القاعة في هدوء وكأن روحها تفارق جسدها للأبد ببطء، فتتذوق الموت مُرًّا مؤلما، خرج

سعيد وهو يسرع الخطى من باب المحكمة، تلفت قليلا ثم عبر نهر الطريق إلى الجانب الآخر ليستقر في المقعد الأمامي بجوار شريكته عزة الجارحي رئيسة الإدارة البنكية لتنطلق بهما سيارتها كالسهم بعد أن كانت قد سبقته بشهادة أمام النيابة من أسابيع مضت، لا تسمن ولا تغني من جوع مقررة أنها لا تتذكر أي تفاصيل عن الموضوع: **هذا العميل من اختصاص فدوى وهي التي قدمت التفويض وسحبت الأموال من حساباته وهي التي طابقت توقيعه،** تهاوت فدوى على الأرض كبالون فرغ هواؤه فجأة لما نطق القاضي في النهاية عبارة **«الحكم آخر الجلسة»** فأحدثت جلبة في القفص امتدت إلى القاعة فاشرأبت أعناق الفضول لتتابع حالتها.. بينما راحت هي في شبه إغماءة تكاد جفونها تنغلق إلا قليلا في حين اعوج فمها ناحية اليسار وسرت رعشة قوية في جسدها جعلتها تنتفض كل برهة.. لم يترك سعيد شيئا يحدث بطريق المصادفة إلا واستغله لصالحه منذ أن قرر سرقة البنك الذي وضع به أمواله، منذ نحو عام ولم يجد أفضل من فدوى وبعدها عزة لتنفيذ مخططه فأحكم خطته وسد كل ثغراتها حتى ضاقت عليها واستحكمت فلم تعد قادرة حتى على التقاط أنفاسها فتلوت على أرضية القفص ألما وكأنها تُحْتَضَر، والباقون اكتفوا برمقها بنظرات صامتة وشفاه ممطوطة.

طرق القاضي طرقتين ليستعيد الهدوء، ثم راح يستمع لمرافعة وحيد حلمي مدافعًا عن الوزير السابق في قضية من قضايا الفساد

التـي تمرس فيها، بعـد دقائق من بدء مرافعته التقـط وحيد ترددا في عيـن القاضي وتوترًا لدى عضو اليسـار، وتركيـزًا وانتباها من عضو اليمين فلعب على تلك الأوتار ببراعة، حتى كاد الحاضرون يسمعون أنشـودة البراءة وهي تعزف.. لاحـظ وحيد انفعالاتهم المكتومة مع أجـزاء مرافعته وتَغَيُّـرَ ملامحهم كلما قدم ورقة أو استشـهد بدليل، فظـل يتنقل بينهـم ببراعة كالفراشـة وهو يصول ويجـول عن طبيعة العمـل بالوزارة التي تولـى الوزير أمر قيادتهـا، وكيف خرج بها من عنق الزجاجة ورسـم سياسـتها العامة لتتماشـى مع سياسـة الدولة، شـارحًا الفـارق بين المركزيـة البغيضـة واللامركزية الرشـيدة التي اتبعهـا كامل أبو الأسـرار فترك لمعاونيه الحرية فـي اتخاذ القرارات ولـم يغفل الرقابة والتوجيه والمحاسبة، ثم اندمـج وحيد أكثر فبدا كممثل قدير يُبدع على خشبة مسرح وهو يقول:

- مـن الظلـم يـا حضـرات أن نحاسـب الوزيـر علـى أخطـاء مرؤوسـيه.. هـو يتابـع نعـم.. كان يحاسـب؟ طبعا وبحسـم وحزم وشـدة.. ولكن الوزير مش مغسـل وضامـن جنة يا سـيادة الريس.. ولما الفسـاد اسـتفحل في الوزارة من وكلائها وموظفيها الكبار ولم يقو على محاسبتهم لأنهم قطط سمان، قرر الوزير أن يحاسب نفسه قبل ما أي حد يحاسبه فقدم استقالته..

سـرت همهمة في القاعة واندفع بعـض المصورين نحو القفص لالتقـاط صـور فوتوغرافيـة للوزيـر الـذي كان قلقا.. شـرب وحيد جرعة ماء ثم استرسل بصوت جهوري:

- نعم استقال من شهور طويلة، لكن في بلدنا محدش بيستقيل لازم يُقال، بس أنا باؤكد لحضراتكم إن أبو الأسرار استقال استقالة مسببة اعتراضا على الفساد.. في موضوع أموال التأمينات.

ثم بحركة مسرحية أخرج ورقة من ملف شفاف وقدمها للمحكمة في ثقة مصحوبة بابتسامة وزعها بالتساوي على المنصة، ثم تراجع خطوتين باسطًا ذراعيه وبنبرة عالية لا تخلو من سخرية واضحة:

- يعني لو كنا نعرف اننا حنتحاكم بعد ما استقلنا، كنا عملنا حسابنا وسلمنا الاستقالة لرئيس الوزراء على سركي علشان نضمن حقنا.. مش معقول يا سعادة البيه المجني عليه يبقى هو الجاني..

ضجت القاعة بالضحك وانفعل بعض أقارب الوزير فصفقوا على استحياء منبهرين بمرافعة وحيد حلمي، فطرق القاضي بمطرقته عدة مرات طالبا الهدوء مهددا بطرد من يتكلم من القاعة..

مضت الجلسة روتينية حتى جاء دور قضية مريم، سألها القاضي عن تهمتها فلم ترد، لكزها مدحت في ذراعها لينبهها إلى أن القاضي يخاطبها فظلت واجمة.. تقدم وحيد حلمي ليثبت حضوره معها مجاملة لستيفي.. ساد الصمت واشرأب ستيفي بعنقه، تعلقت الأبصار بوحيد الذي شمر عن أكمام روبه الأسود الأنيق ورسم على وجهه ملامح أسى عميق وحزن دفين أطل من عينيه فجأة ثم تحدث

بنبرة هادئة خفيضة، لم يستطع كل من بالقاعة أن يسمعه بوضوح طالبًا من المحكمة عرضها على مستشفى الأمراض النفسية:

- أعصابها تعبت يا حضرات المستشارين كفاية انها بقالها سنين طويلة عايشة وسطينا وهي مخبية ديانتها كأنها تهمة، والنيابة رفضت تحويلها للمستشفى أثناء التحقيقات وقالوا انها عاقلة..هو فيه حد عاقل يعمل اللي هيه بتعمله؟! حضرات المستشارين أنا مصمم على طلباتي بالكشف عن قواها العقلية قبل المرافعة.. وبعدها يقضي الله أمرا كان مفعولا، أشكركم..

تداول القاضي مع زميليه في كلمات موجزة ثم أرخى نظارته قليلا موجها حديثه لوحيد حلمي في ضيق:

- يعني نعتبر إن دي طلباتك ومش عاوز تترافع؟..

ارتبك وحيد قليلا من لهجة القاضي المغلفة بما يوحي بأن وراءها حكمًا قاسيًا وقر في يقينهم، بعد قراءتهم لأوراق القضية وعلى وشك أن يُنطق به ثم استعاد رابطة جأشه قائلا:

- نعم مصمم على طلبي بتحويلها لمستشفى الأمراض العقلية...

طوى القاضي الملف دون أن ينظر إليه قائلا بحسم:

- الحكم آخر الجلسة.. نادي على القضية اللي بعدها.

زاد توتر مدحت المعداوي وتفصَّد عرقه وتسمرت بعض حباته اللامعة على جبهته وهو يستمع لمرافعة هزيلة من محاميه بعد أن صمم الأخير على استدعاء داليا خليل للإدلاء بشهادتها ففاجأت مدحت بحضورها، ثم صدمته عندما قررت أمام القاضي أنها لا تعرفه معرفة وثيقة لدرجة تسمح لها بأن تكون معه في مكان وزمان ارتكاب الجريمة..

- معرفتي بيه سطحية جدا، مجرد شخص عادي بشوفه أحيانا في حانة ستيفي وسمعت من الناس إنه بيعمل عمليات إجهاض في عيادة الزمالك لكن يمكن تكون إشاعات...

بدت داليا واثقة من نفسها وهي تتلو أكاذيبها أمام المحكمة، مكتفية بابتسامة غامضة لعدسات المصورين الذين لاحقوها على شهرتها البائسة من أعمالها الفنية الهابطة.. استغلت داليا الموقف لصالحها تمامًا واكتسبت شهرة إضافية، وانقلبت من شاهد نفي حسبما سعى محامي مدحت إلى دليل إدانة جديد، استقر بجوار بلاغ محروس وتحريات الشرطة ليؤازرهما بشدة ويرجح كفة إدانته أكثر، فأطرق يأسًا خلف القضبان مستسلمًا لما يخبئه له القدر من مفاجأة فصل الختام..

عندما شرع القضاة في نظر قضية صابر، كان ينتفض ذعرًا وخوفا وهو يكتم دموعه فلم ينطق سوى بكلمات قليلة..

- والله العظيم أنا مظلوم.. لا قتلت ولا سرقت.

بعدها ترافع عنه محاميان صغار السن والخبرة فلم يجدا ثغرة ينفذان منها إلى براءته أو حتى تخفيف العقوبة بعد اعترافه التفصيلي، فشككا في كل الأدلة بعشوائية وكأنهما يبعثران الأوراق كلها لتختلط على الجميع.. فلما بُح صوتهما وخوت جعبتهما وخارت قواهما طوى القاضي الملف والتفت إلى يمينه ويساره متبادلا كلمات هامسة في مداولة سريعة، ثم طلب النداء على القضية الأخيرة وهو يزفر ضيقًا من طول فترة امتداد الجلسة واكتظاظها بالقضايا..

لم تحظ قضية ضياء العجمي باهتمام كبير كسابقتها وكأنما القضاة والمحامين قد أصدروا فيها حكمًا مسبقا فاتفقوا جميعا ضمنيا على إنهائها على عجل خاصة بعد ما تقدم محامي الفندق بطلب يفيد تصالحهم مع ضياء ومرور فترة طويلة على آخر فاتورة تلاعب فيها لصالحه وعرضه رد قيمة ما اختلسه..

علا صوت الحاجب بعدها يهز جنبات القاعة هاتفا:

- رُفعت الجلسة.

*****

غادر فؤاد فخري مكتب محاميه وهو يجر أذيال الخيبة بعد أن أخبره الأخير باستيلاء خاله على أطيان والدته المتبقية من ميراثها

لأبيهـا، فأسـقط في يده مرتيـن.. عندما طلب أتعابـا ضخمة لم يعد يملـك ربعها بعد أن صار مفلسـا، والثانية لما علم منه أن القضية قد تقبع عشـر سـنوات قادمة في أروقة المحاكم حتى يصدر فيها حكم نهائي يعيد له أرضه المغتصبة.. زفر في ضيق وهو يردد هامسا:

- المغتصب ينعم بالأرض وصاحبها يشـقى وهو يراها تغتصب أمامه كل يوم.. عجبي.

طار أمله الأخير أمام عينيه وحلق مرتفعا حتى توارى عن الأنظار فلم يعد يرى سـوى غيوم الشـتاء الحزين... وقعت عيناه على لافتة كبيرة مشدودة بلا اكتراث إلى شجرتين عجوزتين لفت نظره عبارتها المدونة بلون أحمر داكن وبخط منمق «مبارك لمصر».. أطلت نظرة يشـوبها الملل من عينيه المنتفختين.. ظل يسير في شوارع الزمالك المزدحمة بالمارة وبينهم رجال أبي عيدة وتابعيه، ينتشرون كالجراد يأكلون الأخضر واليابس، ولافتات التهنئة التي قاموا بنشرها بالحي العريق بفوز أول رئيـس منتخب لمصر تظللهم جميعا وهم يرتعون تحتهـا حتـى قادته قدمـاه نحو البار، فهبط الدرج وجسـده السـمين يترجـرج مـع كل خطوة لأسـفل؛ فبدا أشـبه بفيـل أدرك نهايته فراح يخطو خطواته الأخيرة نحـو مقبرته المختارة ينتظر مماته.. لم يكن سـتيفي موجودا فقد صـار يتغيب كثيرا عن الحانـة منذ القبض على مريـم ومحاكمتها فبـات ظهوره نـادرا ولدقائق معـدودات.. اختار

كرسيا على البـار الرئيس وطلب من النادل منتصر مشـروبا كحوليا خفيفا فهز الأخير رأسه دون أن يبادله التحية أو يرحب بقدومه؛ فقد كان يؤدي عمله بديلا لستيفي بعجرفة لا مبرر لها رغم أنه كان ينتظر قدوم هذا اليوم منذ فترة طويلة.. التفت فؤاد عن يساره فلمح العقيد حسين عناني شاردا يحتسي زجاجة من البيرة المحلية ويغمض عينيه بشـدة كلما تجرع منها، وكأنها الدواء لداء الاكتئاب الذي تمكن منه حتـى غلبه بعـد إحالته إلى المعاش المبكر، وتخلي شـادي عنه بعد أن تعرف مؤخرا على مدير مكتب وزير الداخلية فصار رفيقه ونديم خمره والجني الذي يلبي له أحلامه قبل أن تنطقها شفتاه على شكل رغبات..!

صـار العقيد حسـين عنانـي أشـبه بموديلات الملابـس القديمة التي تتخلى عنها المحلات بتخفيضات خيالية وبخسـارة في أحيان كثيرة بعد أن باتت عبئا على أصحابها ولا يريدها أحد من زبائنهم.. حياه فؤاد بإيماءة بسـيطة من رأسـه لعله يتعرف عليه ويتجاذب معه أطـراف حديـث مفتقد بعـد أن اعتصرته الوحدة مؤخـرا.. فلم يعره العناني اهتماما وكأنه والعدم سـواء، لـم يره رغم بدانته وصخبه في رفع كأسـه وطرقه على طاولة البار؛ فبديـا وكأن بينهما جدارًا عازلًا سميكًا من الصمت والتجاهل..

أفـاق من شـروده علـى صوت شـادي وهو يمرق بيـن طاولات البـار فـي طريقه إلى مكانـه محييا النادل منتصر بنبـرة صاخبة مدللا إيـاه كعادته.. مونتي... حياه منتصر ملوحا بكفه وبابتسـامة واسـعة تـكاد تصـل لأذنيه من فـرط كبرها تنم عن سـخاء زبونـه وأهميته.. كانـت داليـا خليـل تتأبط ذراع شـادي وترتدي فسـتانا يكشـف عن ثدييها السـخيين في وقاحة، وهي تتعثر في مشـيتها محاولة اللحاق بخطواتـه الواسـعة بسـبب كعـب حذائها المرتفـع كالمعتـاد، وهو يهمـس في أذنيها بعبارات وقحة تجعلها تطلق ضحكات ماجنة تثير الجالسـين وتلفت انتباههم... كان شـادي في الأسـابيع الأخيرة قد اعتـاد الظهور بصحبتها بعـد أن مل من دميته الأخيرة الراقصة زيزي التـي صـارت حركاتهـا وكلامهـا مكررين فأصابـه السـأم فلفظها، وواتتـه الفرصة للتعرف إلى داليا عندما أغراها بإنتاج فيلم لها تلعب فيـه بطولة تفتقدهـا وتتوق إليها، فأتت صاغـرة ودانت له حتى حان قطافها.

فـي مكانـه الذي لم يتغيـر منذ سـنوات جلس رأفـت الموادري يعبث بمكعبات الثلج في كأسـه يحركها بأصابعه يمينًا ويسارًا ببطء فتحدث دوائر عميقة ثم تطفو مرة أخرى بهدوء، وهو يتأملها سـاكنا بعيـن حزينـة واجمـة، يلفه الصمت بطبقة سـميكة، ويغلبه الشـجن بضـراوة ويقهـره الحنين بلا هوادة بعـد أن غاب عنـه رفيقه الوحيد

ونديـم خمره الأثير نبيل الألفي، ورحل فجأة بلا اسـتئذان عن دنياه منذ أسابيع...انتابته الهواجس وسرح مع خواطره وهمومه..فالمرء لا يعيـش مرتيـن، والعمـر يُسـرق، والكرامـة تُنزف، والعـدل على وشـك أن يدفـن حيا، وهو يئن مـن جراحه ومخـزون الصبر نفد أو كاد، لـم يتبق إلا القليـل.. الأجراس تدق ولكـن في صمت لا أحد يتنبه وربما لا يريد، الكل يترقب وينتظر، لا يسـاعدون أنفسـهم أبدا وكأنهم ارتضوا جميعا بأن تكون حياتهم موتًا مؤجلًا..

انخفض مسـتوى الإضـاءة ودارت الموسـيقى كالمعتاد، ولكن شـيئًا ما تغير... الوجوه لم تختلف وإنما النفوس تقلبت وأضمرت بداخلها يأسـا وضيقـا وناءت الأكتـاف بحمولهـا، كل منهم يحمل أسـراره الصغيرة في رأسه الذي بات لا يكف عن التفكير والشرود، ولم تعد نشـوة الخمر مهما بلغت حدتها تلهـي عن الدنيا وهمومها ولـم يعد النسـيان بعيدًا عـن الذاكرة كمـا كان..وكأن أروقـة الحانة وجنباتها على وشك أن تنطق.. متى تفيقون..؟!

*****

الوجوه قلقة..والنبـرات عصبية..النظرات زائغة تبحث عن أمل ضائـع.. اليـوم غير كل يـوم من أيـام المحاكمة، اسـتقر الجميع في أماكنهـم حتى اكتظت بهم قاعة المحكمة..ربـت النادل موفق على ساق ستيڤي مواسيًا ومال لمعي ناحية رأسه هامسًا:

- إن شاء الله خير يا ريس..

ثم أردف محاولا إخراجه من مزاجه المتجهم:

- انتخابات الغرفة السياحية نتيجتها اليوم وإن شاء الله نبارك وتبقى الفرحة فرحتين..

لم يرد ستيفي وظل ساكنًا شاردًا مصوبا بصره نحو مريم الواقفة كتمثال شمع بالقفص، وكأنه يحاول وصل خيط وهمي يربط بينهما ولكنها تعرض عنه ولا تنظر إليه أبدًا، تحجرت الدموع في مقلتيه وأبت أن تنحدر، في حين ظلت مريم سابحة في ملكوتها وكأنها انفصلت تمامًا عن المشهد..

مرت الدقائق بطيئة كسنوات في انتظار دخول القضاة القاعة لنطق الأحكام..والقابعون داخل القفص يتذكرون ماضيهم ويتأملون شريط حياتهم الذي يمر أمام أعينهم في سرعة..كقطار يعوض ما فاته.. الانكسار يطل من وجوههم، وبارقة أمل بعيدة تتوارى خلفه تتعلق كالغرقى بآمال تنزلق على لسان محاميهم الواقفين بجوارهم والذين راحوا يشدون من أزرهم ويطمئنونهم، حتى ظهر الحاجب وهو يهندم من سترته الصفراء الباهتة المتسخة صائحا:

- محكمة..

تعلقت الأبصار بشـفتي القاضي الوقـور الجالس في المنتصف وأرهفـت الآذان، احتُبسـت أنفـاس الجميع من شـدة الرهبة وسـاد صمت الترقب حتى خيم على القاعة كلها ولم يعد يسـمع إلا دقات قلـوب تـكاد تمزق ضلـوع أصحابها قلقا.... وسـرعان ما سـقطت فدوى مغشـيا عليها وهي تطلق صرخة مكتومة أشبه بصيحة البجعة الأخيرة فور النطق بسـجنها عشر سـنوات.. وسالت دماء غزيرة من كف مدحت عندما ضرب بقبضته قضبان القفص بشـدة وهو يسمع الحكم بحبسـه لسـنوات خمس قادمة لتسـببه في مـوت هاجر أثناء إجهاضهـا... في حين راح ضياء يسـجد شـاكرا متذكـرًا ربه بعد أن نسيه لسنوات لما نطق القاضي بعبارة وقف تنفيذ العقوبة، أما صابر فقـد غـرق في ذهولـه الذي لـم يفارقه منـذ ضبطه وكأنـه ظله وقت الظهيـرة بعـد أن جف حلقه فخرج بكاؤه أخـرسَ وكلمات القاضي تتردد في أذنيه كصدى صوت.. **إحالة أوراقه لفضيلة المفتي..**

دوت فـي القاعة زغاريـد غير متقنة وعلت أصـوات فرحة عارمة لفتـت الأنظـار من الجانب الأيسـر منهـا عندما نطـق القاضي حكما ببراءة الوزير كامل أبو الأسرار الذى أشار بيده لأنصاره وعائلته بعلامة النصـر مـن خلـف القضبان.. صمـت القاضــي برهة ليلتقط أنفاسـه ويواري توتره ثم نطق بالقرار الأخير بإيداع مريم مستشـفى الأمراض النفسية خمسة وأربعين يوما لبيان مدى سلامة قواها العقلية..!!

غـادر القضاة بعدهـا.. مطمئنين إلى أنهم حكموا بالعدل وسـاد القاعة هرج ومرج والتف الكثيرون حول القفص، تداخلت عبارات التهنئة مع كلمات المواساة والصبر، امتزجت الدموع بالضحكات.. حُملـت فدوى كشـاة ذبيحـة وهي فاقـدة للوعي، بينمـا صابر يتكئ على اثنين من حراسـه وهو يجر سـاقيه جرًّا بعد أن خذلتاه في حمل جسده..

ظل ضياء يلوِّح لأقاربه فرحا، ويبحث عن ستيڤي مرة أخرى في تشفٍّ واضح يطل من عينيه، بينما الوزير السابق يتحدث للصحفيين عن نزاهة القضاء المصري وشموخه وثقته فيه التي لم تَفْتُر يوما:

- كنـت واثقا مـن براءتي يا حضرات فلدينا قضاء نزيه شـامخ.. في حيـن راح مدحت يـداري وجهه خلف صحيفـة قديمة ليتفادى عدسات المصورين التي راحت تلاحقه في سعار..

الجميع يغادر القاعة تباعًا والأصوات المختلطة تُحدث ضوضاء لا يسـمع منها إلا جلبة.. يظهر فجأة شـاب مفتول العضلات يشـق الصفوف.. لم يكن إلا النادل منتصر الذي اخترق جموع المغادرين حتـى وصـل لمنتصـف القاعـة مهنئا سـتيڤي بفـوزه فـي انتخابات الغرفة..

- مبروك يا ريس...

يلتف حوله النادلان لمعي وموفق ويقترب أبو عدنان على استحياء مواسيًا منيرة المتجهمة، وهي تلوي شفتيها في امتعاض ويصحبتها ابنها الصغير شهاب، الذي غاص في حضنها خوفًا وحزنًا..

ظلت نظرات ستيفي شاردة وهي تطل من وجهه المحنط بعد أن هربت منه الدماء، كانت عيناه جامدتين تنظران إلى لا شيء.. بدا ذاهلا لا يشعر بمن حوله وهم يواسونه ويحاولون التخفيف من آلامه..دميت عيناه وبكى بعضه على بعضه معًا.. حاولوا معاونته على النهوض فلم يستجب، تيبس في مقعده فأجبرهم جموده على التسمُّر في أماكنهم..

شق صوت مريم الصمت، وهي ترتل ترانيم من بعيد بصوت ملائكي لا يخلو من شجن، فتحولت العيون نحوها وهي تغادر قفصها إلى سجنها، بدت هائمة يكسو الارتياح ملامحها وكأنها محلقة فوق السحاب.. متحررة من قيودها، تنظر إلى الجميع من علٍ بلا مبالاة؛ فالدنيا في عينيها لم تعد تستحق كل هذا العناء.. بينما ظل ستيفي متجمدًا فى مكانه حتى خلت القاعة كلها دونه، وهو على حاله لا يحرك ساكنًا أبدًا، فقط ظل مائلًا برأسه إلى الأمام قليلًا، فبدا كبناية عتيقة آيلة للسقوط ولكنها تعاند الزمن.

«تمت»

أشرف العشماوي

القاهرة في 3/ 11/ 2013

قالوا عن أعمال أشرف العشماوي :

رواية زمن الضباع

عندما قرأت رواية زمن الضباع لأشرف العشماوي تذكرت أسلوب الكاتب العظيم يوسف السباعي؛ فكل منهما يحكي زمنه ومرحلته.. سعادتي كبيرة بالعمل الأول للعشماوي لأنه تأكيد لحقيقة أن مصر لن تصاب بالعقم الإبداعي يومًا ما .





الصحفية/ آمال إبراهيم – جريدة النهار اللبنانية

فبراير 2012

* * *

إما الثورة وإما الانتحار.. خياران لا ثالث لهما عندما تعيش زمن الضباع، عندما يسود الضبع ويحكم، فهذه هي النهاية، وهذا هو فصل الختام.. هذا ما قرأته بين سطور «زمن الضباع» تلك الرواية النبوءة التي كتبها المستشار أشرف

العشـماوي قبل ثورة يناير بسنوات.. الرواية مكتوبة بالرمز عن غابة، على غرار رمزيـة «كليلة ودمنة»، وقلقي على مثل تلك الأعمال الفنية المهمة هو اختزالها فـي معادلات رياضية أوتوماتيكية سـاذجة لفك الرمـوز، مثلما فعل البعض مع رواية «أولاد حارتنا» أو مع فيلم «المهاجر»، لابد أن تبتعد عن المشـهد مسـافة وتلتقط أنفاسـك، كي تفك التفاصيل وتعيد ترتيبها، وسـتحبس أنفاسـك حين تشتعل المعركة بين الثعلب والضبع في نهاية الرواية، وأنت تخمن من سينتصر فـي النهاية؟ وهـل يُعد منتصرًا من فاز على خصمـه والغابة تحت قدميه أطلال وأشلاء؟! هل ترضى بأن تعيش زمن الضباع؟.. اقرأ الرواية ستعرف الإجابة.

الدكتور / خالد منتصر - جريدة المصري اليوم
يونيو 2011

* * *

رواية زمن الضباع لأشـرف العشماوي متميزة على مستوى سرد الأحداث وترابطها، ورسـم الشـخصيات. ويبقى هـذا العمل الأول لكاتبـه على قدر من التميز من حيث سرعة الإيقاع والاحتفاظ بخط سردي واضح للأحداث، ودقة رسم المشاهد التي يرقى كثير منها إلى دقة المشاهد السينمائية. أضف إلى ذلك اللغة التي تكتسب جماليات شاعرية في كثير من المواضع.

(عزة مازن صحفية ومدونة- مجلة الإذاعة والتليفزيون -
23 يوليو 2011)

* * *

بدأ الكاتب أحداث روايته «زمن الضباع» في الغابة وانتهى بها في الصحراء وربما قصد بذلك توضيح المتناقضات الموجودة في الحياة والاختلافات التي قد يواجهها الإنسان؛ ليتكيف ويعيش سواء في الغابة أو الصحراء أو ربما يكون تعبيرا منه عن الجفاء الذي ينتظر البطل في المراحل المختلفة التي تمر عليه أو الخواء العاطفي والنفسي، الذي قد يشعر به الإنسان إذا رحل الوفاء وغاب المثل الأعلى وانهارت القيم وحل الضبع محل الأسد في جميع مناحي الحياة لتتراكم إرهاصات الثورة وتجلياتها التي رأيناها في يناير 2011.

جريدة الأهرام - صفحة الأدب -

يوليو 2011

* * *

رواية «زمن الضباع» ذات إيقاع سريع يكشف لنا صراع جماعات القوى والمصالح في الغابة لتحقيق السيطرة عليها.

أغاريد مصطفى - جريدة الرأي

أغسطس 2011

* * *

رواية زمن الضباع شرح للسياسة على طريقة كليلة ودمنة وتتناول بشكل صريح أوضاع وأحوال الحياة السياسية في إحدى الدول من صعود جماعة لسلم السلطة بطرق غير مشروعة؛ حتى تتمكن في النهاية من السيطرة على مقاليد الأمور.

جريدة روز اليوسف

يونيو 2011 - محمد عبد الخالق

* * *

يحمِّل العشماوي عمله الأول برؤى وآراء سياسية، إن رواية «زمن الضباع» تدور حول فكرة أساسية هي غياب الإيمان بالقوة داخلنا؛ مما أدى إلى تدهور أحوالنا في كل المجالات، وبالتالي كان الانهيار هو النتيجة الحتمية.

أسامة فاروق – جريدة أخبار الأدب

يناير 2012

* * *

أشرف العشماوي كان مبدعا حقيقيًّا في روايته الأولى «زمن الضباع»، التي تشرح بصدق وبأسلوب أدبي راق ورائع وشديد الجاذبية ظاهرة نهش الأوطان في عالمنا العربي المعاصر، من خلال قصة رمزية جميلة.

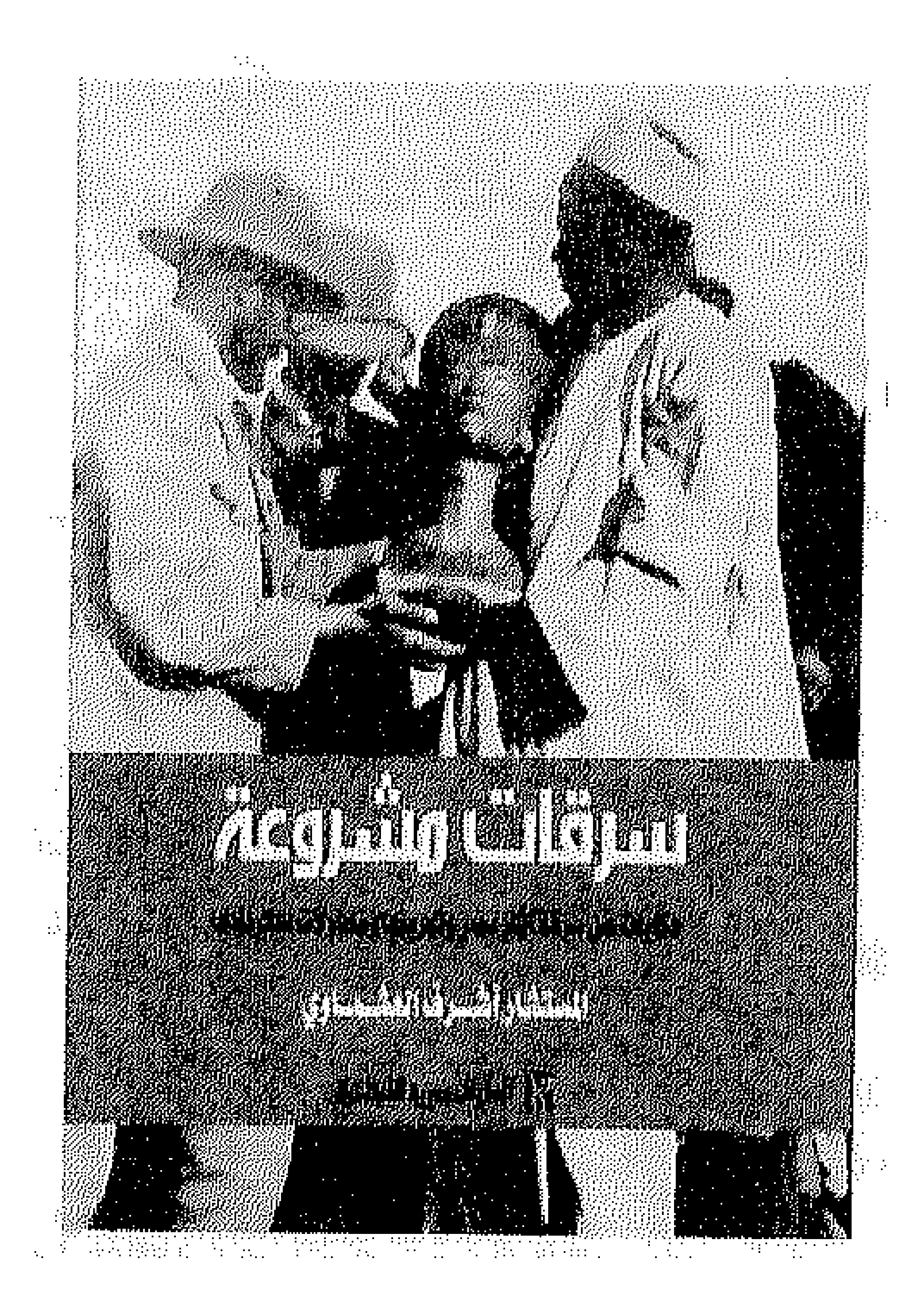
الكاتبة الصحفية والأديبة سلمى قاسم جودة – مجلة آخر ساعة.

أغسطس 2011

* * *

كتاب سرقات مشروعة

كتاب «سرقات مشروعة» لأشرف العشماوي يختلف تماما في بنائه وموضوعه عن الكتب التي تعالج الموضوعات المشابهة، والتي صدرت بعد الثورة، تتهم مسئولين بنظام مبارك في تجارة آثار وغيرها، فهو أقرب إلى أن يكون وثائقيًا وتاريخيًا ولكن بأسلوب أدبي قصصي مشوق.



جريدة الشروق – مايو 2012

* * *

يعكس كتاب سرقات مشروعة تحول المجتمع المصري على مدار 200 عام منذ بداية حكم محمد علي باشا لمصر، وحتى ثورة يناير، ولا يقف الكتاب عند هذا الحد فهو يسرد تجارب كاتبه الشخصية في مجال استرداد الآثار، وهي تجارب سمح له عمله في وزارة الآثار، ليس فقط أن يكون شاهدا عليها بل أن يكون كذلك عضوًا فعالًا و إيجابيًا فيها.

وكالة أنباء الشرق الأوسط

مايو 2012

* * *

إشفاقا مني على القارئ العزيز. أوصيه عند قراءة كتاب سرقات مشروعة أن يتحلى بضبط النفس والسيطرة على أعصابه؛ حتى يمكن أن يستوعب هذه المهزلة القوميـة في السـرقات الأثرية على مـدار أربعة فصول ممتعـة للغاية، إن حصول مصر على كنوزها المسـروقة لن يقل عظمة وأهمية عن عبورها قناة السويس في أكتوبر 73. وهذا كتاب يحكي من خلال موقع كاتبه المستشار أشرف العشماوي كمسئول عن ملف استرداد الآثار المهربة بوزارة الدولة للآثار، التفاصيل المذهلة لرحلة خروج هذه الكنوز. وأيضا رحلة استردادها.

رياض توفيق - جريدة الأهرام
أغسطس 2012

* * *

لـم يخطـئ المستشـار العشـماوي عندما أطلـق علـى كتابه المهـم عنوان «سـرقات مشـروعة» فأكثـر من نصف آثـار مصر قد خـرج بالقانـون ولـم يعد، ويتعـرض الكاتـب للعديـد مـن القصص عن خـروج القطـع المهمـة والنادرة واسـتردادها مثل استرداد آثار مصر من إسرائيل، وخروج رأس نفرتيتي وحجر رشـيد وجداريات متحف اللوفر، كذلك لسـرقة مجوهرات أسرة محمد علي، وحكايات خروج معابد بأكملها من مصر وعرضها في بلاد أوروبا حتى سـرقة المتحف المصري واحتراق المجمع العلمي في عام 2011.

الصحفية/ دينا عبد العليم - جريدة اليوم السابع

* * *

«سـرقات مشـروعة» كتاب مهم للمستشار أشرف العشماوي، يرصد كيفية خروج الآثار المصرية على مدار 200 عام بالوثائق والصور.

وكالة رويترز- مايو 2012

* * *

يعتبـر كتـاب «سـرقات مشـروعة» لأشـرف العشـماوي مـن أهـم الكتب الوثائقية التي تستعرض صفحات مجهولة من تاريخ سرقة ونهب وتهريب آثار مصـر وتراثهـا في القرنين الأخيرين؛ مما أدى إلى وجـود أكثر من نصف الآثار المصرية في الخارج.

موقع الجزيرة نت الإخباري/ بدر محمد بدر

* * *

سـرقات.. ومشروعة؟ هذا هو السـؤال الذي يطرحه هذا الكتاب ويحاول الإجابـة عنـه. وهو مـا يثير لـديّ الكثير مـن الآلام والحيرة التي استعدتها مع هـذا الكتـاب الذي صدر أخيرا للقاضي أشـرف العشـماوي ، بعنوان سـرقات مشـروعة، ويكشف فيه صاحبه أسـرارا كثيرة عن خروج آثارنا من مصر بسبب القوانين واللوائح، وهـو محاولة ترينا كيف يكون القانون هو الحامي والجاني معا؟ وكيف يتحايل الإنسان ليسرق نفسه أو يترك غيره ليسرقه، ويكافح لتصبح السرقة مشروعة؟!

الصحفي/ مصطفى عبد الغني - جريدة الأهرام

* * *

كتاب «سرقات مشروعة» للعشماوي، هو ملخص 200 عام من سرقة آثار مصر ونهبها بالقانون.

نبيل سيف - جريدة الفجر - مايو 2012

* * *

رواية تويا



وصلت للقائمة الطويلة لجائزة البوكر العالمية للرواية العربية لعام 2013.

في ثاني عمل روائي له يسجل المستشار أشرف العشماوي انتصارًا سرديًّا فائقًا بإصداره رواية، يمكن أن توصف بأنها كلاسيكية تحمل اسما فرعونيا «تويا»، وتأتي هذه الصفة لها من اعتمادها على الراوي الذي يحيط علما بكل الشخصيات والبواطن، وعنايتها بالحبكة الدرامية التي تربط جميع الخيوط المتناثرة، وتجيب عن كل الأسئلة دون أن تترك شيئا يذكر كما تفعل الروايات الحداثية.

الدكتور صلاح فضل - جريدة الأهرام

* * *

تويا رواية أدبية رائعة عن صراع الهوية، ومنذ الإهداء نجد أنفسنا أمام هذه الثنائية الفردية التي يجعلها المؤلف مرتكزًا لفهم عالمه : «إلى من يظن أنه يتخذ جميع قراراته بعقله فقط، تأكد أن قلبك يخطو الخطوة الأولى في أحيان

كثيرة، فتكامل ثنائية العقل والقلب وليس انفصالها، ينسحب على مجمل رؤيته في هذه الرواية».

الصحفي بلال رمضان- اليوم السابع

* * *

روايـة «تويـا».. حين تكون النفس حائرة بين الحلـم والواقع تظهر الجذور الإنسانية العميقة لبطل هذه الرواية.

إيهاب مسعد – جريدة العرب القطرية

* * *

«تويـا» عمل أدبـي ممتعٍ للعشـماوي، فمنذ البداية يضـع المؤلف بطله في تناقض بين نفسـه ومجتمعه، بين حلمه وواقعه، فتتغير ملامحه النفسـية.. بطل تراجيدي إغريقي ينتقل من موقع السلب إلى موقع الإيجاب.

نادية البنا – جريدة أخبار اليوم

* * *

في رواية « تـويا» يغادر أشـرف العشـماوي مجازاتـه الكبرى، التي أقامها فـي روايته الأولى«زمـن الضباع» فلم يتخفًّ وراء الرموز والاسـتعارات قاطعًا بذلـك وشـائجه مع تراث كبير في هذا السـياق، بعد أن جربـه مرة واحدة، وهو الإبلاغ على لسـان الطير والحيوان، كمـا في كليلة ودمنة، ومنطق الطير؛ ليقول

ما يريد دون خوف هذه المرة، فيدخل إلى عوالم حقيقية وواقعية ممتعة، راصدًا بخبرته الإنسانية الكبيرة، دوافع أبطاله وطموحاتهم وانكساراتهم.

جريدة أخبار الأدب – مصر

* * *

لقد حملنا أشرف العشماوي معه على أجنحة روايته «تويا» التي نسجها على إيقاع ناعم لنتابع قصة حب رقيقة، راقية.

جريدة الوطن – البحرين

* * *

«تويا» رواية عن العودة إلى الجذور الإفريقية وصراع الهوية بين الغرب والشرق، عمل أدبي ممتع ورائع، ويحوي قصة رومانسية رقيقة تعود بنا إلى زمن الرواية الجميل.

موقع محيط الإخباري

* * *

في «تويا» يفاجئنا أشرف العشماوي بعالم مدهش وسط أحراش إفريقيا قارة القهر والحرية، الطبيعة البكر والتجارة في البشر وبين ذلك كله تستيقظ قصة حب جميلة بين يوسف وتويا التي تحمل اسمًا فرعونيًا له دلالته التاريخية، هل ينتصر البشر على تجارة الأعضاء البشرية؟ حتى نصل إلى إجابة نكون قد قطعنا رحلة ممتعة وسط المكان والأرواح المتمردة.

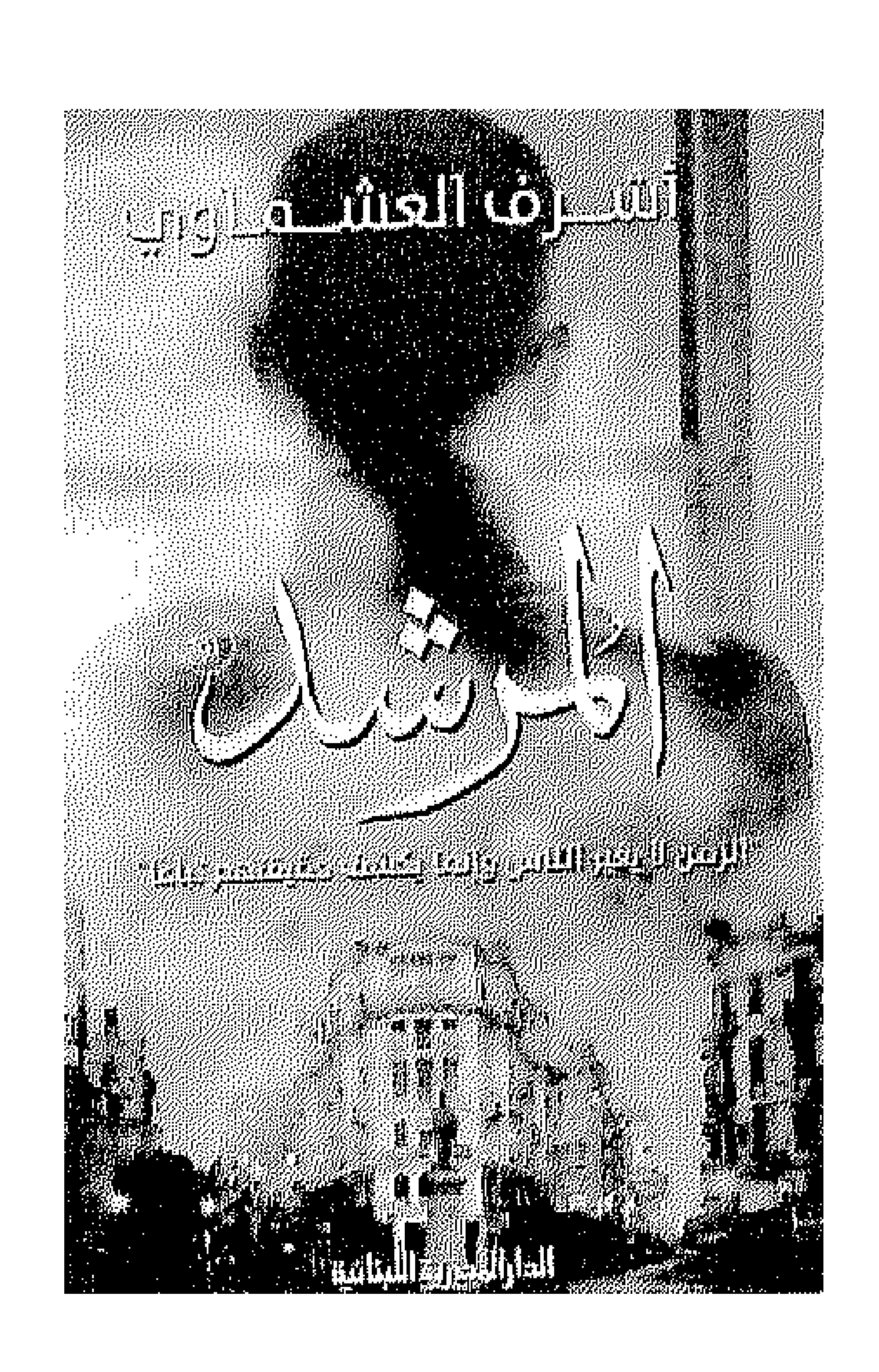
الروائي: إبراهيم عبد المجيد

* * *

إن «تويـا» روايـة تطرق موضوعًا مطروقًا، من منظـور مغاير، فتغدو قراءتها مصدرًا للفائدة والمتعة.

سلمان زين الدين
جريدة الحياة اللندنية

رواية المرشد



تتميز حركة السرد الروائي عند الكاتب المصري أشرف العشماوي بالتنوع والدهشة وهذا ما نلحظه من خلال باكورة أعماله الروائية «زمن الضباع» مرورا بروايته الثانية التي وصلت للقائمة الطويلة لجائزة البوكر العالمية لأفضل الروايات العربية «تويا» حتى صدرت له مؤخرا رواية «المرشد» التي أثارت جدلا كبيرا في الساحة الأدبية لما تكشفه من جرائم سرية وتصاعد التيارات الدينية المتطرفة في ذات التوقيت.

عبد القادر كعبان / كاتب وصحفي جزائري

* * *

كف مريم كلمة السر المدهشة التي استخدمها العشماوي ببراعة في روايته الرائعة «المرشد».

وفاء شهاب الدين / روائية

* * *

اختار أشرف العشماوي في رواية «المرشد» موضوعا مختلفا وتوجها مغايرا لروايتيه السابقتين ليثبت قدرته على التعامل مع الموضوعات الواقعية التي تمس صميم المجتمع المصري وتخترق دهاليز الجريمة السرية في مصر فشخصيات رواية المرشد هي كائنات حية أكثر منها خيالات رسمها المؤلف باقتدار وحرفية بالغة. وتأتي النهاية بنبوءة ومفاجأة لا يتوقعها أحد على الإطلاق.

جريدة اليوم السابع

* * *

المرشد رواية عميقة للأديب أشرف العشماوي، الأسلوب الأدبي القائم على الحوارات الثرية هو البطل فى تلك الرواية الممتعة والتي يسلط العشماوي الضوء من خلالها على الكثير من الأحداث السياسية منذ نصف قرن ويجيب عن الكثير من الأسئلة التي نطرحها اليوم.

الصحفية / رشا حنفي ـ جريدة الاهرام

* * *

رواية «المرشد» لأشرف العشماوي قراءة تحليلية لأسباب تردي أوضاع مصر التي نعيشها اليوم ومنذ نصف قرن من الزمان، والتي يشبه فيها بطل الرواية ماهر السوهاجي بنبات كف مريم الذي يذبل وينزوي ثم يعود ليظهر مرة أخرى ليتلون مع كل عصر.

جريدة الوسط السياسية اليومية

* * *

سبق لي أن أثنيت على روايته الثانية «توبا»، وقرأت بعناية روايته الأحدث «البارمان»، وحين مضيت في قراءتها تمثلت لي تجسيدًا مكثفًا لانهيار رحلة الحياة النابضة في المشرب العتيق؛ كي تصب في نهاية المطاف في مبنى المحكمة الوقور، فهي رواية مكان بامتياز، وفي ذات الوقت شديدة الجاذبية؛ حيث يتقن المؤلف القدرة على التشويق والإثارة بشكل لافت للنظر بطريقة تشكيلية بارعة.

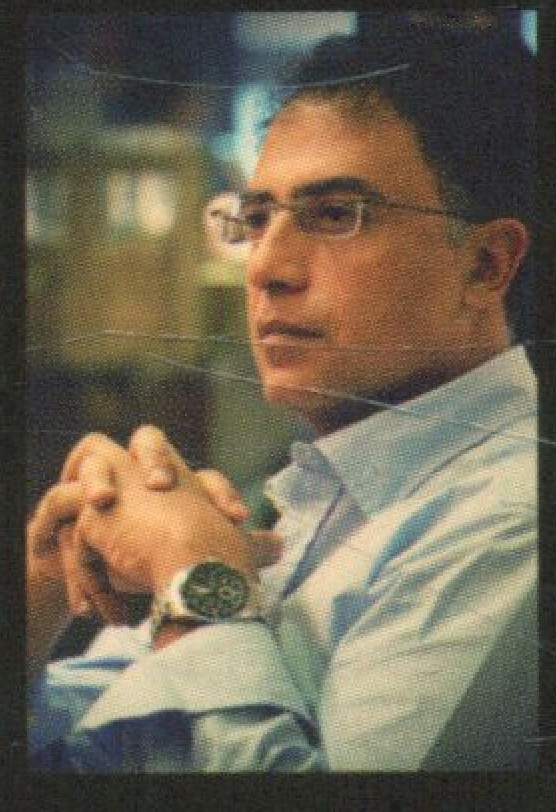
د. صلاح فضل

لقد أوتي العشماوي القدرة على إحالة النص المكتوب إلى مشهد سينمائي بمهارة، فيطالعه القارئ وكأنه يشاهده على الشاشة، وهذه القدرة ترشح أشرف العشماوي للكتابة السينمائية بامتياز . رواية «البارمان» نص أدبي جميل وممتع، وهي بالتأكيد خطوة واسعة ومهمة في رحلة أشرف العشماوي الإبداعية.

علاء الأسواني

تجسد هذه الرواية القاهرة بين فساد الراعي وشهوة القطيع ، والكبت العقائدي ومتاهة العشق المجهض ، عندما يتم اغتصاب الوعي والضمير لتصبح مصر المحروسة منهوبة، فتتهاوى عارية من قيمها تحت وطأة القلم المبدع للأديب والقاضي أشرف العشماوي في رائعته الأخيرة البارمان التي تجسد الروائي في أجمل حالاته، والفلسفة في أعمق صورها.





أشرف العشماوي قاض مصري بمحكمة استئ
صدرت له أربع روايات طويلة "زمن الضباع"
التى وصلت للقائمة الطويلة للجائزة العالمية
"البوكر" ، "المرشد " 2013، "البارمان" 2014
كتابا وثائقيا بالصور النادرة والمستندات عن
وتهريبها بعنوان: "سرقات مشروعة"، وبيعت
الفكرية لروايتي المرشد والبارمان لتحويلهما



للشراء عبر موقعنا
store.almasriah.com



9 789774 278556

الدار المصرية اللبنانية